الهدنة

ماريو بينيديتي

«رواية»

ترجمة: صالح علماني

ماريو بينيديتي

الهدنة

رواية

ترجمة: صالح علماني

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

الهدنة : رواية

ماريو بينيديتي
PQ8519.B292 T712 2011
.Benedetti, Mario, 1920-2009

الهدنة : رواية / ماريو بينيديتي ؛ ترجمة صالح علماني .- أبو ظبي : هيئة أبو ظبي للثقافة و التراث كلمة، 2011.
223 ص. ؛ 14×21سم.
ترجمة كتاب : La tregua: novella.
تدمك: 978-9948-01-810-0
1- الأدب الإسباني-العصر الحديث-المترجمات إلى العربية.
2- القصص الإسبانية-العصر الحديث-المترجمات إلى العربية.
أ-علماني، صالح.

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

الهدنة

يدي اليمنى سنونوة..

يدي اليسرى شجرة سرو..

رأسي من الأمام سيد حي..

ومن الوراء سيد ميت

بيثنتي هويدوبرو

مقدمة

رواية الهدنة

«أروغواي بلاد موظفين ومكاتب بيروقراطية. ليس مهماً أن يكون هنالك بعض الندل في المقاهي، وبعض عمال الفنادق، وبعض الحمالين في الميناء، وبعض المهربين الخجولين. المهم حقاً هو الأسلوب الذهني للفرد الأروغوائي، إنه الأسلوب المكتبي»، هذا ما يقوله ماريو بينيديتي في دراسة له بعنوان «بلاد ذيلها من قش»، صدرت في مونتيفيديو عام 1963، وهو ما قاله بطريقة أخرى في مجموعته الشعرية «قصائد المكتب» عام 1956، وفي مجموعته القصصية «أهالي مونتيفيديو» عام 1959، وهو ما يقوله هنا في رواية «الهدنة» أيضاً. وما ظل يردده عن أن الأسرة في أروغواي «من أجل أن تعتبر نفسها أسرة حقاً، يجب أن يكون أحد أفرادها موظفاً». أو وصوله إلى ما هو أبعد من ذلك بالقول: «أروغواي هي المكتب الوحيد في العالم الذي وصل إلى مرتبة جمهورية مستقلة»

ليس عبثاً أن أكثر من نصف سكان أروغواي يعيشون في العاصمة مونتيفيديو، وهي أعلى نسبة تركيز سكانية في عاصمة أمريكية جنوبية. وهذه العقلية المكتبية هي التي حملت أبا ماريو بينيديتي إلى مغادرة بلدة باسو دي توروس والانتقال إلى مدينة تاكوايمبو أولاً، ثم إلى العاصمة مونتيفيديو بعد سنتين من ذلك، حين كان الابن ماريو لا يزال في سن الرابعة.

هذا الواقع الديموغرافي فرض على أروغواي تميزاً خاصاً حتى على ثورييها. ففي ستينات وبداية سبعينيات القرن الماضي، عندما انتشرت

حروب العصابات الثورية في مختلف بلدان أميركا الجنوبية، بتأثير انتصار الثورة الكوبية وأفكار أرنستو تشي غيفارا، كانت تلك الثورات تنطلق من الأرياف، متخذة من قرى فقراء الفلاحين النائية بؤراً لها ـ حسب نظرية تشي غيفارا في البؤرة الثورية ـ ولكن ثوريي أروغواي تفردوا عن سائر بلدان القارة اللاتينية بتأسيسهم ما عرف باسم حرب عصابات المدن، نظراً لتركز القاعدة السكانية الأساسية في المدن، وفي العاصمة على وجه التحديد، ومن هذا الواقع نشأت في ذلك الحين منظمة «التوباماروس» لحرب عصابات المدن التي قادها دوغلاس برابو. وحول هذه التجربة الثورية بالذات كتب ماريو بينيديتي روايته الشعرية الوحيدة «عيد ميلاد خوان آنخل».

لقد التقط ماريو بينيديتي تلك الحالة الخاصة ببلاده، ودرسها بعمق، لاسيما أنه أضطر إلى ترك المدرسة وهو في الخامسة عشرة، ليواصل دراسته كطالب حر، ويعمل في الوقت نفسه موظفاً في شركة لقطع تبديل السيارات، حيث تدرج من صبي معاون حتى وصل إلى منصب مدير. ومن خلال تجربته الشخصية في الوظيفة البيروقراطية يقدم تصويراً دقيقاً لنفسية وسلوك ومشاعر بطله الموظف أيضاً في شركة متخصصة بتسويق قطع غيار السيارات. فبطل القصة (مارتين سانتومي) موظف في التاسعة والأربعين، ينتظر إحالته القريبة على التقاعد، ولكي يشغل وقته في شيء، يقرر البدء بكتابة يوميات حياته الرتيبة.

لقد كُتبت الهدنة على أنها مذكرات مارتين سانتومي، موظف أرمل يقترب من الخمسين، ويرى أن الوقت قد فات على تحقيق شيء مهم بعد بلوغه تلك السن، ولم يعد بإمكانه أن يتعلم أي شيء ـ ولا حتى العزف

على الجيتار ـ. إنه لا يعقد آمالاً كبيرة على المستقبل، ولا يقلقه إلا ما سيفعله بوقت الفراغ الطويل عندما يصير الوقت كله ملك يده، بعد تقاعده وإحالته إلى المعاش. ولهذا نجده يعيش هاجس الزمن: «لم يعد أمامي سوى ستة شهور وثمانية وعشرين يوماً كي أصبح مؤهلاً للإحالة على التقاعد. منذ خمس سنوات على الأقل وأنا أحسب هذا التقويم اليومي لرصيد عملي». هكذا يبدأ سانتومي مذكراته، ويتواصل هذا الهاجس حتى الصفحة الأخيرة من الرواية: «لقد انتهى زمن المكتب. ابتداء من يوم غد وحتى يوم موتي سيكون الوقت كله رهن مشيئتي. هاهي البطالة بعد طول انتظار. فما الذي سأفعله بها؟». رمادية الواقع اليومي الروتيني والتردي والإحباط وغياب الرؤية المستقبلية لدى هذا الموظف الممثل للطبقة الوسطى المدينية، تضمخ صفحات الرواية التي تتخذ شكل مذكرات شخصية.

لمارتين سانتومي ثلاثة أبناء بالغين يعيشون معه في البيت نفسه، ولكن علاقته بهم ليست على ما يرام. فاستيبان، أكبر الأبناء الثلاثة يبقى على مسافة حذرة من أبيه، وكأنه في وضع دفاعي، بل يبدو كما له أنه مستاء منه. إنه يريد الحفاظ على خصوصيته، وخاصة أنه يميل السهر والقصف، ولهذا يعود في أحيان كثيرة متأخراً إلى البيت. أما بلانكا فهي أكثر أبناء سانتومي شبهاً بأبيها. لها عينان شبيهتان بعيني أمها المتوفاة، وتبدو أحياناً كئيبة المزاج، مثل أبيها، ولكنها تهتم بالعالم، وبالشباب، وبالمشاكل الاجتماعية. إنها شابة محبة ومتفهمة في علاقتها بأبيها. ولكن خيمي، أصغر أبناء سانتومي، هو أحب الثلاثة إلى أبيه، وخاصة بمزاجه الساخر وحبه للمزاح. لكن خيبة أمل الأب تكون

كبيرة حين يكتشف ذات يوم أن ابنه خيمي شاذ جنسياً، فيستاء الابن من هذا الاكتشاف ويهجر بيت الأسرة نهائياً.

في هذه الأجواء الرمادية الكئيبة التي يعيش فيها مارتين سانتومي ـ بين المكتب والبيت ـ تنطفئ روحة، ويتحول إلى شخص متوحد وحزين، يشعر بالضجر من الحياة. طبعته الوظيفة بطابع الروتين الممل الذي صار يتقنه إلى حد إنجازه وهو يفكر في أشياء أخرى «لقد كان هذا اليوم يوماً سعيداً؛ اقتصر على الروتين وحسب». ولكن تلك الأوضاع الرمادية الكئيبة تنقلب فجأة إلى النقيض عندما يتعرف إلى لورا ابيانيدا، الموظفة الجديدة ذات العينين الهادئتين، والأنف الدقيق، والشعر الأسود، والبشرة البيضاء. إنها فتاة شابه، لها من العمر نصف سنوات عمر سانتومي، ولكنها ذكية، حازمة، محبة للعمل، واثقة من نفسها ومما تريده.

عندئذ تبدأ قصة حب عجيبة، زلزال رهيب يهز كيان بطلنا الذي يجد السعادة بعد أن حرمته منها الحياة لسنوات طويلة، منذ وفاة زوجته (إيزابيل) عند والدتها الابن الأخير (خيمي)، وترمله وهو في الثامنة وعشرين من عمره، واضطراره إلى تربية أبنائه الأطفال و«الخروج بهم قدماً، لأن ذلك هو المخرج الوحيد، كيلا يواجهني المجتمع بتلك النظرة الحتمية التي يحتفظ بها للآباء القساة. لم يكن هناك حلّ آخر، فمضيتُ قدماً.» ولكن الأبناء صاروا في العشرين أو الثلاثين من أعمارهم. وها هو الأب يلتقي بالحب في واحدة من أعذب قصص الحب في الأدب الأميركي اللاتيني، قصة تميزها البساطة والتلقائية واللغة المباشرة الشفافة التي صاغها شاعر متمكن.

ولكن ذلك الحب لم يكن سوى هدنة، مجرد هدنة من السعادة، لا تستمر سوى شهور قليلة، ولابد لكل هدنة من نهاية، ولا بد من العودة إلى الوضع السابق، إلى الكآبة والرتابة وحياة الوظيفة البيروقراطية التي تقترب من نهايتها. ففجأة، تصاب ابييانيدا بزكام عادي، تتغيب عن العمل يوماً ثم آخر، وآخر، ويبدأ سانتومي في التفكير بضرورة أن يطرح عليها مسألة الزواج «سوف أتزوج. فقد كان غيابها هذا أكثر إقناعاً من كل الحجج التي أسوقها، ومن كل الأحاديث التي أجريتها معها. كم أصبحت مدمناً عليها... على حضورها». ولكن غيابها عن العمل يتواصل، إلى أن يأتي يوم لا يدون سانتومي في مذكراته سوى كلمة واحدة مكررة: «رباه، رباه، رباه، رباه، رباه، رباه!»، ما الذي حدث؟ صمتٌ مطبق يلي تلك الكلمات. أربعة شهور من الصمت، نتبين بعدها أن ابييانيدا قد ماتت، وأن هدنة السعادة قد انتهت «مما لا شك فيه أن الرب قد خصني بمصير قاتم. لا يمكن القول إنه مصير قاسٍ، بل هو قاتم وحسب. ومما لا ريب فيه أنه منحني هدنة. لقد قاومتُ في البداية ولم أقتنع بأنه يمكن لهذه الهدنة أن تكون هي السعادة. قاومت بكل قواي، ثم استسلمت أخيراً واقتنعت بذلك. لكنها لم تكن السعادة، بل هدنة فقط. هاأنذا محشور مرة أخرى في مصيري. وهو مصير أشد ظلمة من السابق.. أشد ظلمة بكثير.»

أود أن أشير إلى أن الكاتب، وبعد حوالي عقد من صدور الرواية ـ في العام 1969 بالتحديد ـ يضمن مجموعته الشعرية «قصائد المكتب»، قصيدة بعنوان «لورا ابييانيدا». والمقاطع التي نترجمها هنا تقدم شهادة عن عاطفتها نحوه:

أنت لا تعرف يا مارتين سانتومي
كم أرغبُ في أن أمتلك الآن
كل ما في الدنيا من وقت كي أحبك
لكنني لن أدعوك إلى جانبي
فحتى لو لم أكن
ميتة بعد
سأموت عندئذ
بمجرد الاقتراب من حزنكَ.

أنت لا تعرف يا مارتين سانتومي
كم ناضلتُ لأظل حية
كم أردتُ أن أحيا لأجعلك تحيا
ولكني محرضةٌ ضعيفة على الحياة
لأنني آخذة بالموت يا سانتومي.

أنتَ لا تعرف طبعاً
لأني لم أقله قط
لم أقله حتى
في تلك الليالي التي كنت ترتادني فيها
بيديك غير المصدقتين والحرتين
أنتَ لم تكن تعرف كم كنت أقدّر
جرأتك البسيطة في حبي.

ويخيل إلي أن هذه القصيدة المكتوبة بعد سنوات طويلة على صدور الرواية هي تصفية حساب، وتسديد لدين قديم تجاه بطل روايته، لأن سانتومي المسكين بدأ يعاني فوق كل معاناته السابقة هاجساً جديداً لن يجد حلاً له: «كنتُ مستغرقاً في فكرة واحدة، تتفرع بدورها إلى شكوك عديدة: ما الذي فكرتْ هي فيه قبل أن تموت؟ ما الذي كنتُ أمثله بالنسبة إليها في تلك اللحظة؟ هل تذكرتني؟ هل تلفظتْ باسمي؟».

أصل القصة

في مقابلة مع مجلة بريتشا، وفي إجابة على سؤال: كيف خطر له أن يكتب هذه الرواية عن رجل أرمل يعاني أزمة الاقتراب من بطالة الإحالة على المعاش، في وقت كان لا يزال فيه شاباً؟ يقول ماريو بينيديتي: لم أكن شاباً جداً. كنت متزوجاً، وكان عمري خمسة وعشرين عاماً. يروي كيف جاءته فكرة هذه الرواية: «كنت أعمل في مكاتب شركة بيريا، حيث دخلت للعمل كصبي يوصل الرسائل، وتوصلت في ما بعد إلى أن أشغل منصب مدير... وفي أحد الأوقات، وكنت قد صرت محاسباً، وكان رئيسي رجلاً أرمل منذ زمن طويل، وفي حوالي الخمسين ـ إنه شخص جيد، رائع جداً، بالغ الهدوء ـ، بدأ يبدو لي سعيداً بالحياة، وهو أمر غريب عليه. وفي أحد الأيام قلت له «ما الذي جرى لك يا سيد دييغو، لأني أراك على ما يرام في الفترة الأخيرة؟»... فقال لي: «تعال معي إلى المقهى، سوف أخبرك» وذهبنا معاً، وهناك قال لي: »إنني عاشق»، ثم أضاف: «ولكن المشكلة أن للفتاة نصف سنوات

عمري. إنها في السادسة والعشرين. ماذا أفعل؟». فقلت له: «لماذا لا تتزوجها؟».»

وحين سألته الصحفية التي تُجري المقابلة: وهل ترمل مرة أخرى؟ قال بينيديتي:

ـ هذا ما حدث في الرواية. أما في الحياة فحدث ما هو منطقي أن يحدث. توفي هو قبلها.

ثم أضاف: ـ من أجل تجنب إخفاق الرواية كان علي أن أقتل أبييانيدا. وعندما صدر الكتاب، اجتمع حوالي خمسين امرأة في بيت إحداهن، ودعوني إلى ذلك اللقاء. ووجهن إليّ اللوم والتأنيب هناك لأني جعلت ابييانيدا تموت. فقلت لهن إنني قتلتها من أجل مصلحة قصة الحب. لأن سانتومي سيتحول بعد خمسة عشر عاماً إلى عجوز هرم، وربما سيموت. يا للحزن. وأظن أنني قد أقنعتهن.

الاثنين 11 شباط (فبراير)

لم يعد أمامي سوى ستة شهور وثمانية وعشرين يوماً كي أصبح مؤهلاً للإحالة على التقاعد، منذ خمس سنوات على الأقل وأنا أحسب هذا التقويم اليومي لرصيد عملي. هل البطالة ضرورية إلى هذا الحد حقاً؟ أنا أقول لا، ليست البطالة هي الضرورية، وإنما حق العمل في شيء أحبه.. ماذا على سبيل المثال؟ ربما في الحديقة، فالعمل فيها مناسب كراحة نشيطة في أيام الآحاد، ومعادل لحياة القعود، ووسيلة دفاع سرية أيضاً ضد التهاب المفاصل المؤكد الذي سيصيبني مستقبلاً، لكنني أخشى ألا أطيق العمل فيها يومياً.. ربما لجأت إلى العزف على الجيتار، أظن أن هذا يروقني، لكن البدء بتعلم عزف الموسيقى، في سن التاسعة والأربعين، سيكون أمراً محزناً.. أأكتب؟ قد لا أكون سيئاً في هذا المجال، فمعارفي على الأقل، يستمتعون برسائلي. وما الذي يعنيه ذلك؟ أتصور ملاحظة تعريف قصيرة حول «القيم الجديرة بالاهتمام التي يطرحها هذا الكاتب الجديد، وهو يدنو من الخمسين». ومجرد التفكير في هذا الاحتمال، يثير فيَّ النفور. وإذا كنت ما أزال أشعر، حتى اليوم، بأنني ساذج وغير ناضج (يعني أنني أملك مساوئ الشباب فقط، ولا أتمتع بأي من فضائلهم تقريباً) فإن هذا لا يمنحني الحق في عرض هذه السذاجة والفجاجة على الآخرين. كانت لي ابنة عم عانس، وكان من عادتها كلما صنعت حلوى أن تريها للجميع، وترفق ذلك بابتسامة صبيانية كئيبة، ظلّت معلقة على شفتيها منذ ذلك الزمن الذي كانت تعرض فيه مزاياها أمام خطيبها، سائق الدراجة النارية الذي قضى نحبه في أحد منعطفات الموت الكثيرة عندنا. لقد كانت ملابسها، مثل كل شيء

فيها، منسجمة تماماً مع سنوات عمرها الثلاث والخمسين؛ وكانت رصينة ومتزنة في هذا الأمر وسواه. لكن ابتسامتها تلك، بالمقابل، كانت تبدو كأنها تطلب صحبة شفتين طازجتين، وبشرة فتية، وساقين مسبوكتين لفتى في العشرين. لقد كانت إيماءة مؤثرة، هكذا فقط، حركة لا تصل أبداً لأن تبدو مضحكة، إذ أن ذلك الوجه كان ينضح بالطيبة أيضاً. يا لكمية الكلمات التي استخدمتها، وكل ذلك كي أقول إنني لستُ مثيراً للأسى.

الجمعة 15 شباط (فبراير)

لكي يكون إنتاجي في المكتب مقبولاً، عليّ أن أجبر نفسي على عدم التفكير في أن كسل البطالة صار وشيكاً إلى حد ما. وإذا فعلت عكس ذلك، فإن أصابعي تتشنج والخط المدور الذي عليّ أن أسجل به التذييلات الأولية يخرج مكسراً وبلا أناقة. إن الخط المدور هو أحد أهم مرتكزات سمعتي كموظف. ويجب أن أعترف كذلك، بأن رسم بعض الحروف، مثل الحرف «M» الكبير، والحرف «b» الصغير، التي سمحت لنفسي بإدخال بعض التجديد عليها، تبعث فيَّ البهجة. أقل ما أكرهه في عملي هو الجزء الآلي، الروتيني منه: كالعودة إلى استنساخ قيود كنتُ قد استنسختها آلاف المرات، أو إجراء مراجعة لرصيد الحساب والتوصل إلى أن كل شيء على ما يرام، وأنه ليس ثمة فروق يجب البحث عنها. مثل هذا النوع من العمل لا يرهقني، لأنه يتيح لي التفكير في أمور أخرى، بل إنه (ولماذا لا أقول ذلك لنفسي؟) يتيح لي

أن أحلم أيضاً. إنني أبدو عندئذ كما لو أنني أنقسم إلى كائنين مختلفين، متناقضين، مستقلين. أحدهما يعرف عمله عن ظهر قلب، ويسيطر سيطرة تامة على تبدلات هذا العمل وتلوياته، وهو واثق على الدوام أين يضع قدمه. أما الآخر، فحالم محموم، وعاطفي بصورة محبطة؛ شخص كئيب لكنه بالرغم من ذلك، كان ولا يزال وسيبقى ميالاً إلى السعادة، ساهٍ لا يهمه أين يجري القلم، ولا الأشياء التي يخطها الحبر الأزرق الذي سيصبح أسود بعد ثمانية شهور.

ليس الروتين هو الأمر الذي لا يطاق في عملي؛ بل المشكلة الجديدة، كالطلب المفاجئ الذي تخرج به علينا الإدارة الشبحية المختفية وراء المحاضر والأوامر الإدارية والمكافآت، أو السرعة التي يُطلب فيها منا إعداد تقرير أو بيان تحليلي، أو تقدير مسبق للموارد. عندئذ أجل، لأن الأمر يصبح أكثر من مجرد روتين، لا بد لنصفيَّ من أن يعملا في اتجاه واحد، فلا أعود قادراً على التفكير في ما أشاء، ويستقر الإرهاق في ظهري وعنقي، كأنه «لزقة» ذات مسامات. ماذا تعنيني الأرباح المتوقعة لشركة برنوس دي بيستون، في النصف الثاني من الدورة المالية ما قبل الأخيرة؟ وماذا تعنيني الوسيلة الأكثر جدوى عملية للتوصل إلى تقليص النفقات العامة؟

لقد كان هذا اليوم يوماً سعيداً؛ اقتصر على الروتين وحسب.

الاثنين 18 شباط (فبراير)

لا أحد من أبنائي يشبهني، فجميعهم، بادئ ذي بدء، أكثر حيوية

مني. وهم يبدون دائماً أشد تصميماً، وغير معتادين على التردد. إستيبان هو أكثرهم توحداً. ولست أدري، حتى الآن، إلى من يوجه استياءه، لكن المؤكد أنه يبدو مستاء. أظنه يكن لي الاحترام، لكن هذا الأمر لا يمكن التأكد منه أبداً. ربما كان خيمي هو ابني المفضل، مع أنني أكاد لا أتفاهم معه. فهو يبدو لي حساساً، ويبدو لي ذكياً، ولكنه لا يبدو لي نزيهاً بصورة أساسية. من الواضح أن هناك حاجزاً بيني وبينه. يخيل إليَّ أحياناً أنه يكرهني، وأرى في أحيان أخرى أنه يحترمني. أما بلانكا، ففيها على الأقل شيء مشترك يجمع بيني وبينها: إنها كئيبة أيضاً مع ميل خفي إلى السعادة. وفي ما عدا ذلك، هي شديدة الحرص على حياتها الخاصة، ولا تُقبل على تبادل الحديث معي لأشاركها مشاكلها الصعبة. وهي من تبقى أطول فترة في البيت، وربما تشعر أنها مستعبدة إلى حدّ ما بفوضانا، وتدابير طعامنا، وملابسنا المتسخة. علاقاتها بأخويها تصل أحياناً إلى حافة الهستيريا، لكنها تعرف كيف تسيطر على نفسها، وتعرف كذلك كيف تسيطر عليهما. ربما كانوا يحبون بعضهم بعضاً في أعماقهم، لكن حب الأخوة يحمل معه قسطاً من الحنق المتبادل الذي تضفيه العادة. لا، إنهم لا يشبهونني. حتى ولا في المظهر الخارجي. فعيون إستيبان وبلانكا مثل عيني إيزابيل، بينما ورث خيمي عنها الجبهة والفم. ما الذي كانت ستفكر فيه إيزابيل لو أنها استطاعت رؤيتهم اليوم مشغولين، نشطين، وناضجين؟ لدي سؤال أفضل من هذا: ما الذي سأفكر فيه أنا بالذات، إذا ما استطعت لقاء إيزابيل اليوم؟ الموت تجربة مضجرة بالنسبة للآخرين، بالنسبة للآخرين بصورة خاصة. أما أنا فعليّ أن أشعر بالفخر لأني تحولت إلى أرمل ولدي

ثلاثة أبناء. وقد استطعت أن أواصل بهم قدماً. لكنني لا أشعر بالفخر، وإنما بالتعب. الشعور بالفخر بعد أن صاروا في العشرين أو الثلاثين من أعمارهم. أما السير قدماً مع أبنائي، فكان أمراً اضطرارياً. كان المخرج الوحيد كيلا يواجهني المجتمع، موجهاً إليّ تلك النظرة الحتمية التي يحتفظ بها للآباء القساة. لم يكن هناك حلّ آخر، فمضيتُ قدماً. لكن كل شيء كان اضطرارياً على الدوام، ربما كي أتمكن من الشعور بالسعادة.

الثلاثاء 19 شباط (فبراير)

في الساعة الرابعة مساء، أحسست فجأة بخواء لا يطاق. فكان عليّ أن ألقي على ذراعي السترة المصنوعة من وبر الألبكة، وأن أخبر دائرة الموظفين بأنه عليّ أن أذهب إلى مصرف ريبوبليكا لأسوي قضية الحوالة. كان كذباً. لكنني لم أعد قادراً على تحمل رؤية الجدار الذي قبالة منضدتي... الجدار الذي يغطيه ذلك التقويم الهائل لشهر شباط، المخصص للوحة لغويا. ما الذي يفعله غويا في هذه المؤسسة القديمة التي تستورد قطع تبديل للسيارات؟ لست أدريّ ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أنني واصلت النظر إلى التقويم مثل أبله. ربما كنت سأصرخ، أو أبدأ بنوبة عطاس متسلسلة، من تلك النوبات التحسسية التي تنتابني عادة، أو ربما كنت سأنكب ببساطة فقط، على صفحات الدفتر الكبير المرتبة. لقد صرت أعرف أن حالات ما قبل الانفجار التي تصيبني، لا تؤدي دائماً إلى الانفجار. إنها تنتهي أحياناً إلى مذلة جلية، وإلى إذعان

محتم للظروف وضغوطها المتنوعة والمهينة. ومع ذلك، فإنني أرغب في إقناع نفسي بأنه عليّ ألا أسمح لنفسي بالانفجار، وبأنه لا بد لي من كبح تلك الانفجارات جذرياً تحت طائلة فقدان اتزاني. عندئذ أخرج من المكتب مثلما خرجت اليوم، وأنطلق في عملية بحث ضارية عن الهواء الطلق، عن الأفق، ومن يدري عن أية أشياء أخرى. حسن، قد لا أصل أحياناً إلى الأفق، وأكتفي بالجلوس قرب نافذة أحد المقاهي ومراقبة مرور بعض السيقان الجميلة.

إنني واثق من أن المدينة تكون شيئاً آخر خلال ساعات العمل في المكتب. فأنا أعرف مونتفيديو الرجال الموقوتين، أولئك الذين يدخلون في الثامنة والنصف صباحاً، ويخرجون في الثانية عشرة، ثم يعودون للدخول في الثانية والنصف، ليغادروا نهائياً في السابعة. لأن علاقة قديمة تجمعني بهذه الوجوه المقطبة المتعرقة، وهذه الخطوات المتسرعة والمتعثرة. ولكن، هنالك المدينة الأخرى، مدينة النحيلات اليانعات اللاتي يخرجن عند العصر، وقد استحممن لتوهن، المتعطرات، الخفيفات، المتفائلات، المتظارفات. ومدينة الأبناء المدللين الذين يستيقظون في الظهيرة، وفي الساعة السادسة يكون بياض ياقاتهم لا يزال بكامل زهوه؛ مدينة المسنين الذين يركبون حافلة الأومنيبوس حتى الجمارك، ثم يعودون دون أن ينزلوا من الحافلة، مقتصرين بلهوهم البريء على مجرد إلقاء نظرة، تنعش ذاكرتهم، وهم يتجولون في مدينة أشواقهم القديمة. مدينة الأمهات الشابات اللواتي لا يخرجن في الليل أبداً، ويدخلن السينما، بوجوههن التي تحمل ملامح من اقترفن ذنباً، (عند تقاطع شارعي 15: 30). مدينة المربيات اللواتي يغتبن أسيادهن بينما الذباب يأكل وجوه الأطفال الذين

في عهدتهن. مدينة المتقاعدين والمتطفلين بكل أنواعهم، أولئك الذين يظنون أنهم يضمنون الجنة بتقديمهم لباب الخبز إلى حمائم الساحة. هؤلاء هم الذين أجهلهم، حتى الآن على الأقل. إنهم يستقرون براحة كبيرة في الحياة، بينما أعاني أنا انهياراً عصبياً، في مواجهة تقويم شهر شباط الذي يحمل صورة لوحةٍ لغويا.

الخميس 21 شباط (فبراير)

بينما أنا عائد من المكتب هذا المساء، استوقفني رجل مخمور في الشارع. لم يطلق احتجاجات ضد الحكومة، ولم يقل إننا، أنا وهو، أخوان؛ ولم يتطرق إلى أي موضوع من الموضوعات العديدة التي يتطرق إليها السكارى، عادة، في العالم بأسره. كان سكيراً غريباً، في عينيه بريق خاص. أمسكني من ذراعي وقال لي وهو يكاد يستند إليّ: «أتعرف ما الذي أصابك؟ إنك لا تذهب إلى أي مكان». وفي تلك اللحظة، مرّ بجانبنا شخص آخر، فنظر إليّ نظرة بشوشة تشير إلى التفهم، بل ووجه إليّ غمزة تضامن أيضاً. لكنني أعاني القلق منذ أربع ساعات، وأشعر بأنني لم أذهب، فعلاً، إلى أي مكان، وأنني لم أدرك ذلك إلا الآن فقط.

الجمعة 22 شباط (فبراير)

أظن أنني، عندما سأُحال إلى التقاعد، لن أكتب مزيداً من هذه المذكرات، لأن الأحداث التي ستواجهني عندئذ ستكون دون ريب

أقل بكثير مما هي عليه الحال الآن؛ وسينتابني إحساس لا يطاق بالخواء، فكيف لي أن أترك إقراراً مكتوباً عن هكذا وضع. لعل أفضل ما يمكنني عمله، عندما أُحال إلى التقاعد، هو أن أتخلى عن كل شيء، وأفرغ لحياة البطالة، لنوع من السبات التعويضي، حتى تسترخي أعصابي وعضلاتي وهمتي بعض الاسترخاء، وتعتاد على الموت اللائق. ولكن، لا. هناك لحظات يتملكني فيها أمل مترف بأن البطالة هي أمر متكامل وغني، وأنها الفرصة الأخيرة كي أجد نفسي. وهذا شيء جدير بأن أدونه.

السبت 23 شباط (فبراير)

تناولت الغداء اليوم وحيداً في مركز المدينة. وبينما أنا عائد، عبر شارع مرثيديس، صادفتُ شخصاً أسمر. وجه لي تحيةً أول الأمر. ولا بد أنني نظرت إليه بفضول، لأن الرجل توقف، ومدّ إليّ يده بشيء من التردد. لم يكن وجهاً مجهولاً بالنسبة لي. خيل إلي أنه رسم كاريكاتيري لشخص كنت أراه بكثرة في زمن آخر. صافحته وأنا أتمتم باعتذارات وأعترف، بطريقة ما، بحيرتي. «ألستَ مارتين سانتومي؟»، سألني بابتسامة أظهرت أسنانه المنخورة. إنني مارتين سانتومي بالطبع، لكن حيرتي كانت تتزايد أكثر فأكثر وهو يسألني: «ألا تتذكر شارع براندثين؟» حسن، لا أتذكره جيداً. لقد مضى على ذلك ثلاثون عاماً، وأنا لست معروفاً بقوة ذاكرتي. لقد عشت في شارع براندثين طبعاً، حين كنت أعزب. ولكن لو جاء من يحطمني بالضرب بالعصي، لما

استطعت القول كيف كانت واجهة البيت، وكم عدد شرفاته، ومن كانوا يسكنون بجانبنا. «ومقهى شارع ديفنسا؟» أجل، الآن تذكرت شيئاً، لقد انقشعت غمامة الضباب قليلاً، ورأيت للحظة كرش الغالسي ألباريث، بحزامه العريض، فهتفتُ متذكراً: «طبعاً، طبعاً». «طيب، أنا ماريو بيغنالي»... ماريو بيغنالي؟ لا أتذكر الاسم. أقسم أني لا أتذكره. لكنني لم أمتلك الشجاعة للاعتراف بذلك. فقد بدا الرجل متحمساً جداً للقاء... قلت له نعم، وطلبت منه أن يعذرني، وقلت له إن ذاكرتي سيئة في استذكار الناس، وإنني التقيت الأسبوع الماضي بابن عمٍ لي، ولم أستطع التعرف إليه (كذب). وطبعاً، كان لا بد لي من تناول فنجان قهوة معه، أي أنه دمر قيلولتي السبتية. ساعتان وربع الساعة. انهمك طوال الوقت في إعادة بناء التفاصيل، محاولاً إقناعي بأنه كان جزءاً من حياتي: «إنني ما زلت أتذكر حتى عجة الخرشوف البري التي كانت تصنعها أمك. عجة لذيذة. كنت أجيء دائماً إلى بيتكم، في الحادية عشرة والنصف، علها تدعوني لآكل منها». وأطلق قهقهة رهيبة. فسألته وأنا لا أزال مرتاباً: «دائماً؟». عندئذ عانى من نوبة خجل مفرط: «حسن، فعلتُ ذلك ثلاث أو أربع مرات». أي القولين هو الحقيقة إذاً؟ «وأمك، هل هي على ما يرام؟». «لقد ماتت منذ خمسة عشر عاماً». «يا للعنة، وأبوك؟». «مات هو الآخر منذ سنتين، في تاكواريمبو. كان يقيم هناك، في بيت عمتي ليونور». «لا بد أنه كان مسناً». طبعاً كان مسناً. يا إلهي، أي شخص ممل هذا. عندئذ فقط، صاغ أكثر الأسئلة منطقية: «وهل تزوجتَ أخيراً من إيزابيل؟». «أجل، ولدي ثلاثة أبناء»، أجبته مختصراً الطريق. هو لديه خمسة أبناء. يا له من محظوظ.

«وكيف هي إيزابيل الآن؟ جميلة كالعادة؟». «لقد ماتت»، قلت له ذلك وأنا أكسو وجهي بأكثر الملامح غموضاً، ودوّت الكلمة كأنها رصاصة. عندئذ أحس بالارتباك ـ وهذا من حسن حظي ـ فأسرع باحتساء فنجان القهوة الثالث، ثم نظر إلى الساعة في الحال. هنالك نوع من فعل الانعكاس الآلي بين الحديث عن الموت والنظر إلى الساعة في الحال.

الأحد 24 شباط (فبراير)

ليس هنالك من مخرج. فاللقاء مع بيغنالي أخضع ذهني لفكرة تسلطت عليه: تذكر إيزابيل. لم تعد المسألة مجرد التوصل إلى استحضار صورتها من خلال الحكايات العائلية، والصور، وبعض ملامح إستيبان وبلانكا. إنني أعرف جميع تفاصيلها، لكنني لا أريد معرفة هذه الأشياء عبر وسيط.. أريد أن أتذكرها مباشرة، أريد رؤيتها أمام عيني بكل تفاصيلها، مثلما أرى الآن وجهي في المرآة... ولا أتوصل إلى ذلك. أعرف أنه كانت لها عينان خضراوان، لكنني لا أستطيع أن أشعر أنني أقف قبالة نظراتهما.

الاثنين 25 شباط (فبراير)

قلما أجد نفسي مجتمعاً مع أبنائي. فأوقاتنا لا تتطابق دائماً، وأقل منها مشاريعنا واهتماماتنا. إنهم مهذبون في تعاملهم معي، ولكن كونهم، فضلاً عن ذلك، متحفظين بصورة رهيبة، يجعل تهذيبهم يبدو

دوماً كأنه محض قيام بالواجب تجاهي. فاستيبان مثلاً، يكبح نفسه دائماً كي لا يناقش آرائي. أيكون اختلاف الأجيال وحده هو ما يفصلنا عن بعضنا بعضاً، أم أنني أنا المقصر ويمكنني أن أفعل المزيد للتواصل معهم؟ وأنا أراهم، على العموم، أقرب إلى التشكك منهم إلى الشرود، وأنهم مستغرقون في التفكير أكثر مما كنت أستغرق فيه عندما كنت في مثل سنهم.

لقد تناولنا العشاء معاً اليوم. ربما لم نجتمع معاً حول عشاء عائلي منذ نحو شهرين. سألتُ، بلهجة مازحة، عن المناسبة التي نحتفل بها، ولكنني لم أسمع صدى. نظرت بلانكا إليَّ وابتسمت، كأنها تريد أن تُشعرني بأنها تفهم نواياي الطيبة، ولا شيء سوى ذلك. رحت أسجل ما هي المقاطعات القليلة للصمت السائد. خيمي قال إن الحساء دون طعم. فردت عليه بلانكا: «هاهو ذا الملح، على بعد عشرة سنتيمترات من يدك اليمني» ثم أضافت بنبرة جارحة: «أتريد أن أناولك إياه؟» لقد كان الحساء بلا طعم فعلاً. ولكن ما الفائدة؟ وأخبرنا إستيبان أن إيجار البيت سيزداد ثمانين بيزو أخرى ابتداء من منتصف السنة. وبما أننا نساهم جميعنا في دفع الإيجار، فإن الأمر ليس مهماً. راح خيمي يقرأ في الجريدة، فقلت: إن انشغال الناس بالقراءة أثناء تناول الطعام مع أسرهم يبدو لي مهيناً. فترك خيمي الجريدة. ولكنه لو واصل القراءة لكان الأمر سيان، إذ أنه ظل على تجهمه وعزلته. تحدثتُ عن لقائي ببيغنالي، وحاولت إغراقه بالسخرية لأثير شيئاً من المرح في العشاء. لكن خيمي سألني: «أي بيغنالي هذا؟». «ماريو بيغنالي». «أهو شخص نصف أصلع، وذو شارب؟» إنه هو. فقال خيمي: «أعرفه. يا للرجل!

إنه صديق فيريرا. إنه شخص بليد جلف». كنت أرغب في أعماقي في أن يكون بيغنالي شخصاً سيئاً، فهكذا لن يؤنبني ضميري على إزاحته عن كاهلي. لكن بلانكا سألت: «إنه يتذكر ماما إذن؟» بدا لي وكأن خيمي سيقول شيئاً. أظن أنه حرك شفتيه، لكنه قرر الاحتفاظ بصمته. فأضافت بلانكا: «يا له من محظوظ، فأنا لا أتذكرها». وقال إستيبان: «أما أنا فأتذكرها». كيف تراه يتذكرها؟ مثلما أتذكرها أنا، بذكريات عن ذكريات، أم مباشرة، مثل من يرى وجهه في المرآة؟ أيكون ممكناً له أن يحتفظ بصورتها في ذاكرته، ولم يكن عمره سوى أربع سنوات، بينما أنا الذي سجلت معها ليالي كثيرة، ليالي كثيرة، كثيرة، لم يبق لديّ أي شيء؟ كنا نمارس الحب في العتمة. قد يكون هذا هو السبب. من المؤكد أنه كذلك. إنني احتفظ بذاكرة لمسية من تلك الليالي، وهذه ذكرى مباشرة حقاً. ولكن، ماذا عن النهار؟ لم نكن نقضي النهار في العتمة. كنت أصل إلى البيت متعباً، مثقلاً بالهموم، وربما حانقاً من الجور الذي لحق بي ذلك الأسبوع، أو ذلك الشهر.

كنا ننظم نفقات البيت معاً. ولم يكن لدينا ما يكفي حتى نهاية الشهر أبداً. ربما كنا نطيل النظر إلى الأرقام والحسابات والنفقات، ولم يكن لدينا من الوقت ما يكفي لينظر أحدنا إلى الآخر. وما الذي تذكره مني هي، حيث هي موجودة الآن، إذا كان لها من وجود؟ ثم ما هي أهمية الذاكرة في نهاية المطاف؟ «أشعر أحياناً بالتعاسة لمجرد أني لا أعرف ما هو الشيء الذي أحن إليه»، دمدمت بلانكا بذلك وهي توزع علينا قطع الدُرّاق المحفوظة في الرُّبّ. كان نصيب كل واحد منا ثلاث حبات ونصف.

الأربعاء 27 شباط (فبراير)

باشر سبعة موظفون جدد عملهم في المكتب اليوم: إنهم أربعة رجال وثلاث نساء. كانت وجوههم رائعة الرهبة، وكانوا يوجهون إلى الموظفين القدماء، بين الحين والآخر، نظرة احترام حاسدة. أرسلت إليّ الإدارة اثنين من الرجال (أحدهما في الثامنة عشرة، والآخر في الثانية والعشرين) وفتاة في الرابعة والعشرين. وهكذا أصبحتُ رئيساً بكل معنى الكلمة: صار تحت سلطتي ستة موظفين. وللمرة الأولى توجد بينهم امرأة. لم أكن أثق يوماً بقدرة النساء على التعامل مع الأرقام. إضافة إلى أن هناك عائقاً آخر: فخلال أيام الحيض، بل والأيام التي تسبقها أيضاً، وإذا ما كنَّ متيقظات بصورة طبيعية، فإنهن يصبحن غبيات بعض الشيء. أما إن كنّ غبيات بعض الشيء بطبعهن؛ فإنهن يصبحن معتوهات تماماً. لا يبدو على هؤلاء «المستجدين» الذين دخلوا العمل أنهم سيئون. وأقل من يعجبني منهم هو ذو الثمانية عشر عاماً. له وجه خالٍ من القوة، حساس، ونظرة متهربة، ولكنها متملقة في الوقت نفسه. أما الآخر، فهو مشعث الشعر دوماً، ولكن مظهره لطيف، ولديه (حالياً على الأقل) رغبة لا ريب فيها في العمل. الفتاة لا يبدو أن لديها رغبة كبيرة، لكنها تفهم على الأقل ما يشرحه لها أحدنا. ثم إن لها جبهة عريضة، وفماً كبيراً، وهما ملمحان يؤثران بي كثيراً على العموم. أسماؤهم على التوالي: ألفريدو سانتيني، ورودولفو سييرا، ولورا أبيّانيدا. سأُسلِّم الشابين دفاتر حسابات البضائع، أما الفتاة فسأعينها للعمل مع مساعد نتائج الحسابات.

الخميس 28 شباط (فبراير)

تبادلت الحديث الليلة الماضية مع بلانكا شبه مجهولة لديّ. بقيت وإياها وحيدين بعد العشاء. كنت أقرأ الجريدة، بينما هي تلعب بالورق وحدها لعبة سوليتير. وفجأة، توقفت عن الحركة وهي تحمل إحدى أوراق اللعب بيدها، وكانت نظرتها ساهية وكئيبة في آن واحد. راقبتُها بضع لحظات، ثم سألتها بماذا تفكر. فبدت حينئذ كأنها تستيقظ. صوبت إليّ نظرة حزينة، ودون أن تتمكن من كبح نفسها، أخفت رأسها بين يديها كأنها لا تريد لأحد أن ينتهك حرمة نحيبها. عندما تبكي امرأة أمامي أتحول إلى رجل أعزل، بل إنني أرتبك كذلك. أشعر باليأس، ولا أعرف كيف أعالج الموقف. أما في هذه المرة، فقد استجبت لدافع غريزي. نهضتُ، واقتربت منها، وأخذت أداعب رأسها دون أن أتفوه بكلمة. وبعد قليل، بدأت تهدأ، وراحت اختلاجات بكائها تتباعد. وعندما أنزلت يديها أخيراً، مسحتُ عينيها بنصف منديلي غير المستعمل، ونفَّثُ أنفها. لم تعد تبدو لحظتها امرأة في الثالثة والعشرين من عمرها، بل مجرد طفلة صغيرة أصابتها التعاسة فجأة لأن دميتها انكسرت، أو لأن الكبار رفضوا أخذها إلى حديقة الحيوان. سألتها إن كانت تشعر بالكآبة، فأجابت بنعم. سألتها عن السبب، فقالت إنها لا تعرف. لم أستغرب كثيراً من ذلك. فأنا نفسي أشعر بالانقباض أحياناً دون سبب واضح. لكنني ناقضت تجربتي الذاتية، وقلت لها: «آه، قولي شيئاً. لا أحد يبكي دون سبب» عندئذ بدأت تتكلم بتعثر، تدفعها رغبة مفاجئة في المصارحة: «يراودني إحساس رهيب بأن الوقت يمضي دون أن أفعل شيئاً، وأنه ليس هناك أية أحداث، وليس هناك ما يهزني من

الأعماق. أنظرُ إلى إستيبان، وأنظرُ إلى خيمي، وأحس أنهما يشعران بالتعاسة أيضاً. وأحياناً (لا تغضب يا بابا) أنظر إليكَ، وأفكر في أنني لا أرغب في أن أصل إلى سن الخمسين، وفي أن يكون لي مثل طبعك وتوازنك. إنني أجدكم، بكل بساطة، محبطين مستنفدين. وأنا أشعر أن لدي فائضاً هائلاً من الطاقة، ولا أعرف أين أستغلها، لا أعرف ما أفعل بها. أظنك قد رضخت للكآبة وارتضيت بها، وهذا يبدو لي رهيباً، لأني أعرف أنك لست كئيباً بطبعك. أو أنك لم تكن كذلك على الأقل.» فأجبتها (وماذا يمكنني أن أقول غير ما قلته؟) بأنها على حق، وأن تفعل كل ما تستطيعه لتخرج من وسطنا، لتغادر مدارنا. وقلت لها إنني أحب أن أسمعها تصرخ باحتجاجها هذا، وإنني شعرت كما لو أنني أسمع صرخة من صرخاتي قبل سنوات طويلة. عندئذ ابتسمت بلانكا وقالت إنني طيب جداً، وألقت بذراعيها حول عنقي، مثلما كانت تفعل فيما مضى. إنها لا تزال طفلة صغيرة بعد.

الجمعة، الأول من آذار (مارس)

استدعى وكيل المدير رؤساء الأقسام الخمسة إلى اجتماع. وحدثنا طوال ثلاثة أرباع الساعة عن انخفاض إنتاجية الموظفين. قال إن مجلس الإدارة قد أوصل إليه ملاحظة بهذا المعنى، وإنه غير مستعد للتساهل في المستقبل، وإن مكانته قد تأثرت مجاناً، بسبب تهاوننا (كم يحب أن يشدد على كلمة «تهاون»). ولهذا، فإنه من الآن فصاعداً، إلخ... إلخ...

ما الذي يسمونه «انخفاض إنتاجية الموظفين»؟ أنا على الأقل، يمكنني أن أقول إن من هم تحت إمرتي يعملون. ليس الجدد منهم فقط، بل القدماء أيضاً. صحيح أن ميندیث يقرأ الروايات البوليسية التي يخبئها بمهارة في درج مكتبه الأوسط، بينما يده اليمنى تمسك في أثناء ذلك قلماً وهي متأهبة دوماً للتصرف إذا ما دخل، فجأة، أحد أصحاب الرتب العليا. وصحيح أن مونيوث ينتهز فرصة خروجه إلى قسم الأرباح المرتفعة ليختلس من المؤسسة عشرين دقيقة يمضيها متكاسلاً قبالة زجاجة من البيرة. وصحيح أن روبليدو، حين يذهب إلى المرحاض (في العاشرة والربع تماماً) يخبئ تحت معطفه ملحق الجريدة الملون، أو صفحة الرياضة. ولكن الصحيح أيضاً أن العمل يُنجَز أولاً بأول، وأنه في الساعات التي تكثر فيها المعاملات، وتأخذ صينية الصندوق الجوية بالتنقل ذهاباً وإياباً دون توقف، وهي مترعة بالقسائم، ينهمك الجميع في العمل، ويتعاونون بروح فريق منسجم حقاً. فكل واحد منهم خبير في اختصاصه الضيق المحدد، ويمكنني أن أثق ثقة مطلقة بأن الأمور تُنجز على أحسن وجه.

الحقيقة أنني أعرف جيداً إلى من كانت توجه هراوة الوكيل. «قسم الصادر» يعمل دون رغبة في العمل، وينجز مهماته بصورة سيئة. جميعنا نعرف اليوم أن تلك الخطبة كانت موجهة إلى سواريث، ولكن لماذا استدعانا جميعاً؟ وأي حق لسواريث في أن يجعلنا نتقاسم جريرة تقصيره وحده؟ أيكون ذلك لأن الوكيل يعرف، مثلما نعرف جميعنا، أن سواريث يضاجع ابنة رئيس مجلس الإدارة؟ ليست ليديا بالبيردي بالفتاة القبيحة.

السبت 2 آذار (مارس)

هذه الليلة، وبعد ثلاثين سنة، عدت أحلم بالمقنعين من جديد. عندما كنت في الرابعة من عمري، أو ربما أقل، كان إقناعي بتناول الطعام يشكل كابوساً لأهلي. وقد ابتكرت جدتي حينذاك وسيلة أصيلة حقاً تجعلني أبتلع البطاطا المهروسة دون مشاكل تذكر. كانت ترتدي معطف خالي المطري الفضفاض، وتضع على رأسها عمامة، وعلى عينيها نظارة سوداء، وتأتي بهيئتها تلك لتقرع نافذتي وتخفيني. فتهرع الخادمة حينئذ، أو أمي أو إحدى خالاتي لتقول لي: «ها قد جاء دون بوليكاريو!» ودون بوليكاريو هو مسخ يعاقب الأطفال الذين لا يأكلون. كان الرعب يشلني، فأستجمع ما تبقى من قواي لأحرك فكيّ بسرعة لا تُصدق، ولا أتوقف إلا بعد أن أتناول طبقاً وافراً من بوريه البطاطا الكريهة. كان ذلك مريحاً للجميع. فتهديدي بشخصية دون بوليكاريو كان أشبه بالضغط على زر سحري. وقد تحولت العملية في نهاية الأمر إلى تسلية مشهورة. فكلما جاءنا زائرون، يأتون بهم إلى حجرتي ليشاهدوا تفاصيل خوفي المسلية. إن القسوة البريئة التي يمكن للناس أن يصلوا إليها أحياناً مثيرة للفضول. ففضلاً عن الرعب الذي كنت أعانيه، كانت هناك الليالي؛ ليالٍ يملؤها المقنَّعون الصامتون، صف غريب من الشخصيات الشبيهة بدون بوليكاريو تظهر دائماً وهي توليني ظهرها، وسط ضباب كثيف يحيط بها. كانت تلك الأشباح تظهر في صف طويل، بعضها وراء بعض، وكأن كلاً منها ينتظر دوره للدخول إلى خوفي: لم يكونوا يتفوهون بأي كلمة على الإطلاق، بل يكتفون بالتحرك في حركات متثاقلة أشبه بالترنح المتواصل، ويجرون

وراءهم أذيال عباءاتهم القاتمة المتماثلة التي انتهى إليها معطف خالي. لكن الغريب في الأمر أن رعبي في الأحلام كان أقل من رعبي في الواقع. ومع مرور السنوات، راح خوفي يتحول إلى افتتان. فبتلك النظرة الذاهلة التي يتطلع بها أحدنا عادة من تحت أجفانه النائمة، كنت أشهد وأنا مُنوّم ذلك المشهد الدوري. وعندما كنت أحلم في بعض الأحيان حلماً عادياً آخر، فإنني أحس إحساساً غامضاً بأني أُفضّل أن أحلم بشخصياتي البوليكاربية. وفي إحدى الليالي جاؤوا جميعهم لآخر مرة. اصطفوا في طابورهم المعهود، وترنحوا وهم يحتفظون بالصمت، ثم تلاشوا بعد ذلك كعادتهم. لقد نمت طوال سنوات كثيرة وهاجس لا مناص منه يراودني، فقد كنت أنام بقلق مترقب، تحول إلى حالة شبه مرضية. وصرت أنام في بعض الأحيان عاقداً العزم على اللقاء بهم، ولكنني لم أكن أتوصل إلى ما هو أبعد من تشكيل الهالة الضبابية وحسب، أو إلى الإحساس ـ في مناسبات نادرة جداً ـ بخفق رعبي القديم. هذا ما كنت أتوصل إليه. ثم رحت أفقد حتى هذا الأمل في ما بعد، ووصلت دون شعور مني إلى مرحلة أخذت أروي فيها للغرباء بساطة مضمون حلمي. ثم وصل بي الأمر إلى نسيانه. وقد نسيته فعلاً، حتى الليلة الماضية. فليلة أمس، وبينما أنا في منتصف حلم أقرب إلى التفاهة منه إلى الخطيئة، اختفت جميع الصور فجأة، وحلّ محلها الضباب، ثم ظهرت، وسط ذلك الضباب، جميع شخصياتي البوليكاربية. أعرف أنني شعرت حينها بسعادة ورعب لا يوصفان. ويمكن لي حتى الآن، إذا ما بذلت القليل من الجهد، أن أستعيد بعض ذلك الانفعال. لقد ترنح أولئك البوليكاربيون، بوليكاربيو طفولتي،

ترنحوا وترنحوا، ثم أقدموا فجأة على حركة مباغتة. فقد استداروا نحوي للمرة الأولى، وللحظة واحدة فقط، وكانت وجوههم جميعاً كوجه جدتي.

الثلاثاء 12 آذار (مارس)

أمر جيد أن تعمل مع المرء موظفة ذكية. ولكي أختبر أبييَّانيدا، شرحت لها اليوم دفعة واحدة كل ما له علاقة بتدقيق الحسابات. وبينما كنت أتكلم، كانت تسجل الملاحظات. وعندما انتهيت، قالت: «انظر يا سيدي، أظن أنني فهمت جيداً، ولكن لدي شكوك فقط حول بعض النقاط». شكوك حول بعض النقاط!... ميننديث الذي كان يتولى هذا العمل قبلها، احتاج إلى ما لا يقل عن أربع سنوات كي يبدد تلك الشكوك... خصصتُ لها بعد ذلك المنضدة التي إلى يميني. وبين الحين والآخر، كنت أوجه إليها نظرة خاطفة. ساقاها جميلتان. لم تتعود على العمل بصورة آلية بعد، وهذا سيسبب لها الإرهاق. ثم إنها قلقة، عصبية. أظن أن مرتبتي الوظيفية (ويا للمبتدئة المسكينة) تربكها إلى حد ما. عندما تقول لي: «سيد سانتومي» ترمش دائماً. ليست آية في الجمال. حسن، إنها تبتسم بطريقة مقبولة. ووجود شيء أفضل من لا شيء.

الأربعاء 13 آذار (مارس)

عندما وصلت قادماً من مركز المدنية هذا المساء، كان خيمي وإستيبان يتبادلان الصراخ في المطبخ. تمكنت من سماع إستيبان يقول شيئاً عن

«أصدقائك العفنين». وحين سمعا وقع خطواتي، صمتا وحاولا التكلم بصورة طبيعية. لكن شفتي خيمي كانتا مزمومتين بشدة، وكانت عينا إستيبان تلمعان. سألتهما: «ماذا جرى؟». فهز خيمي كتفيه، وقال الآخر: «ليس هنالك ما يعنيك». لكم رغبت في توجيه صفعة إلى فمه. إنه ابني.. هذا الوجه القاسي الذي لا يمكن لأحد أو لشيء أن يُليّنه أبداً. ليس هنالك ما يعنيني. توجهتُ إلى الثلاجة، وأخرجت منها زجاجة الحليب والزبد. كنت أشعر بالغيظ، وبالعار. من غير الممكن أن يقول لي «ليس هنالك ما يعنيك» وأن أظل هادئاً، لا أفعل شيئاً، ولا أقول له أي شيء. سكبت كأساً كبيرة. لا يمكن له أن يصرخ في وجهي باللهجة التي عليّ أن أستخدمها أنا معه، لكنني لا أستخدمها مع ذلك. ليس هنالك ما يعنينني. كل رشفة من الحليب كانت تسبب لي ألماً في صدغيّ. وفجأة، استدرتُ وأمسكت بذراعه. «مزيداً من الاحترام لأبيك، مفهوم؟ مزيداً من الاحترام» إن قول ذلك الآن، وبعد أن مرت اللحظة المناسبة، ما هو إلا حماقة. كان الذراع متوتراً، صلباً كأنه قد تحول فجأة إلى فولاذ، أو إلى رصاص. آلمني عنقي عندما رفعت رأسي لأحدق بعينيه. كان ذلك هو أقل ما يمكن لي عمله. لا، لم يكن خائفاً. بل هز ذراعه بكل بساطة، إلى أن أفلت من يدي، وارتعشت زعنفتا أنفه، وقال: «متى ستكبر؟» ومضى صافقاً الباب وراءه. لا بد أن وجهي لم يكن هادئاً عندما التفت لأواجه خيمي. كان ما يزال مستنداً إلى الجدار. ابتسم بعفوية واكتفى بأن علق: «يا للدم الخبيث أيها العجوز، يا للدم الخبيث!» شيء لا يمكن تصديقه، لكنني أحسست بالغضب يجمدني في تلك اللحظة بالذات، وقلت له دون قناعة: «وهو أخوك أيضاً...»

وردّ عليّ: «دعه، فبعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد، لم يعد هنالك علاج لأي واحد منا».

الجمعة 15 آذار (مارس)

جاء ماريو بيغنالي لرؤيتي فـي المكتب. إنه يريدني أن أذهب إلى بيته الأسبوع المقبل. يقول إنه عثر على صور قديمة لنا جميعاً. لم يحضرها معه هذا الأبله الكبير. طبعاً إنها تشكل ثمن موافقتي على الزيارة. ووافقت طبعاً. ومن الذي لا يشده ماضيه؟

السبت 16 آذار (مارس)

فـي صباح هذا اليوم، حاول الموظف الجديد ـ سانتيني ـ أن يطلعني على أسراره. يبدو أن هناك شيئاً في وجهي، لا أعرف ما هو، يدفع الجميع دائماً إلى البوح لي بشؤونهم الخاصة. إنهم ينظرون إليّ، ثم يتبسمون، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى إظهار التكشيرة التي تسبق الانفجار فـي البكاء؛ وبعد ذلك يفتحون لي قلوبهم. وأقول بمنتهى الصراحة، إن بعض القلوب لا تسرني. وأحياناً أكاد لا أصدق مدى الوقاحة المستريحة، وطريقة الحديث الغامضة التي يفضي بها البعض بأسرارهم الحميمة. «لأنني، أنا... أتعرف يا سيدي؟ أنا يتيم»، قال بادئاً كلامه ليجعلني أشفق عليه منذ البداية. فأجبته: «تشرفنا، وأنا أرمل»، وأرفقت قولي بحركة روتينية أردت بها كسر ذلك الموقف. لكن تأثره بترملي كان أدنى كثيراً من تأثره بيتمه.

«لدي أخت، أتعرف؟». وبينما هو يتكلم بجوار مكتبي، كان يفرقع أصابعه الهشة والنحيلة فوق غلاف دفتر اليومية. فصرخت به: «ألا تستطيع ترك يدك هذه ساكنة؟» لكنه ابتسم بعذوبة قبل أن يستجيب لطلبي. «عمر شقيقتي سبعة عشر عاماً، أتعرف؟» هذه الـ «أتعرف؟» هي نوع من اللمسة الخاصة، نوع من الـ «تك». «ما هذا؟ وهل هي جميلة؟». كان ذلك هو دفاعي اليائس، قبل أن تنكسر حواجز آخر تصنعه المريب للحرج، وأجد نفسي غارقاً في تفاصيل حياته الخاصة. فقال زاماً شفتيه: «أنت لا تعاملني بجدّ»، وانصرف غاضباً جداً إلى منضدته. إنه لا يعمل بالسرعة اللازمة. لقد استغرق إعداده لتصفية حساب شهر شباط ساعتين كاملتين.

الأحد 17 آذار (مارس)

إذا ما قررتُ الانتحار يوماً، فسأفعل ذلك في يوم أحد. إنه أكثر الأيام إخماداً للهمة، وأشدها تفاهة. أود لو أنني أبقى في السرير إلى وقت متأخر بعض الشيء، على الأقل حتى الساعة التاسعة أو العاشرة. لكنني أستيقظ بمفردي منذ السادسة والنصف، ولا أعود قادراً على إغماض عيني. إنني أفكر أحياناً في ما سأفعله عندما تصبح حياتي كلها يوم أحد متواصل. من يدري، فربما أعتاد عندئذ على الاستيقاظ في الساعة العاشرة. ذهبتُ لتناول الغداء في مركز المدينة، لأن كل واحد من الأولاد ذهب في حال سبيله لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. أكلت وحيداً. ولم أشعر بأن لدي القوة اللازمة للدخول في حديث روتيني

وعادي مع النادل. حديث عن الحر والسائحين. كان هناك شخص آخر متوحد، على بعد طاولتين مني. كان عابساً، يفتت الخبز بيده. نظرت إليه مرتين أو ثلاث مرات، وفي واحدة منها، التقت عيناي بعينيه. أحسست أن في عينيه كراهية. ما الذي رآه في عيني؟ يبدو أننا، نحن معشر المتوحدين، لا نميل، كقاعدة عامة، إلى بعضنا بعضاً. أم أننا، وبكل بساطة، سمجون؟

رجعت إلى البيت، نمت القيلولة، واستيقظت مثقلاً، متعكر المزاج. تناولت بضع كؤوس من المتة، وضايقني طعمها المرّ. عندئذ ارتديت ملابسي، ومضيت ثانية إلى مركز المدينة. جلست هذه المرة في مقهى؛ تمكنت من العثور على منضدة إلى جوار النافذة. وخلال وقت لا يتجاوز الساعة والربع، مرت أمامي خمس وثلاثون امرأة، بالتمام، ممن يثرن الاهتمام. ولكي أتسلى، رحت أنظم جدولاً إحصائياً حول أكثر ما يروقني في كل واحدة منهن. سجلت ملاحظاتي على منديل ورقي. وهذه هي النتائج التي خرجت بها: أعجبني في اثنتين منهن الوجه؛ وفي أربع الشعر؛ وفي ست الصدر؛ وفي ثمان منهن السيقان؛ وأعجبني في خمس عشرة واحدة منهن مؤخراتهن. إنه انتصار ساحق للمؤخرات.

الاثنين 18 آذار (مارس)

الليلة الماضية، رجع إستيبان إلى البيت في الساعة الثانية عشرة، وخيمي في الثانية عشرة والنصف، وبلانكا في الواحدة. لقد سمعتهم جميعاً. التقطت بحرص كل صوت، كل خطوة، كل كلمة تذمر

دمدموا بها. أظن أن خيمي قد جاء مخموراً بعض الشيء. أو أنه كان يتعثر بالأثاث على الأقل، ثم فتح صنبور المغسلة مدة نصف ساعة تقريباً. ومع ذلك، فإن كلمات التذمر كانت من إستيبان الذي لا يشرب أبداً. وعندما رجعت بلانكا، قال لها إستيبان شيئاً وهو في غرفته، وردت عليه هي بأن لا يتدخل إلا في شؤونه فقط. بعد ذلك خيم الصمت. ثلاث ساعات من الصمت. الأرق هو لعنة عطلتي في نهاية الأسبوع. وعندما أتقاعد، وتصبح أيامي كلها عطلة، ألن أنام أبداً؟

تحدثت صباح اليوم مع بلانكا على انفراد. قلت لها إنني لا أحب رجوعها في مثل تلك الساعة المتأخرة. ليست بالفتاة المستهترة، لهذا لا تستحق أن أؤنبها. ولكن هنالك الواجب أيضاً، واجب الأب والأم. وعلي أن أكون الاثنين معاً، وأظن أني لست أياً منهما. أحسست أنني قد تجاوزت الحد عندما سمعت نفسي، وأنا أسألها بنبرة محذرة: «ما الذي كنتِ تفعلينه؟ إلى أين ذهبتِ؟» فردت عليّ عندئذ وهي تدهن قطعة الخبز المحمصة بالزبد: «لماذا تشعر أنك مجبر على لعب دور الشرير؟ هنالك أمران نحن واثقان منهما، أننا نحب أحدنا الآخر، وأنني لا أفعل شيئاً غير صحيح». لقد هُزمتُ. ومع ذلك، فقد أضفت قائلاً، لإنقاذ المظاهر وحسب: «كل شيء يعتمد على فهمك لما هو غير صحيح».

الثلاثاء 19 آذار (مارس)

عملت طوال فترة بعد الظهر مع أبييَّانيدا. راجعنا التدقيق معاً للبحث عن فروق. إنه أكثر الأعمال ضجراً على الإطلاق. كان الفرق سبعة

سنتات. لكنه يرد في الواقع في بندين متناقضين: أحدهما ثمانية عشر سنتاً والآخر خمسة وعشرون. يا لها من مسكينة، فهي لم تلتقط منهج العمل جيداً بعد. إنها ترهق نفسها بالكامل في عمل آلي بحت كعملنا هذا، وتبدو كأنها تمارس عملاً آخر يتطلب التفكير والبحث عن حلول خاصة. أما أنا فمعتاد على هذا النوع من العمل، حتى إنني أفضله على سواه من الأعمال أحياناً. فاليوم، مثلاً، وبينما كانت تقرأ لي الأرقام وأنا أشير إليها على الشريط الورقي، رحت أتسلى في عدّ الشامات التي على ساعدها الأيسر. إنها على نوعين: خمس شامات صغيرة وثلاث كبيرة، واحدة منها مكورة وناتئة مثل ندبة. عندما انتهت من قراءة أرقام شهر تشرين الثاني، قلت لها، لمجرد أن أرى كيف سيكون ردّ فعلها: «احرقي هذه الشامة. فهي ليست مهمة عموماً، ولكنها قد تكون خطرة في حالة واحدة بين كل مئة حالة». احمرت خجلاً ولم تعد تعرف أين تضع ذراعها. وقالت لي: «شكراً يا سيدي»، ولكنها واصلت مراجعة الأرقام على مسمعي وهي متضايقة جداً. وعندما وصلنا إلى حسابات شهر كانون الثاني (يناير) بدأت أنا بقراءة الأرقام، وأخذت هي تضع الإشارات على الورقة. وفي لحظة ما، أحسستُ أن هناك شيئاً غريباً يحدث، فرفعتُ نظري عند منتصف أحد الأرقام. وكانت تتطلع حينها إلى يدي. أهي تبحث عن شامات؟ ربما. ابتسمتُ، وعادت تموت خجلاً من جديد. يا للمسكينة أبيّانيدا. إنها لا تعرف أنني التدقيق نفسه مجسداً، وأنه من مستحيل المستحيلات أن أسمح لإحدى موظفاتي بأنْ تجاريني.

الخميس 21 آذار (مارس)

عشاء في بيت بيغنالي. إنه بيت خانق، معتم، مشحون. في صالة المعيشة يوجد مقعدان ضخمان من طراز عالمي غير محدد، ويبدوان في الواقع أشبه بقزمين أشعرين. أسلمت نفسي للتهاوي فوق أحدهما. وكانت تخرج منه سخونة حارقة تصل إلى صدري. جاءت لاستقبالي كلبة باهتة لون الفرو، ولها وجه عانس. نظرتْ إليّ دون أن تشمني، ثم ابتعدت واقترفت جنايتها التقليدية المعهودة على السجادة. وظلت البقعة هناك، فوق نقش يمثل رأس طاووس، وكان ذلك هو المكان البارز في تلك النقوش المريعة. غير أنه كانت هنالك بقع كثيرة على السجادة، حتى يخيل للمرء أنها جزء من الديكور.

عائلة بيغنالي كثيرة العدد، صاخبة ومضجرة. وهي تضم زوجته وحماته وحماه، وصهره وزوجة صهره و ـ هول الأهوال ـ أبناءه الخمسة. وهؤلاء يمكن تعريفهم تقريباً بالقول إنهم مسوخ. إنهم طبيعيون في بينتهم الجسدية، فهم شقر وأصحاء. أما صفة المسوخ فهي لشدة إزعاجهم. عمر أكبرهم ثلاثة عشر عاماً (لقد تزوج بيغنالي بعد بلوغه سن النضوج) وعمر الأصغر ست سنوات. وهم دائمو الحركة، دائمو الصخب، دائمو الجدال الصارخ. إن المرء ليشعر وكأنهم يمتطون ظهره، أو يتسلقون كتفيه، أو أنهم على وشك أن يدسوا أصابعهم في أذنيه أو يشدوا شعره. وهم لا يصلون إلى مثل هذه الأفعال طبعاً، ولكن الإحساس الذي يراود المرء هو نفسه، إذ أنه يدرك وهو في بيت بيغنالي أنه تحت رحمة هذا القطيع من كلاب الصيد. كان أفراد الأسرة البالغون يعتصمون بموقف لا مبالٍ يحسدون عليه، دون أن يخلوا بصفعات

غير مجدية تعبر الهواء فجأة لتستقر على أنف أو صدغ أو عين أحد أولئك الملائكة الصغار. فأسلوب الأم في معاملتهم مثلاً، يمكن تحديده كالتالي: التساهل في أي تصرف أو سفاهة يمكن للطفل أن يزعج بها الآخرين، بما في ذلك الضيوف، ومعاقبته بالمقابل على أي حركة أو كلمة تزعجها هي بالذات. أما ذروة ذلك العشاء فكانت عند تقديم حلوى الأرز. فقد أراد أحد الصغار أن يترك شهادة تؤكد أنه لم يستسغ حلوى الأرز بالحليب، فما كان منه إلا أن دلق طبقه كله على بنطال أصغر أخوته. وقد احتُفل بالحركة بصخب سخي، لكن بكاء المتسبب بالأذى فاق كل توقعاتي ولم يعد بإمكان أي وصف أن يحيط به.

بعد الانتهاء من تناول العشاء اختفى الأطفال، ولست أدري إذا كانوا قد ذهبوا إلى النوم أم لإعداد كوكتيل سموم من أجل صباح اليوم التالي. وعلقت حماة بيغنالي قائلة: «يا لهؤلاء الصبية! كل ما في الأمر أنهم حيويون»، وجاءت التتمة المناسبة من جانب الصهر: «هكذا هي الطفولة.. حيوية خالصة». وفي ردّ على استفسار لم أطلبه، أشارت لي زوجة الصهر: «نحن لا أبناء لدينا». فقال زوجها مرفقاً كلامه بقهقهة ظاهرة الخبث: «مع أنه مضى على زواجنا سبع سنوات». فأوضحت الزوجة: «أنا من جانبي أرغب في إنجاب الأبناء، لكنه هو الذي يستمتع بمنع إنجابهم». وكان بيغنالي هو الذي أخرجنا جميعنا من متاهة الشؤون النسائية وموانع الحمل تلك، إذ بادر إلى طرق أكثر موضوعات تلك الليلة جاذبية؛ ألا وهو عرض الصور المتحفية الشهيرة. كان يحتفظ بها في مغلف أخضر، وهو مصنوع بيتياً من ورق تغليف، وقد كُتبت عليه بحروف مطبعية: «صور مارتين سانتومي» من المؤكد أن المغلف

قديم، لكن الكتابة عليه حديثة جداً. كان يظهر في الصورة الأولى أربعة أشخاص يقفون أمام بيتنا في شارع براندثين. ولم تكن هناك حاجة لأن يقول لي بيغنالي أي شيء: إذ أن ذاكرتي اهتزت وأكدت تلقيها لتلك الصورة الضاربة إلى الصفرة بعد أن كانت سوداء بالصبيدج في زمن مضى. من كانوا يقفون أمام الباب هم أمي، وجارة لها ذهبت بعد ذلك إلى إسبانيا، وأبي، وأنا. كان مظهري مشعثاً ومضحكاً. سألتُ بيغنالي: «أأنت من التقط هذه الصورة؟» فرد عليّ: «أنت مجنون. أنا لم أملك الشجاعة في يوم من الأيام على حمل آلة تصوير أو مسدس. هذه الصورة التقطها فاليرو. هل تذكر فاليرو؟». أتذكره بصورة غامضة. أذكر مثلاً أن أباه كان يملك مكتبة، وأنه كان يسرق منها مجلات بورنوغرافية، وينهمك بعد ذلك في نشر هذا المظهر الأساسي من مظاهر الثقافة الفرنسية بيننا. «انظر هذه الصورة الأخرى»، قال بيغنالي ذلك بلوعة. وكنتُ أظهر في الصورة أيضاً، وإلى جانبي كان يقف البلاطة. إنه البلاطة (نعم، هذا شخص ما زلت أذكره). كان معتوهاً دائم التمسح بنا، وكان يحتفل بصخب بكل نكتة نرويها، حتى أشدها تفاهة ومللاً. ولم يكن يتركنا لا في الشمس ولا في الظل.

لستُ أذكر اسمه الحقيقي، لكنني واثق من أنه البلاطة. الملامح البلهاء نفسها، والجسد المترهل نفسه، والشعر المُصمّغ نفسه. أطلقتُ ضحكة سعيدة... واحدة من أفضل ضحكاتي هذه السنة. فسألني بيغنالي: «ما الذي يضحكك؟». «إنه «البلاطة». انظر إلى هيئته» حينئذ خفض بيغنالي بصره، وجال بنظرة خجلة على وجوه زوجته وحمويه وصهره وزوجة صهره، ثم قال بصوت أجشّ: «ظننتُ أنك لم تعد تذكر هذا

اللقب. لم أكن أحب في يوم من الأيام أن ينادوني به». لقد فاجأني تماماً. ولم أعد أعرف ما عليّ أن أقوله أو أفعله. إن ماريو بيغنالي والبلاطة هما الشخص نفسه إذن؟ نظرت إليه، ثم أعدت النظر إليه ثانية، وتأكدت من أنه أبله، وممل، ودنيء، ولكنه دون شك نوع آخر من البلاهة والملل والدناءة. ليست مثل تلك التي كانت للبلاطة فيما مضى، وكيف يمكن لها أن تكون نفسها. إن فيها الآن شيئاً ثابتاً لا أعرف كنهه. وأظن أنني تلعثمت: «ولكن، لم يكن هناك يا صاحبي من يطلق عليك اللقب بسوء نية. تذكر أنهم كانوا يطلقون على بيدرو لقب الأرنب أيضاً.» فقال بيغنالي البلاطة بنبرة آسفة: «ليتهم أطلقوا علي لقب الأرنب». ولم نشاهد مزيداً من الصور.

الجمعة 22 آذار (مارس)

ركضتُ عشرين متراً كي الحق بحافلة الأمنيبوس، فأُنهكت. وعندما جلستُ أحسست أنه سيغمى عليّ. وبينما أخلع السترة، وأفتح ياقة القميص وأتحرك قليلاً كي يتحسن تنفسي، لمست ذراع رفيقتي في المقعد مرتين أو ثلاث مرات. كانت ذراعاً دافئة، ولم تكن شديدة النحول. أحسست حين لمستها بمداعبة زغب مخملي، لكنني لم أستطع أن أحدد إن كان ذلك الزغب هو من ذراعها أم من ذراعي أنا، أم من ذراعينا معاً. فتحتُ الجريدة ورحت أقرأ. أما هي، فكانت تقرأ في كتيب سياحي عن النمسا. بعد قليل أحسست بتحسن في تنفسي، ولكن الخفقان استمر لربع ساعة كاملة. تحركت ذراعها ثلاث مرات

أو أربع، دون أن يبدو عليها أنها تود الانفصال تماماً عن ذراعي. كانت تذهب وتجيء. وكانت الملامسة تقتصر أحياناً على إحساس خفيف في أطراف شعر ذراعي. نظرتُ عدة مرات إلى الشارع، وفي أثناء ذلك تكونت لدي بطاقة تشبيه لها: وجه مربع، شفتان رقيقتان، شعر طويل، وأصباغ قليلة، ويدان عريضتان غير معبرتين. وفجأة أفلت من يدها الكتيب. فانحنيتُ والتقطته لها. وقد ألقيت نظرة في أثناء ذلك إلى الساقين بالطبع. إنهما مقبولتان، وعلى كاحليهما لصقات طبية. لم تقل لي شكراً. وعندما بلغنا شارع سييرا بدأت تستعد للنزول. خبأت الكتيب، ورتبت شعرها، وأغلقت محفظتها واستأذنت بالخروج. فقلت لها مستجيباً بذلك النوع من الإلهام: «أنا سأنزل أيضاً». سارت مسرعة في شارع بابلو دي ماريا، ولكني لحقت بها بعد أربع خطوات واسعة. مشينا أحدنا إلى جوار الآخر مسافة كوادرا ونصف. وكنت ما أزال أصوغ العبارة التي سأبدأ بها التصدي، عندما التفتت إليّ وقالت: «إذا كنت تريد أن تكلمني فاحسم أمرك».

الأحد 24 آذار (مارس)

كلما أمعنت التفكير في ما حدث يوم الجمعة، بدا لي أمراً مذهلاً بغرابته. لم يخبر أحدنا الآخر باسمه، ولم نتبادل أرقام الهواتف أو أي شيء شخصي آخر. ومع ذلك فإنني مستعد لأن أقسم أن الجنس لدى تلك المرأة لم يكن يتضمن أي قدر من حياء المرة الأولى. بل بدت لي وكأنها غاضبة من شيء ما، وأن استسلامها لي هو انتقام غريب من شيء

لا أعرفه. عليّ أن أعترف كذلك بأنها المرة الأولى في حياتي التي أقنص فيها امرأة بفضل مرفقي وحده، وهي المرة الأولى كذلك التي أرى فيها امرأة تخلع ملابسها بمثل تلك السرعة، فور وصولنا إلى الشقة المفروشة، وتفعل ذلك تحت الإنارة الكاملة. ثم السهولة العدوانية التي استلقت بها على السرير. ما الذي كانت تجربه يا ترى؟ لقد فعلت كل ما يمكنها لكي تُظهر عريّها كاملاً، حتى إنني كدت أظن أنها المرة الأولى التي تجد فيها نفسها عارية أمام رجل. ولكنها لم تكن مستجدة. وعلى الرغم من وجهها الجدّي، وفمها الذي بلا طلاء، ويديها غير المعبرتين، فقد حاولت الاستمتاع ما وسعها ذلك. وفي اللحظة التي ظنتها مناسبة، توسلت إليّ أن أهمس لها بكلمات بذيئة. ليس هذا من أساليبي، ولكنني أظن أني أرضيتها.

الاثنين 25 آذار (مارس)

وظيفة عامة لاستيبان. هذه هي نتيجة عمله في النادي. لست أدري إن كان عليّ أن أفرح بتعيينه مسؤولاً، فهو، الآتي من خارج الوظيفة الحكومية، يمرّ فوق جميع أولئك الذين سيصبحون الآن مرؤوسيه ويتجاوزهم. أظن أنهم سيجعلون حياته مستحيلة. وهم محقون في ذلك.

الأربعاء 27 آذار (مارس)

مكثتُ اليوم في المكتب حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً. إنها إحدى «سفالات» الوكيل. فقد استدعاني في السادسة والربع ليقول

لي إنه عليّ أن أراجع تدقيق هذه القذارة لتكون جاهزة عند بدء الدوام صباح غد. العمل الذي طلب مراجعته يحتاج إلى ثلاثة أشخاص. وقد تطوعت أبيّانيدا المسكينة للبقاء. ولكنني أشفقت عليها.

بقي معنا كذلك ثلاثة موظفين من قسم الصادر. والواقع أن بقاءهم كان الشيء الوحيد اللازم حقاً، ولكن الوكيل لم يشأ أن يكلف فحلَ ابنة بالبيردي بعمل إضافي دون أن يزين له العقوبة بجعل بريء آخر يعمل مثله بعد انتهاء الدوام. وقد كان البريء المختار هذه المرة هو أنا. الصبر. كم أتمنى أن تمل ابنة بالبيردي ذلك المائع.

إن العمل خارج ساعات الدوام يغيظني جداً. فالمكتب كله غارق في السكون، لا جمهور فيه. والمناضد متسخة، ومترعة بالملفات والسجلات، مما يوحي بأنها قمامة، براز. ووسط ذلك الصمت المطبق، وتلك العتمة، يوجد ثلاثة أشخاص هنا، وثلاثة آخرون هناك، يعملون دون شهية، ويتثاقلون مجرجرين تعب الساعات الثماني السابقة.

أملى كل من روبليدو وسانتيني عليّ الأرقام، ورحت أنسخها على الآلة. وفي الساعة الثامنة ليلاً بدأ ظهري يؤلمني، قرب الكتف الأيسر. وفي التاسعة، لم يعد الألم يهمني، وكنت ما أزال أكتب ـ مثل رجل آلي ـ تلك الأرقام المبحوحة التي يمليانها عليّ. وعندما انتهينا، لم يتفوه أي منا بكلمة. كان جماعة الصادر قد انصرفوا. مضينا ثلاثتنا معاً إلى الساحة، ودفعت لهما ثمن قهوة شربناها على منضدة الكونتوار في مقهى سوروكابانا، ثم قلنا لبعضنا بعضاً «تشاو». وأظن أنهما قد حقدا عليّ قليلاً لأني اخترتهما هما بالذات للبقاء معي.

الخميس 28 آذار (مارس)

تحدثتُ مطولاً مع استيبان. عرضت عليه شكوكي حول عدالة تعيينه مسؤولاً. لم أكن أسعى إلى جعله يستقيل؛ يا الله، أعرف أن هذا ليس بالأمر المألوف. كل ما هنالك أنني كنت سأفرح بسماعه يصرح بعدم رضاه عن ذلك التعيين. ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك. «لا فائدة أيها العجوز، فأنت ما زلت تعيش في عصر آخر» هذا ما قاله لي، ثم تابع: «لا أحد يغضب الآن إذا ما جاء أي شخص وتجاوزه في سلم الوظيفة. وهل تعلم لماذا لا يغضبون؟ لأن الجميع يفعلون الشيء نفسه إذا ما سنحت لهم الفرصة. إنني واثق من أنهم لن ينظروا إليَّ نظرة غضب، وإنما نظرة حسد».

قلت له... ولكن، ما أهمية ما قلته له؟

الجمعة 29 آذار (مارس)

يا للرياح المقرفة. لم يكن يسيراً علي الانتقال من كولونيا إلى بلاتا عبر ثيوداديلا. لقد طيّرت الرياح تنورة فتاة. وطيّرت كذلك مسوح كاهن. يا يسوع! يا للفرق بين المشهدين. إنني أفكر أحياناً في ما كان سيحدث لي لو أنني دخلتُ سلك الكهنوت وصرت راهباً. ربما لا شيء على الإطلاق. هنالك عبارة أرددها أربع أو خمس مرات في السنة تقول: «إنني واثق من أن ثمة مهنتين لا أشعر بأدنى ميل لممارستهما أبداً: العسكرية والكهنوت» ولكني أظن أنني أردد ذلك بحكم العادة، دون قناعة بما أقول.

وصلتُ إلى البيت مشعث الشعر، وكانت حنجرتي متقدة وعيناي ممتلئتين بالغبار. اغتسلت واستبدلت ملابسي، ثم جلست وراء النافذة لاحتساء المتة. شعرت أنني في مأمن، وراودني إحساس عميق كذلك بأنني شخص أناني. كنت أرى رجالاً ونساء وشيوخاً وأطفالاً يمرون؛ وكانوا جميعهم يناضلون ضد الريح، وكذلك ضد المطر الذي بدأ يهطل الآن. ومع ذلك، لم أشعر برغبة في فتح الباب ودعوتهم للاحتماء في بيتي ومشاركتي شرب كأس من المتة الساخنة. ليس ذلك لأنه لم يخطر ببالي أن أفعل. لقد مرت الفكرة في رأسي، لكنني شعرت بأني سأكون مضحكاً جداً، وتصورت الوجوه الحائرة التي سينظر بها إلي أولئك الناس وهم يقفون وسط الريح والمطر.

ما الذي كان سيحدث لي اليوم، لو أنني دخلت سلك الرهبان قبل عشرين أو ثلاثين سنة؟ أجل، أعرف ذلك، كان الهواء سيطيّر مسوحي الكهنوتي ويكشف عن سروالي الذي هو كسراويل الرجال البدائيين المتوحشين. ولكن، ماذا سوى ذلك؟ هل كنت سأكسب أم سأخسر؟ ما كان لي أن أنجب أولاداً (أظن أنني كنت سأتصرف كراهب نزيه وعفيف مئة بالمئة)، ولما كان لدي مكتب، ولا ساعات دوام عمل، ولما كانت لي إحالة على المعاش. ولكان لي رب، هذا صحيح، ولكان لي دين. ولكن، أليس لدي ذلك الآن؟ الحقيقة أنني لا أعرف إن كنت أؤمن بالرب. يخيل إليّ أحياناً أن الرب، إن كان موجوداً، لن تضايقه مثل هذه الشكوك. والواقع أن العناصر التي وهبنا إياها هو (أم هو؟ بالتفخيم) نفسه (التفكير، والحساسية، والحدس) ليست كافيه على

الإطلاق لتأكيد وجوده أو عدمه. ويمكنني بفضل هاجس داخلي أن أؤمن بالرب وأكون على صواب، أو أن لا أؤمن بالرب وأكون على صواب أيضاً. ما الحل إذن؟ أيكون للرب وجه كوجه مدير منضدة قمار وأنا لست سوى شيطان بائس يلعب على الأحمر عندما يكسب الأسود والعكس بالعكس.

السبت 30 آذار (مارس)

ما زال روبليدو مستاء مني بسبب اختياري له في العمل الإضافي يوم الأربعاء الماضي. يا له من مسكين. فخطيبته، كما أخبرني مونيوث صباح اليوم، تغار عليه غيرة مرعبة. وكان على موعد للقاء بها يوم الأربعاء في الساعة الثامنة، ولكنه لم يستطع الذهاب لأني اخترته للبقاء معي. لقد أخطرها بالهاتف، ولكن دون جدوى. فقد قالت له تلك المرتابة إنها لا تريد أن تعرف أي شيء عنه بعد الآن. وقال لي مونيوث إنه يواسيه بالقول له إنه من الأفضل دوماً معرفة مثل هذه العيوب قبل الزواج، لكن روبليدو ما زال في حالة استياء فظيعة. لقد استدعيته اليوم، وأوضحت له أني لم أكن أعرف شيئاً عن أمر موعده مع خطيبته. وسألته لماذا لم يخبرني بذلك، فتطلع إليّ بعينين ينبعث منهما الشرر، ودمدم: «حضرتك كنت تعرف ذلك جيداً. لقد فلقتموني بمزاحكم هذا». عطس بعصبية خالصة، ثم أضاف فوراً وعلى وجهه ملامح خيبة أمل كبيرة: «أن يمزح معي هؤلاء، وهم ليسوا سوى جماعة من السفهاء، فإنني أفهم ذلك. أما أن تفعل حضرتك مثلهم، وأنت الرجل

الرصين، فهو تصرف يخيب ظني إلى حدّ ما في الواقع. لم أقل لك ما أشعر به نحوك من قبل، ولكن كانت لدي فكرة طيبة عنك». ورأيت أن اندفاعي للحفاظ على فكرته الطيبة حول شخصي سيكون أمراً عنيفاً، فاكتفيت بالقول له، دون غضب: «انظر... إذا أردت أن تصدقني فافعل، وإن كنت لا تريد، فتحمل ذلك. أنا لم أكن أعرف شيئاً عن الأمر. نقطة، وانتهى. وانصرف إلى عملك إذا كنت لا تريد أن تخيب ظني أيضاً».

الأحد 31 آذار (مارس)

هذا المساء، وبينما أنا خارج من «الكاليفورنيا»، رأيت من بعيد فتاة الأمنيبوس، «امرأة المرفق». كانت آتية باتجاهي ومعها شخص ضخم، له جسد رياضي وجبهة عرضها إصبعين. إن رؤية ذلك الرجل وهو يضحك تدفع إلى التفكير في تنويعات البلاهة البشرية غير المتوقعة. وقد كانت هي نفسها تضحك أيضاً، ملقية برأسها إلى الوراء وملتصقة به بغنج. مرا أمامي مواجهة، ورأتني وهي في منتصف إحدى قهقهاتها، ولكنها لم تقطعها. لا يمكنني أن أؤكد أنها قد تعرفت عليّ. وفجأة قالت لهجوم الوسط الذي يرافقها: «آي، حبيبي» وأدنت رأسها بحركة عضلية متغنجة من ربطة عنقه المزينة برسوم زرافات. بعد ذلك انعطفا عبر شارع إيخيدو. إشارة استفهام كبرى: ما علاقة هذه المرأة بتلك التي تعرت أمامي في وقت قياسي ذلك المساء؟

الاثنين، الأول من نيسان (أبريل)

اليوم أوكلوا إليّ مهمة استقبال «اليهودي الذي يأتي بحثاً عن عمل». فكل شهرين أو ثلاثة شهور يظهر هنا. ولا يعرف الوكيل كيف يتخلص منه. إنه شخص طويل القامة، أنمش، في حوالي الخمسين من عمره؛ يتكلم الإسبانية بصورة مريعة، وربما يكتبها بصورة أسوأ. وهو يخبرنا بترتيلة دائمة أن اختصاصه هو المراسلات التجارية بثلاث أو أربع لغات، والاختزال بالألمانية، وجدولة الحسابات. ويُخرج من جيبه رسالة في حالة اهتراء تام، يشهد فيها مدير قسم الأفراد، لا أدري في أية مؤسسة في مدينة لاباث، ببوليفيا، بأن السيد فرانز هنريتش وولف قد قدم خدماته المرضية تماماً، وأنه استقال بمحض إرادته الذاتية. ومع ذلك، فإن ملامح وجهه أبعد ما تكون عن أي إرادة، ذاتية أو غيرية. لقد أصبحنا نعرف عن ظهر قلب حركاته كلها، وحججه كلها، وصبره كله. فهو يلح دائماً على إجراء اختبار له، ولكننا حين نطلب منه الكتابة على الآلة، تخرج الرسالة المطلوبة سيئة على الدوام؛ ويكون الصمت الهادئ هو ردّه على الأسئلة القليلة التي نوجهها إليه. لا يمكنني أن أتصور مصدر عيشه. مظهره نظيف وبائس في الوقت نفسه. ويبدو لي أنه مقتنع كذلك بضرورة أن يكون ملحاحاً مهما واجه من صدّ. لا يمكنني أن أحدد بدقة إذا ما كان ذلك المشهد مؤثراً أم مقرفاً أم عظيماً، ولكنني أظن أنني لا أستطيع نسيان الوجه (أهو هادئ؟ أم أنه حاقد؟) الذي يتلقى به الرجل دوماً نتيجة الاختبار السلبية، كما أنني لا أستطيع أن أنسى انحناءة الاحترام التي يودعنا بها. لقد رأيته أكثر من مرة في الشارع، وكان يمشي متمهلاً أو ينظر ببساطة إلى نهر الناس الذين

يمرون، والذين ربما يوحون إليه بفكرة ما. وأظن أنه عاجز تماماً عن الابتسام. ويمكن لنظرته أن تكون نظرة مجنون أو حكيم أو متكلف، أو نظرة امرئ عانى كثيراً. والحقيقة أنه يخلّف فيّ، كلما رأيته، إحساساً بالقلق، كما لو أنني مذنب جزئياً لحالته وبؤسه. والأسوأ من ذلك كله هو إحساسي بأنه يعرف أنني مذنب. أعرف أن هذا كله ليس سوى حماقة. فأنا لا أستطيع الحصول له على عمل في مكتبي، فضلاً عن أنه لا ينفع في ذلك أبداً.

ماذا إذاً؟ ربما كنت أعرف أن هناك وسائل أخرى لمساعدة أمثاله. ولكن ما هي؟ النصائح مثلاً؟ لا أريد مجرد التفكير في الوجه الذي سيتلقاها به. اليوم، وبعد أن قلت له للمرة العاشرة لا، أحسست بجرعة من الأسى في أعماقي، وقررت أن أمد إليه يدي وفيها ورقة من فئة العشرة بيزوات. فترك يدي ممدودة، ونظر إليّ بتمعن (نظرة شديدة التعقيد، وإن كنت أظن أن جوهرها الأساسي بدورها هو الأسى أيضاً)، وقال لي بتلك الرطانة الكريهة التي تجعل الراء ترن كأنها خاء: «حضرتك لم تفهمني»، وهذا صحيح تماماً. لم أفهم وكفى. لا أريد مزيداً من التفكير في هذا كله.

الثلاثاء 2 نيسان (أبريل)

لقاءاتي مع أبنائي قليلة، وبخاصة مع ابني خيمي. هذا غريب، لأن خيمي بالذات هو الذي أرغب في اللقاء به كثيراً. إنه المرح الوحيد بين الثلاثة. لا أدري ما هي قيمة اللطف في العلاقات بين الأب والأبناء،

ولكن ما أعرفه أن خيمي هو أكثر أبنائي الثلاثة لطفاً. ولكنه أقلهم شفافية بالمقابل.

لقد رأيته اليوم، لكنه لم يرني. تجربة غريبة. كنت عند تقاطع شارعي كونبينثيون وكولونيا، أودع مونيوث الذي اصطحبني حتى هناك. وحينئذ مرّ خيمي على الرصيف المقابل. كان يمشي مع شخصين آخرين، بدا لي أن هناك شيئاً منفراً في مظهرهما أو ملبسهما؛ لست أذكر جيداً، لأني دققت بصورة خاصة في خيمي. لا أدري ما الذي كان يقوله لهما، ولكنهما كانا يضحكان بمبالغة. أما هو، فكان جدياً. لكن ملامحه كانت تنم عن الرضا، أو ربما لم تكن كذلك، بل هي نتيجة يقينه بالتفوق والسيطرة الواضحة التي كان يمارسها حينها على زميليه.

في الليل قلت له: «اليوم رأيتك في كولونيا. كنتَ ماشياً مع شخصين آخرين». بدا لي أن وجهه قد احمر خجلاً. وربما كنت مخطئاً. قال: «إنهما زميل من المكتب وابن عمه». فأضفتُ: «يبدو لي أنك تسليهما كثيراً». «آوه، إنهما يضحكان لأي شيء».

عندئذ، ولأول مرة في حياته على ما أظن، وجه إلي سؤالاً شخصياً، سؤالاً يتعلق بشؤوني الخاصة: «و...، متى تظن أن تقاعدك يبدأ؟» خيمي يسأل عن تقاعدي! قلت له إن استيبان قد كلم صديقاً له من أجل تسريع الأمر، ولكنه لا يستطيع الإسراع به كثيراً أيضاً. فلا بد لي، قبل كل شيء، أن أكمل خمسين سنة. سألني: «وكيف تشعر؟» فضحكت واكتفيت بهز كتفيّ. لم أقل شيئاً لسببين: الأول، أنني لا أعرف ما

الذي سأفعله ببطالتي. والثاني، أنني تأثرت بهذا الاهتمام المفاجئ. إنه يوم طيب هذا اليوم.

الخميس 4 نيسان (أبريل)

اضطررنا إلى البقاء في المكتب حتى وقت متأخر مرة أخرى. الذنب كان ذنبنا في هذه المرة: فقد كان علينا أن نفتش عن اختلاف في الحسابات. إن اختيار الذين سيبقون معي مشكلة عويصة. روبليدو المسكين كان ينظر إليّ متحدياً، لكنني لم أختره؛ من الأفضل أن أدعه يفكر في أنه قد هيمن عليّ. وكان لدى سانتيني حفلة عيد ميلاد، أما مونيوث فهو يرافق صبية شبقة تجعله متعكر المزاج، وسييرا لم يأت إلى العمل منذ يومين. وأخيراً بقي معي مينديث وأبييّانيدا. في الساعة الثامنة إلا ربعاً اقترب مينديث مني بتكتم شديد وسألني متى سننتهي. فقلت له إننا لن ننتهي قبل التاسعة على أقل تقدير. حينئذ، اعترف لي بتكتم أشد، وباتخاذ أقصى الاحتياطات كي لا تسمعه أبييّانيدا، بأن لديه موعداً غرامياً في التاسعة، وأنه يريد أن يذهب إلى بيته قبل ذلك ليستحم ويحلق ذقنه ويستبدل ملابسه... إلخ. ومع ذلك، جعلته يعاني قليلاً. سألته: «أهي جميلة؟». «إنها قصيدة أيها الرئيس». إنهم يعرفون أن السلاح الوحيد للتغلب عليّ هو الصراحة، فيتظاهرون بالصراحة. وقد أعطيته الإذن، طبعاً.

يا لأبييّانيدا المسكينة. ما إن أصبحنا وحيدين في المكان الفسيح حتى بدت أكثر عصبية مما هي عليه في العادة. ولاحظتُ أن يدها ترتجف عندما قدمت لي إحدى الأوراق، فسألتها مباشرة: «هل لي مظهر مخيف

إلى هذا الحد؟ لا تكوني هكذا يا أبيًانيدا». فضحكت عندئذ وبدأت تعمل باطمئنان أكبر. إن التحدث إليها مشكلة كاملة. فعليّ دائماً أن أكون في منتصف الطريق بين الصرامة والثقة. نظرتُ إليها بطرف عيني أربع أو خمس مرات. من الواضح أنها فتاة طيبة. فيها ملامح محددة، تنم عن شخصية وفيه. عندما تندمج في العمل قليلاً يتشعث شعرها بصورة محتمة، وهذا يناسبها أكثر. في التاسعة وعشر دقائق وجدنا الاختلاف في الحسابات. سألتها إن كانت ترغب في أن أوصلها. «لا يا سيد سانتومي، ولا بأي حال». ولكننا بينما نحن نمشي باتجاه الساحة، تحدثنا عن شؤون العمل. ولم توافق كذلك على تناول قهوة معي. سألتها أين تسكن، ومع من. أب وأم... وهل لديها صديق؟ ولا بد أنني أستثير قدراً أقل من الاحترام وأنا خارج المكتب، لأنها ردت عليّ مؤكدة بلهجة عادية أن لديها صديق. سألتها: «ومتى سنجتمع للفرح؟» وهو السؤال المعتاد في مثل هذه الحالات. «آوه، لقد تعرفت عليه منذ سنة واحدة فقط». وأظن أنها بعد أن اعترفت لي بأن لديها خطيباً، أصبحت تشعر بحماية أكبر، وتعاملت مع أسئلتي على أنها اهتمام شبه أبوي. ثم استجمعت كل شجاعتها لتستفسر عما إذا كنتُ متزوجاً، وإذا كان لي أبناء... الخ. واكتسى وجهها بملامح جدية حين علمت بترملي، وأظنها كانت تصارع موزعة بين تغيير الموضوع بسرعة أو مشاركتي مشاعر الحزن التي مضى عليها عشرون عاماً. وانتصر الاتزان، فانتقلت إلى الحديث عن خطيبها، وما كدت أعرف عنه أكثر من أنه يعمل في البلدية حتى ظهرت حافلتها، فمدت يدها مودعة دون كلفة... يا للهول.

الجمعة 5 نيسان (أبريل)

تلقيت رسالة من آنيبال. لقد سئم سان باولو، وسيرجع في نهاية الشهر. إنه خبر طيب بالنسبة إليّ. لدي قلة من الأصدقاء، وآنيبال هو أفضلهم. فهو الوحيد على الأقل الذي أتحدث معه في بعض الموضوعات دون أن أشعر بأني مضحك. علينا أن نبحث يوماً عن القاعدة التي يستند إليها تآلفنا. فهو كاثوليكي، وأنا لست شيئاً. وهو زير نساء، وأنا أكتفي بما لا بد منه. هو نشيط ومبدع وحازم، وأنا روتيني ومتردد. والحقيقة أنه يدفعني، في أحيان كثيرة، إلى حسم أمري في اتخاذ قرار ما؛ وأكون أنا في أحيان أخرى من يكبح اندفاعه بإحدى شكوكي. عندما توفيت والدتي ـ في شهر آب (أغسطس) تكون قد مضت خمس عشرة سنة على ذلك ـ كنتُ محطماً. ولم يكن يسند كياني سوى غضب عارم على الرب والأقارب والآخرين. كلما تذكرت ذلك السهر المأتمي الذي بلا نهاية، أشعر بالاشمئزاز. كان الحاضرون يومئذ ينقسمون إلى فئتين: فئة من يبدؤون البكاء منذ اجتيازهم الباب ثم يهزونني وهم يحتضنونني بين أذرعهم، وفئة من يأتون لمجرد أداء الواجب، فيمدون إليّ أيديهم بأسى مضجر، ثم يأخذون بعد عشر دقائق برواية النكات البذيئة. حينئذ حضر آنيبال. اقترب مني، ولم يمد لي حتى يده، بل بدأ يتكلم بصورة طبيعية: عني، وعن نفسه، وعن أسرته.. وكذلك عن أمي. وكان أسلوبه الطبيعي في الحديث أشبه بنوع من البلسم، من العزاء الحقيقي؛ وقد اعتبرت ذلك أفضل تكريم يمكن لأحد أن يقدمه لأمي، ولي أنا نفسي في تأثري على أمي. تلك الواقعة ليست إلا تفصيلاً

بسيطاً، مجرد حادثة تكاد تكون دون معنى.. أُدركُ ذلك جيداً. ولكنها حدثت في لحظة من تلك اللحظات التي يجعل الألم فيها أحدنا قابلاً للتأثر بشدة.

السبت 6 نيسان (أبريل)

حلم جنوني. رأيت نفسي أجتاز حديقة لوس ألیادوس بالبيجاما. وفجأة، على الطريق إلى بيت فخم من طابقين، رأيت أبيّانيدا. اقتربتُ منها دون تردد. كانت ترتدي، فوق جسدها مباشرة، ثوباً من لون واحد، دون زينة ولا حزام. وكانت تجلس على مقعد مطبخ وهي تقشر البطاطا بجوار شجرة أوكالبتوس. وفجأة، أدركتُ أن الوقت ليلٌ، فدنوت منها وقلت: «يا لرائحة الريف الشهية»، ويبدو أن عبارتي كانت كافية وحاسمة، لأني انهمكت مباشرة في مباضعتها، دون أن تبدي أية مقاومة.

وعندما ظهرت أبيّانيدا في المكتب صباح اليوم، وهي ترتدي فستاناً من لون واحد، دون زينة ولا حزام، لم أستطع كبح نفسي وقلت لها: «يا لرائحة الريف الشهية». فنظرت إليّ بذعر حقيقي، تماماً مثلما يُنظر إلى معتوه أو سكير. والأسوأ من ذلك أني حاولت أن أوضح لها أنني كنت أتكلم وحيداً. لم أقنعها. وحين انصرفت، عند الظهيرة، كانت لا تزال تراقبني بشيء من الحذر. إنه دليل آخر على أنه يمكن للمرءِ أن يكون، في الأحلام، أكثر إقناعاً مما هو في الواقع.

الأحد 7 نيسان (أبريل)

في جميع أيام الآحاد تقريباً، أتناول الغداء والعشاء وحيداً، وأصاب بكآبة محتمة. «ماذا فعلتُ بحياتي؟» إنه سؤال له رنة غارديل[1]أو ملحق نسائي في صحيفة أو عنوان مقالة في مجلة ريدرز دايجست. ليس مهماً. اليوم يوم أحد، وأنا أشعر بأنني قد تجاوزت السخف وأستطيع أن أوجه إلى نفسي أسئلة من هذا النوع. لم تحدث في حياتي الخاصة تبدلات غير عقلانية، ولا انقلابات خارقة ومفاجئة. وأكثر أحداث حياتي غرابة كان موت إيزابيل. أيكون في ذلك الموتِ السّرُ الحقيقي لما اعتبره خيبتي؟ لا أظن. بل إنني كلما تعمقت في التقصي، أزداد قناعة بأن تلك الميتة في ريعان الشباب هي مصيبة، ولنقل أنها مصيبة حالفها الحظ (رباه، يا للرنة المبتذلة والدنيئة. حتى أنا نفسي أرتاع منها) أريد أن أقول إنه في اللحظة التي اختفت فيها إيزابيل، كان عمري ثمانية وعشرين عاماً، وكانت هي في الخامسة والعشرين. لقد كنا في أوج الشهوة. وأظن أنها هي التي أكسبتني رغبتي الجسدية الشبقة. وربما هذا هو السبب في أنني عاجز حقاً عن استعادة وجه إيزابيل (وأعني استعادته من خلال تصوراتي، وليس من خلال صور فوتوغرافية أو ذكريات عن ذكريات)، يمكنني بالمقابل أن أستعيد في يديّ، كلما شئت، الملمس الخاص لخصرها، لبطنها، لربلتي ساقيها، لنهديها. لماذا كانت ذاكرة راحتيّ يديّ أكثر وفاء من ذاكرتي؟ يمكن استخلاص نتيجة من هذا كله: لو أن إيزابيل عاشت سنوات أطول مما عاشته، وأصاب

(1) المقصود هو كارلوس غارديل، مغني التانغو الأرجنتيني المشهور.

جسدها الترهل (ما كان جيداً فيها هو بشرتها الناعمة والمشدودة في كل أنحاء جسدها)، وترهلت بالتالي قدرتي على اشتهائها، لما كنت أضمن أن تكون علاقتنا مثالية. لأن انسجامنا كله ـ وقد كان انسجاماً حقيقياً ـ كان مرتبطاً بالسرير حتماً.. بسريرنا. ولست أعني بهذا أن علاقتنا خلال النهار كانت كعلاقة الكلب والهرّ؛ بل على العكس من ذلك تماماً، ففي حياتنا اليومية كانت توجد جرعة لا بأس بها من الانسجام والوئام. ولكن، ما هو الكابح الذي كان يمنع وقوع الانفجارات بيننا، ويحول دون أن يطفح بنا الكيل؟ إنه ببساطة متعة الليل، وحضورها الحامي من منغصات النهار. فإذا ما مستنا الكراهية يوماً وبدأنا الضغط على شفاهنا، يمر أمام ناظرينا حافز الليلة الفائتة، أو القادمة، فتلفنا عندئذ، وبصورة محتمة، موجة من الرقة تُخمد كل براعم النفور. ولست أنكر في هذا الشأن. فقد كان زواجي أمراً طيباً، وفترة سعيدة.

ولكن، ماذا سوى ذلك؟ فهناك الرأي الذي يكوّنه أحدنا عن نفسه، وهو أمرٌ علاقته ضئيلة إلى حدّ لا يصدق بالغرور. وأعني بذلك الرأي الصريح بالنفس مئة بالمئة، الرأي الذي لا يجرؤ أحدنا على الاعتراف به حتى للمرآة التي يحلق ذقنه قبالتها. أذكر أنه في مرحلة مضت (ما بين السابعة عشرة والعشرين من عمري) كان لي رأي طيب حول نفسي، ويمكن القول إنه كان رأياً رائعاً. كنت أشعر بأن لدي الدافع اللازم للبدء في عملٍ «شيء عظيم» وإنجازه، وبأن أكون ذا نفع لكثيرين في تقويم الأمور. ولا يمكنني القول إن موقفي ذاك كان نوعاً من البلاهة الأنانية. فبالرغم من أنه كان سيروقني آنذاك أن أتلقى استحسان الآخرين،

بل وتصفيقهم أيضاً، إلا أن هدفي الأول لم يكن كما أظن استغلال الآخرين والاستفادة منهم وإنما في أن أكون مفيداً لهم. أعرف أن ذلك الشعور لم يكن مجرد إحساس نقي ومسيحي؛ فضلاً عن أن المعنى المسيحي للإحسان لم يكن يهمني كثيراً. أذكر أنني لم أكن أتطلع إلى مساعدة المعوزين أو العاجزين أو البائسين (وإيماني يتضاءل أكثر فأكثر بالمساعدة الفوضوية). لقد كان ما أنويه أكثر تواضعاً؛ وكان يتمثل ببساطة في أن أكون ذا نفع لأمثالي، لمن يتمتعون أكثر من سواهم بحقٍ مفهوم في حاجتهم إليّ.

والحقيقة أن هذا الرأي الرائع حول نفسي قد انحدر كثيراً. فأنا أشعر اليوم بأنني مبتذل، بل ومجرد من الحماية بطريقة ما. ويمكن لي أن أتحمل بصورة أفضل أسلوبي في الحياة لو لم أكن أعي (ذهنياً فقط بالطبع) أنني فوق ذلك الابتذال. ومعرفتي أنني أمتلك، أو امتلكت، في ذاتي عناصر كافية للارتقاء إلى إمكانية أخرى، معرفة أنني أعلى، ليس كثيراً، من مهنتي المنهكة، ومن متعي القليلة، ومن إيقاع حواري: معرفة هذا كله لا يساعدني في الحقيقة على الاطمئنان والراحة، بل يجعلني أشعر بأنني أكثر إحباطاً، وغير مؤهل لتجاوز الظروف المحيطة بي. والأسوأ من هذا كله أنه لم تقع لي أحداث رهيبة تحاصرني (حسن، إن موت إيزابيل حدث شديد الوقع، لكنني لا أستطيع أن أعتبره حدثاً رهيباً. فهل هناك، في نهاية المطاف، ما هو أكثر طبيعية من مغادرة هذه الدنيا؟)، إنني أعني أحداثاً تكبح أفضل دوافعي، وتحول دون تطوري، وتقيدني إلى روتينٍ سُباتي. فأنا صنعت روتين حياتي بنفسي، ولكن بأسهل الأساليب: أسلوب التراكم. وكان

يقيني بأنني قادر على عمل شيء أفضل قد أسلمني إلى التأجيل، وهذا سلاح رهيب وانتحاري في نهاية المطاف. ولهذا لم يكن لروتيني قطّ شخصية محددة أو تعريف؛ لقد كان مؤقتاً على الدوام، وشكّل توجهاً غير مستقر، أمضي فيه خلال فترة التأجيل فقط، ولمجرد منح نفسي القدرة على تحمل واجب العمل اليومي خلال فترة التهيئة التي كنت أعتبرها كما يبدو ضرورة لا بد منها، قبل أن أنطلق نهائياً نحو قدري الحقيقي. يا للبلاهة، أليس كذلك؟ والنتيجة الآن أنه ليس لدي عيوب ذات شأن (فأنا قليل التدخين، ولا أشرب إلا قليلاً من البيرة حين أكون ضجراً بين الحين والآخر)، ولكنني أظن أني لم أعد قادراً على الإقلاع عن عادة التأجيل: وهذا هو، من ناحية أخرى، إدماني الكبير الذي لا شفاء منه. لأني لو قررت الآن بالذات أن أؤكد لنفسي، في نوع من القسم المتأخر: «سوف أصير ما كنت أود أن أكونه بالضبط»، فإن ذلك كله سيكون دون طائل. أولاً، لأنني أشعر بأن قواي أضأل من أن أقامر بها مقابل الحياة، وفي المقام الثاني، هل ثمة صلاحية الآن، في نظري، لما كنتُ أود أن أكونه؟ سيكون ذلك أشبه بأن ألقي بنفسي، بصورة واعية، إلى شيخوخة مبكرة. إن ما أرغب فيه الآن هو أكثر تواضعاً بكثير مما كنت أرغب فيه قبل ثلاثين عاماً، لاسيما وأنني لم أعد أهتم كثيراً بالحصول عليه. فإحالتي على التقاعد، مثلاً، هي مطلب أتطلع إليه بالطبع، ولكنه تطلع على طريق الانحدار. أنا أعرف أن موعد التقاعد سيصل، وأنه سيأتي وحده، وأعرف أنه لا حاجة بي لعمل أي شيء. وهكذا يصبح الأمر سهلاً، ويصبح الأمر جديراً بالاستسلام واتخاذ قرارات.

الثلاثاء 9 نيسان (أبريل)

اتصل بي صباح اليوم بيغنالي البلاطة. وقد طلبت أن يقولوا له إنني غير موجود، ولكن عندما عاود الاتصال بعد الظهر، وجدت نفسي مضطراً إلى الرد عليه. إنني حاسم في هذا الشأن: فإذا كنتُ مرتبطاً بهذه العلاقة (لا أجرؤ على تسميتها صداقة) فربما لأني أستحقها.

إنه يريد المجيء إلى بيتي. «أمر سري أيها العجوز. لا أستطيع أن أخبرك به على الهاتف، ولا أستطيع دعوتك إلى البيت لإطلاعك عليه» واتفقنا على اللقاء يوم الخميس. سيأتي إلى بيتي بعد العشاء.

الأربعاء 10 نيسان (أبريل)

هنالك في أبيّانيدا شيء يجذبني إليها. هذا لا شك فيه. ولكن، ما هو؟

الخميس 11 نيسان (أبريل)

مازال هناك نصف ساعة لتناولنا العشاء. الليلة سيأتي بيغنالي. سأكون وحيداً مع بلانكا، فابناي اختفيا من البيت فور علمهما بالزيارة. لست أدينهما. فأنا نفسي كنت سأهرب لو أنني مكانهما.

لقد طرأ تبدل على بلانكا. فقد اكتسب خداها لوناً جديداً، وهو ليس لوناً اصطناعياً؛ إنه يبقى بعد أن تغسل وجهها. وهي تنسى أحياناً أني موجود في البيت، وتنطلق في الغناء. صوتها ليس جيداً، ولكنها

تحسن التحكم به. إنني أبتهج لسماعها. ماذا يجول في رؤوس أبنائي؟ أيكونون في آمال مرحلة الصعود؟

الجمعة 12 نيسان (أبريل)

جاء بيغنالي يوم أمس، في الحادية عشرة، وانصرف في الثانية بعد منتصف الليل. مشكلته تتلخص بكلمات قليلة: زوجة شقيق زوجته وقعت في حبه. رواية بيغنالي تستحق العرض، ولو بصورة تقريبية: «لاحظ أنهما يعيشان معنا منذ ست سنوات. وست سنوات ليست أربعة أيام. لن أدعي أنني لم أمعن النظر إلى إلفيرا قطّ من قبل. أنت لاحظت أنها امرأة جيدة. ولو أنك رأيتها وهي بملابس الاستحمام لسال لعابك. ولكن النظر شيء واستغلال الوضع شيء آخر. ما رأيك؟ لقد صارت زوجتي بدينة جداً، ثم إنها مستنزفة في أعمال المنزل وتربية الأولاد. ويمكنك أن تتصور أنها لم تعد تؤجج عواطفي بمجرد رؤيتها بعد خمسة عشر عاماً من الزواج. ثم إن حيضها يستمر نحو خمسة عشر يوماً، ولهذا صار من المستحيل أن تتطابق رغباتي مع استعدادها. والحقيقة أنني كثيراً ما أظل جائعاً وألتهم بعيني ربلتي ساقي إلفيرا. وثالثة الأثافي، أن هذه الأخيرة تتجول داخل البيت دائماً بالشورت. وما حدث هو أن المرأة أساءت فهم نظراتي.. أو أنها في الواقع أحسنت فهمها، ولكنني لم أكن أفكر في الوصول إلى هذا الحدّ. والحقيقة الخالصة هي أنني لو كنت أعرف أن إلفيرا معجبة بي، لما نظرت إليها، لأن الشيء الوحيد الذي لا أرغب فيه هو إشاعة التهاون

في بيتي، وهذا أمر مقدس بالنسبة إليّ على الدوام. في البدء كانت مجرد نظرات، وكنت أتظاهر بالبلاهة، ولكنها قبل أيام شبكت ساقيها بساقيّ، وكانت بالشورت، ولم أجد مفراً من أن أقول لها: «حاذري». فردت عليّ: «لا أريد أن أحاذر». وكانت تلك هي الضربة القاضية. بعد ذلك سألتني إن كنت أعمى، وقالت إنني أعرف جيداً أنها تهتم بي، إلخ، إلخ. ومع أنني كنت أعرف أنه لا جدوى من النصائح، فقد ذكّرتها بوجود زوجها، أي صهري، شقيق زوجتي، فهل تعرف بماذا ردت عليّ؟: «من؟ هذا العاجز؟» وكان هذا هو الأسوأ: فهي محقة، لأن فرانثيسكو هو عاجز فعلاً. وهذا ما برّد وساوسي. ما الذي ستفعله لو أنك كنت مكاني؟»

لو أنني كنت مكانه لما كانت لدي مشكلة: فأولاً، ما كنت لأتزوج من زوجته الحمقاء، وثانياً، ما كنت سأنجذب مطلقاً إلى لحم المجربة الأخرى المترهل. ولكنني لم أستطع أن أقول له إلا ما يقال بصورة عامة في مثل هذه الأحوال: «عليك بالحذر. وانتبه إلى أنك لن تستطيع التخلص منها فيما بعد. إذا كنت تريد أن تقامر بوضعك العائلي كله، فواصل ما أنت فيه؛ أما إذا كان هذا الوضع الأسري يهمك أكثر من أي شيء آخر، فعليك ألا تغامر».

غادرني وهو نادم وقلق ومتردد. ولكنني أظن مع ذلك أن جبين فرانثيسكو في خطر.

الأحد 14 نيسان (أبريل)

ركبت صباح اليوم حافلة أمنيبوس، ونزلت عند تقاطع شارعي اغراثيادا و19 نيسان. منذ سنوات لم أذهب إلى ذلك المكان. وقد راودني وهم أنني أزور مدينة مجهولة. لقد انتبهت الآن فقط إلى أني قد اعتدت العيش في شوارع بلا أشجار. وهي شوارع يمكن لها أن تكون باردة تماماً.

إحدى أعظم سعادات الحياة: رؤية الشمس تتسرب من بين أوراق الشجر.

كان صباح هذا اليوم صباحاً طيباً. لكنني نمت بعد الظهر قيلولة استمرت أربع ساعات، استيقظت بعدها معكر المزاج.

الثلاثاء 16 نيسان (أبريل)

لم أتقصَ بعد عما يجذبني إلى أبيَّانيدا. لقد أمعنت النظر إليها اليوم. إنها تتحرك بصورة جيدة، وتعقد شعرها بانسجام، وهناك على خديها زغب خفيف، مثل زغب الدراق. ما الذي تفعله مع خطيبها؟ أو... من الأفضل التساؤل، ما الذي يفعله خطيبها معها؟ أيلعبان لعبة الثنائي الوقور أم أنهما يمارسان التحمية مثلما يفعل أي ابن جيران؟ سؤال مهم بالنسبة لخادمكم: أهو الحسد؟

الأربعاء 17 نيسان (أبريل)

يقول استيبان إنني إذا كنت أرغب في إحالتي على التقاعد في نهاية

السنة، فعليَّ أن أبدأ بالإجراءات منذ الآن. وهو يقول إنه سيساعدني في تحريك المعاملة، ولكنها ستحتاج لبعض الوقت مع ذلك. والمساعدة في تحريكها قد تعني تقديم رشوة لأحدهم. لا يروقني ذلك. أعرفُ أن الآخر هو الأسوأ، ولكنني لن أكون بريئاً مع ذلك في مثل هذه الحال. نظرية استيبان تقول إنه لا بد من سلوك الأسلوب الذي يستدعيه الجو العام. فما هو شريف، بكل بساطة، في أحد الأجواء؛ يمكن له أن يكون، وببساطة أيضاً، أحمق في أجواء أخرى. إنه محق إلى حد ما، وكونه على حق يصيبني بخمود الهمة.

الخميس 18 نيسان (أبريل)

جاء المفتش. إنه شخص لطيف وذو شارب. لم يكن هناك بيننا من فكر في أنه سيكون متشدداً إلى هذا الحد. بدأ بطلب معلومات مفصلة عن الميزانية الأخيرة، وانتهى إلى المطالبة بتفصيل البنود المثبتة في لائحة الجرد البدائية. أمضيتُ الوقت في إحضار سجلات قديمة مهلهلة، منذ الصباح حتى آخر ساعات المساء. لقد كان المفتش رجلاً مهذباً: فهو يبتسم، ويطلب المعذرة، ويقول «ألف شكراً». إنه شخص فاتن. لماذا لا يموت ويخلصني؟ في أول الأمر كنت أجتر غضبي، وأرد عليه وأنا أضغط أسناني، وألعن أمه في ذهني. ثم انزاح الغضب بعد ذلك ليحل محله إحساس آخر. بدأت أشعر أنني عجوز مُسن. فهذه المعلومات الابتدائية التي ترجع إلى العام 1929، كنتُ قد كتبتها أنا نفسي؛ وهذه القيود المثبتة في مسودة دفتر اليومية، كتبتها أنا؛ وهذه التنقلات المدونة

بقلم رصاص فـي دفتر الصندوق، كتبتها أنا أيضاً. فـي ذلك الحين كنت ما أزال مجرد مساعد محاسب، ولكنهم كانوا يكلفونني بأعمال مهمة، على الرغم من أن الأمجاد اليسيرة كانت من نصيب الرئيس دائماً، تماماً مثلما أكسب أنا الآن مجدي اليسير من الأمور المهمة التي يقوم بها كل من مونيوث وروبليدو. أشعر إلى حدّ ما بأنني مثل هيرودوت المؤسسة، مسجل تاريخها ومدونه، والشاهد الباقي على قيد الحياة. خمس وعشرون سنة. خمس خمسات من السنوات. أو ربع قرن. لا... يبدو أنه من الأكثر لياقة أن أقول بسعة واسترسال: خمس وعشرون سنة. لكم تبدل خطي! فـي العام 1929، كان خطي متباعد الحروف، فالحرف «t» لم يكن ينحني بالاتجاه نفسه الذي تنحني به حروف «b» أو «d» أو «h»، فتبدو حروفـي وكأنها تتعرض لهبة الريح نفسها. وفـي العام 1939، كان النصف السفلي من حروف «f» و«g» و«j» يبدو كأنه نوع غير مستقر من هداب الأثواب المترددة، بلا شخصية ولا إرادة. فـي العام 1945، بدأت مرحلة الحروف الكبيرة، واستمتاعي بتنميقها بانحناءات واسعة، استعراضية وغير مجدية: فحرفا «M» و«H»، كانا أشبه بعنكبوتين كبيرين، تحيط بهما شبكة وكل شيء. أما اليوم، فقد عاد خطي ليصبح متوافقاً، منتظماً، منضبطاً، واضحاً. وهو ما يؤكد فقط أنني شخص متكلف، ذلك أنني أنا بالذات أصبحت معقداً، مشعثاً، فوضوياً، دنساً. وفجأة، عندما طلب مني المفتش معلومات تعود إلى عام 1930. تعرفت على خطي. إنه خطي فـي مرحلة خاصة من حياتي. فبالخط نفسه الذي كتبت به «تفصيل الرواتب المدفوعة للموظفين عن شهر آب (أغسطس) 1930»، بهذا الخط بالذات، وفـي

تلك السنة نفسها، كنت أكتب مرتين في الأسبوع: «عزيزتي إيزابيل»، لأن إيزابيل كانت تعيش آنذاك في ميلو، وكنت أكتب إليها كل ثلاثاء وجمعة بانتظام. هذا هو خطي في فترة الخطوبة إذن. ابتسمت وأنا أتجرجر عبر الذكريات، وابتسم المفتش كذلك. ثم طلب مني بعد ذلك سجلات أخرى مدونة بلونين.

السبت 20 نيسان (أبريل)

أيكون قد أصابني الجفاف؟ أعني الجفاف عاطفياً.

الاثنين 22 نيسان (أبريل)

اعترافات جديدة لسانتيني. وهي مرة أخرى عن أخته ذات السبعة عشر عاماً. قال لي إنها تأتي إلى غرفته عندما لا يكون أبواه في البيت، وترقص أمامه وهي شبه عارية. «لديها ملابس استحمام من هذا النوع المؤلف من قطعتين، أتعرفه حضرتك؟ حسن، عندما تأتي لترقص في غرفتي تخلع الجزء العلوي». «وما الذي تفعله أنت عندئذ؟». «أنا... أصير عصبياً». قلت له إذا كان الأمر يتوقف عند حدود إحساسه بالعصبية، فلا خطورة فيه. «ولكن، هذا سلوك غير أخلاقي يا سيدي»، قال ذلك وهو يهز معصمه الذي يحمل فيه سلسلة وميدالية. «وما هي الأسباب التي تقدمها لتبرير مجيئها إلى غرفتك والرقص أمامك بتلك الملابس القليلة؟». «لاحظ يا سيدي، إنها تقول إني لا أميل إلى النساء، وإنها ستُشفيني من ذلك». «وهل هذا صحيح؟». «حسن، حتى لو

كان صحيحاً... ليس لديها مسوغ لأن تفعل ذلك... من أجلها هي نفسها.. كما أعتقد». عندئذ انقدت لتوجيه السؤال الذي كان يبحث عنه منذ زمن: «وهل يعجبك الرجال؟» فهز السلسلة والميدالية مرة أخرى وقال: «ولكن هذا غير أخلاقي يا سيدي». وغمز لي غمزة تعتبر منتصف الطريق ما بين الشقاوة والقرف، ثم سألني قبل أن أتمكن من قول أي شيء: «أم أن حضرتك لا ترى ذلك؟». طردته من أمامي، وكلفته بعمل من النوع الذي يتعفن المرء فيه. لديه الآن عمل لا يتيح له أن يرفع رأسه خلال عشرة أيام على الأقل. هذا ما كان ينقصني: شاذٌّ في القسم. يبدو أنه شخص «مهووس». يا للتحفة. ومع ذلك، هناك أمر مؤكد تماماً: فأخته الصغرى فتاة خطرة.

الأربعاء 24 نيسان (أبريل)

اليوم، ومثل كل رابع وعشرين من نيسان، تعشينا معاً. مناسبة طيبة: إنه عيد ميلاد استيبان. أظن أننا نشعر جميعنا باضطرارنا إلى الظهور بمظهر المبتهجين. حتى استيبان نفسه لم يكن يبدو مهتماً بالمناسبة؛ لقد روى بعض النكات، وتحمل واقفاً معانقاتنا له.

الوجبة التي أعدتها بلانكا كانت ذروة الليلة. وهذا يوفر الجو لطيب المزاج بالطبع. فليس من العبث أبداً أن فروجاً مطهواً على الطريقة البرتغالية يجعلني أكثر تفاؤلاً مما لو كانت الوجبة عجة بطاطا. ألم يخطر ببال أي سوسيولوجيّ أن يقوم بدراسة متأنية حول تأثير الأكل على الثقافة والاقتصاد والسياسة في أروغواي؟ رباه، كم نأكل! في الفرح،

في الألم، في الخوف، في اليأس. إن حساسيتنا مطبخية في أساسها. وميلنا الغريزي كديمقراطيين يستند إلى مُسلَّمة قديمة: «لا بد لنا جميعنا من أن نأكل». ومتدينونا لا يهتمون إلا قليلاً بأن يغفر لهم الله خطاياهم، ولكنهم بالمقابل يتوسلون إليه جاثين والدموع في عيونهم بألا يحرمنا من خبزنا كفاف يومنا. وأنا واثق من أن خبزنا هذا ليس مجرد رمز: إنه خبز ألماني رغيفه من زنة كيلو غرام.

حسن، أكلنا جيداً، وشربنا نبيذاً أبيض ممتازاً، واحتفلنا باستيبان. ومع نهاية العشاء، بينما كنا نحرك القهوة بتمهل، أطلقت بلانكا خبراً: إن لديها خطيباً. أحاطها خيمي بنظرة غريبة، مبهمة (ما هو خيمي؟ من هو خيمي؟ ماذا يريد خيمي؟) أما استيبان فسألها بمرح عن اسم «تعيس الحظ». وأظن أنني شعرت بالسعادة وأبديت ذلك الشعور. سألتُها: «ومتى سنتعرف على هذا المحظوظ؟». «انظر يا بابا، دييغو لن يقوم بهذا النوع من الزيارات البروتوكولية كل يوم اثنين وأربعاء وجمعة. إننا نلتقي في أي مكان. في مركز المدينة، في بيته، أو هنا.» لا بد أننا قطبنا جبيننا عندما قالت «في بيته»، لأنها سارعت لتضيف: «إنه يعيش مع أمه، في شقة. وأنا لست خائفة». فسألها استيبان بشيء من الاستياء: «ألا تخرج أمه من البيت أبداً؟». فقالت له بلانكا: «لا تكن سمجاً»، ثم وجهت السؤال إليّ مباشرة: «بابا، أريد أن أعرف إذا كنت تثق بي. إنه الرأي الوحيد الذي يهمني. هل تثق بي؟» عندما يسألونني هكذا، بصورة مفاجئة، يكون لدي ردّ واحد فقط. وابنتي تعرفه: «طبعاً أثق بكِ». واكتفى استيبان بإبداء ريبته بنحنحة مدوية. بينما ظل خيمي صامتاً.

الجمعة 26 نيسان (أبريل)

دعانا الوكيل، نحن رؤساء الأقسام، إلى اجتماع آخر. لم يكن سواريث حاضراً، فهو مصاب بالزكام لحسن الحظ. وقد انتهز مارتينث الفرصة ليعلن بعض الحقائق. لقد كان جيداً. إنني أقدر فيه همته. أما أنا، فلا يهمني في الحقيقة أي شيء من المكتب والألقاب والمراتب والحماقات الأخرى. لم أشعر قطّ بأي ميل إلى المراتب الوظيفية. فشعاري السري هو: «كلما تدنت المرتبة، قلّت المسؤولية» والحقيقة أن المرء يعيش براحة أكبر إذا لم يكن في مرتبة وظيفية عالية. أما بالنسبة لمارتينث، فقد كان ما فعله جيداً. فالوحيدون القادرون، بين جميع رؤساء الأقسام، على التطلع إلى منصب معاون الوكيل (وهو منصب لا بد من شغله في نهاية السنة)، هم، حسب تسلسل الأقدمية: أنا، ومارتينث، وسواريث. مارتينث لا يخشاني، لأنه يعرف أنني سأتقاعد. ولكنه بالمقابل يخشى سواريث (وهو محق)، فمنذ بدأ هذا الأخير علاقته بابنة بالبيردي، صار تقدمه ملحوظاً. فقد انتقل من مساعد أمين صندوق إلى موظف درجة أولى، ثم إلى رئيس قسم الصارد قبل أقل من أربعة أشهر. ومارتينث يعلم جيداً أن الطريقة الوحيدة لحماية نفسه من سواريث هي في الحط من قيمته تماماً. والحقيقة أنه لا يحتاج في هذا المجال إلى عصر مخيلته كثيراً، لأن سواريث هو مصيبة فيما يتعلق بقيامة بأعماله، لأنه يعرف أنه يتمتع بوضع استثنائي، ويعرف أنه مكروه، ولكن وخز الضمير لم يكن من اختصاصه قطّ.

كان لا بد من رؤية وجه الوكيل عندما أفرغ مارتينث كل ما لديه من غيظ. فقد سأله مباشرة عما إذا «كان السيد الوكيل يعرف عضواً آخر

في مجلس الإدارة لديه ابنة جاهزة ترغب في ممارسة الحب مع أحد رؤساء الأقسام»، وأضاف أنه سيكون «تحت تصرفها». فسأله الوكيل عما يعنيه بهذا الكلام، وهل يريد أن يصرفوه من العمل. فأوضح له مارتينث: «أبداً. فما أبحث عنه هو الترقية. فقد علمت أن هذا هو الأسلوب المتبع». بدا الوكيل في وضع يرثى له. فهو يعرف أن مارتينث على حق، ولكنه يعرف أيضاً أنه لا يستطيع عمل أي شيء. لأنه لا يمكن المس بسواريث، في الوقت الراهن على الأقل.

الأحد 28 نسيان (أبريل)

لقد وصل آنيبال. ذهبتُ لاستقباله في المطار. إنه أكثر نحولاً وهرماً، وأشد إنهاكاً مما كان عليه. ولكنني سعدت على أي حال برؤيته من جديد. تحدثنا قليلاً جداً، لأن شقيقاته الثلاث كن حاضرات، ولم أكن على علاقة حسنة بأولئك الببغاوات. وقد اتفقت معه على اللقاء قريباً. سيتصل بي في المكتب لتحديد الموعد.

الاثنين 29 نيسان (أبريل)

كان القسم مقفراً اليوم. لقد تغيب ثلاثة موظفين. وخرج مونيوث إلى الشارع، وذهب روبليدو لمراجعة البطاقات مع موظفي قسم المبيعات. لحسن الحظ أن العمل قليل في مثل هذا الوقت من الشهر. فالجلبة تأتي عادة بعد اليوم الأول من كل شهر. انتهزت فرصة الوحدة وقلة العمل لأتحدث قليلاً مع أبيَّانيدا. فمنذ عدة أيام أراها منطفئة،

وشبه حزينة. أجل، فحزنها يمكن الإحساس به. إنه يُبرز ملامحها بحدة، ويجعل عينيها كئيبتين، ويجعلها أكثر شباباً مما هي عليه. تعجبني أبيَّانيدا. وأظن أني كتبت هذا في إحدى المرات. سألتها عما أصابها. فدنت من منضدتي، وابتسمت لي (إنها تبتسم جيداً)، ولم تقل شيئاً. فقلت لها: «منذ بضعة أيام أراك منطفئة، وشبه حزينة» ولكي يكون تعليقي مزوداً بكلمات أفكاري نفسها، أضفتُ: «أجل، فحزنك يمكن الإحساس به». ولم تأخذ الأمر على أنه مغازلة. بل بدت السعادة في عينيها الكئيبتين فقط، وقالت: «أنت طيب جداً يا سيد سانتومي». ولماذا «سيد سانتومي» هذه يا ربي؟ لقد كان للجملة الأولى من كلامها وقع طيب... أما «سيد سانتومي» فذكرتني بسنوات عمري التي تقترب من الخمسين، وأطفأت حماستي دون رحمة، ولم يبق لدي من القوة إلا ما يكفي لأن أسألها بنبرة أبوية غير موفقة: «أهو خطيبك؟» فامتلأت عينا أبييانيدا المسكينة بالدموع، وهزت رأسها بحركة بدت أنها تؤكد ما قلتُه، ثم تلعثمت بكلمة «آسفة»، وخرجت راكضة نحو الحمام. ظللتُ أمام أوراقي لبعض الوقت لا أعرف ماذا أفعل، وأظن أني كنت متأثراً. شعرت بهيجان داخلي لم أشعر بمثله منذ زمن. ولم يكن ذلك هو الإحساس العصبي العادي لشخص يرى امرأة تبكي أو توشك على البكاء. فهيجاني كان بسبب مني، ومني أنا فقط؛ إنه هيجان سببه وعيي لتأثري. وفجأة أضاء نورٌ ساطع ذهني: إنني لست جافاً إذاً! عندما رجعت أبيَّانيدا، بلا دموع وخجلة بعض الشيء، كنت ما أزال أستمتع بأنانية باكتشافي الجديد. لست جافاً. عندئذ تطلعتُ إليها بامتنان، ولأن مونيوث وروبليدو كانا قد رجعا، فقد انصرفنا كلانا، أنا وهي،

إلى العمل وكأننا نتصاع لاتفاق سري في ما بيننا.

الثلاثاء 30 نيسان (أبريل)

فلنر. ما الذي يحدث لي؟ إن رأسي مشغول بجملة واحدة، وكأنها شعار دعائي يتكرر بإلحاح: «لقد تشاجرت مع خطيبها إذن». ويلي ذلك انتظام بهيج في إيقاع تنفسي. في اليوم الذي اكتشفت فيه أنني لست جافاً، أشعر بالمقابل، وبصورة مثيرة للقلق، أنني أناني. لا بأس، وعلى الرغم من ذلك كله، أظن أن هذا يعني خطوة إلى الأمام.

الأربعاء الأول من أيار (مايو)

يوم عيد العمال الأكثر ضجراً في التاريخ العالمي. والأسوأ من ذلك كله أنه جاء يوماً رمادياً، ماطراً، وشتائياً مبكراً. الشوارع خالية من الناس، ومن حافلات الأومنيبوس، ومن كل شيء. وأنا في غرفتي، على سريري الضيق الذي يتسع لشخص واحد، وسط هذا الصمت القاتم والثقيل للساعة السابعة والنصف صباحاً. ليت الساعة تكون التاسعة وأكون وراء مكتبي، أتطلع بين الفينة والأخرى إلى يساري لأجد ذلك الوجه الحزين، المركز، والأعزل.

الخميس 2 أيار (مايو)

لم أرغب في تبادل الحديث مع أبييّانيدا. أولاً، لأني لا أريد أن أخيفها؛ وثانياً لأني لا أعرف في الواقع ماذا أقول لها. عليّ قبل ذلك

أن أعرف بدقة ما الذي يحدث لي. فمن غير الممكن، وأنا في هذه السن، أن تظهر فجأة هذه الفتاة، وهي ليست باهرة الجمال، وتتحول إلى مركز اهتمامي. صحيح أنني صرت عصبياً مثل مراهق؛ ولكنني عندما أنظر إلى بشرتي التي بدأت تتهدل، وعندما أرى التجاعيد التي تحيط بعيني، وهذه الأوردة المحتقنة عند كاحليّ، وعندما أشعر في الصباح بسعالي الشيخوخي، وهي عدة سعلات ضرورية لكي تبدأ قصباتي الهوائية يومها، فإنني أفقد إحساسي بالمراهقة عندئذ، وأشعر أنني رجل مضحك.

لقد توقفت آلية مشاعري كلها منذ عشرين سنة، عندما ماتت إيزابيل. فقد بدأ الأمر بإحساس بالألم، ثم بعدم المبالاة، وبعد ذلك الحرية، وأخيراً الضجر. ضجر طويل ومقفر وثابت. آه، وخلال جميع تلك المراحل، ظل الجنس فعالاً. ولكن تقنيته صارت مثل نقر الدجاج: فاليوم «برنامج» في الأومنيبوس، وغداً المحاسبة التي جاءت للتفتيش، وبعده أمينة الصندوق في شركة إدغاردو لاماس المغفلة. ولا وجود للقاء ثانٍ مع المرأة نفسها على الإطلاق. إن ذلك أشبه بدفاع غير واعٍ ضد الالتزام وضد انتظام مستقبلي في علاقة طبيعية ذات أساس دائم. لماذا كل ذلك؟ وعم كنت أدافع؟ أكنت أدافع عن صورة إيزابيل؟ لا أظن ذلك. فأنا لا أشعر بأنني ضحية مثل هذا الالتزام المأساوي، كما أنني، من جهة أخرى، لا أقبل به أبداً. أكنت أدافع عن حريتي؟ هذا ممكن. فحريتي هي التسمية الأخرى لحالة الركون التي أعيشها. ثم إن الحديث عن مضاجعة امرأة اليوم، وأخرى غيرها غداً؛ ليس إلا كلاماً يقال. فالأمر يقتصر على مرة واحدة في الأسبوع تقريباً. أي ما تقتضيه

الحاجة الطبيعية فقط؛ مثل الطعام، والاستحمام، ومثل التغوط. أما مع إيزابيل فكان الأمر مختلفاً.. كان هناك نوع من المشاركة؛ وعندما كنا نمارس الحب، كان يبدو لي أن كل عظمة صلبة فـي جسدي تلتقي بعظمة لينة فـي جسدها، وأن كل حركة مني يقابلها، وبصورة حسابية، صدى منها. كان كل منا يتمم الآخر، مثل اعتياد المرء على الرقص مع شخص معين.. تكون استجابة كل منهما، لكل حركة، محدودة فـي أول الأمر؛ ثم تصبح الاستجابة بعد ذلك للفكرة التي ترد إلى ذهن أحدهما. فأحدهما فقط هو الذي يفكر، لكن الجسدين يصنعان معاً التشكيل المنشود.

السبت 4 أيار (مايو)

اتصل بي آنيبال هاتفـياً. سنلتقي غداً.

أبيّانيدا تغيبت عن المكتب.

خيمي طلب مني نقوداً. لم يفعل شيئاً كهذا من قبل. سألته لماذا يحتاج إلى النقود. «لا أستطيع، ولا أريد أن أخبرك بذلك. إذا كنت ترغب فسلّفني المبلغ، وإذا كنت لا ترغب فاحتفظ بالنقود لنفسك. سيان عندي». «سيان؟». «نعم، سيان، لأنه إذا كان عليّ أن أفتح أمامك حياتي الخاصة، وقلبي، وأحشائي.. إلخ، كثمن مشين لذلك، فإنني أفضل اقتراض النقود من أي مكان آخر، حيث يتقاضون مني فائدة وحسب». أعطيته النقود التي طلبها بالطبع. ولكن، ما سبب كل ذلك العنف؟ فمجرد سؤال عابر لا يعني ثمناً مشيناً. وأسوأ ما فـي

الأمر، وأكثر ما يغيظني هو أنني أوجه مثل هذه الأسئلة عموماً وأنا ساه، فآخر ما أبتغيه هو التدخل في شؤون الآخرين الخاصة، وخاصة شؤون أبنائي. لكن خيمي، وكذلك استيبان، لديهما استعداد مسبق للدخول في خلاف معي. لقد أصبحا يميلان إلى الخصام بصورة رهيبة. فليتدبرا أمورهما كما يريدان إذن.

الأحد 5 أيار (مايو)

لم يعد آنيبال هو نفسه. لقد راودني على الدوام إحساس غامض بأنه سيظل شاباً إلى الأبد. ولكن الأبد قد حان كما يبدو، لأني لم أجده شاباً. لقد انحط جسدياً (إنه نحيل، عظامه بارزة أكثر من السابق، وملابسه فضفاضة على جسده، ويبدو كما لو أن شعرات كثيرة قد استلت من شاربه؛ ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد. فهناك نبرة صوته الذي بدا لي أكثر كآبة من الصوت الذي أذكره؛ وحتى حركة يديه التي فقدت حيويتها؛ ونظرته التي بدت لي خامدة للوهلة الأولى، ولكنني ما لبثت أن أدركت أنها خيبة الأمل فقط. حتى موضوعات أحاديثه التي كانت شيقة فيما مضى، هي الآن رمادية بصورة غير معقولة. كل شيء يتلخص في نتيجة واحدة: لقد فقد آنيبال متعته في العيش.

لم يقل تقريباً أي شيء عن نفسه، أعني أنه تكلم عن نفسه بصورة عابرة فقط. يبدو أنه قد جمع بعض المال. وهو يريد أن يستقر هنا ويقيم مشروعاً تجارياً، ولكنه لم يحدد الفرع الذي سيعمل فيه بعد. وهناك شيء بقي فيه كالسابق، فهو ما زال يهتم بالسياسة.

ليس هذا ميلي الأساسي. وقد انتبهت إلى ذلك عندما بدأ يوجه إليّ أسئلة متزايدة الحدة، وكأنه يبحث عن تفسيرات لأمور لا يتوصل إلى فهمها. وقد انتبهت إلى أنها الموضوعات التافهة التي يتداولها أحدنا، أحياناً، في أحاديث المكتب أو المقهى؛ أو التي يفكر فيها، بصورة مبهمة وعارضة، وهو يقرأ الجريدة، أثناء تناول الفطور. وانتبهت إلى أنني لا أملك رأياً حقيقياً محدداً حول هذه الموضوعات. لقد أجبرني آنيبال على الخوض فيها، وأظن أنني رحت أترسخ مع تتالي الإجابات. سألني إن كنت أرى أن الأمور قد تحسنت أم ساءت عما كانت عليه قبل خمس سنوات، عندما غادر البلاد. وردت خلاياي كلها بالإجماع: «ساءت». ولكن، كان علي أن أوضح السبب فيما بعد. أُف! يا للمهمة الشاقة.

فالرشى كانت موجودة دوماً في الواقع، وكذلك المراتب الوظيفية، والإدارات وما شابه ذلك. ما هو الأسوأ إذن؟ وبعد أن عصرت دماغي كثيراً، توصلتُ إلى القناعة بأن الأسوأ هو الإذعان. فالمتمردون تحولوا إلى أشباه متمردين، وأشباه المتمردين إلى مذعنين. وأظن أن الفئتين اللتين حققتا تقدماً كبيراً خلال الفترة الأخيرة في مونتيفيديو المنيرة هما الشواذ والمذعنون. «لا يمكن عمل أي شيء»، هذا ما يقوله الناس عادة. في السابق، كان من يقدمون الرشى هم من يريدون الحصول على شيء غير مشروع. ولكنه زمن انقضى. فمن يريد الحصول على شيء مشروع الآن، عليه أن يقدم رشوة. وهذا يعني منتهى التسيب الكامل.

ولكن الإذعان ليس هو الحقيقة كلها. ففي البدء كان الإذعان؛

ثم تلاه انعدام الضمير؛ وتبع ذلك، فيما بعد، التواطؤ الجماعي. لقد كان مذعناً سابقاً ذاك الذي أطلق العبارة الشهيرة: «إذا كان الذين في الأعلى يبتلعون، فأنا أيضاً سأبتلع» والمذعن السابق لديه بالطبع الذريعة التي تبرر تخليه عن النزاهة: إنها الطريقة الوحيد للحيلولة دون تفوق الآخرين عليه. فهو يقول إنه وجد نفسه مضطراً إلى الدخول في اللعبة، لأن قيمة دخلة كانت تتضاءل، ولأن السبل السوية مسدودة أمامه. وهو لا يزال يحمل حقداً ثأرياً ونابضاً على أولئك الرواد الذين دفعوه للسير في هذا الطريق. وربما يكون، في نهاية المطاف، أكبر المنافقين، لأنه لا يعمل شيئاً للإفلات من ذلك الوضع. وربما يكون أكبر اللصوص أيضاً، لأنه يعرف جيداً أنه لا أحد يموت بسبب النزاهة.

المسألة باختصار أنني غير معتاد على التفكير في كل هذه الأمور! لقد ذهب آنيبال عند الفجر، وبقيت أنا في حالة قلق شديد، لم أشأ معها التفكير بأبيّانيدا.

الثلاثاء 7 أيار (مايو)

هنالك طريقتان للتقرب من أبيانيدا: أ) الصراحة المباشرة، بأن أقول لها تقريباً: «أنت تعجبينني، ودعينا نرى ما يمكن أن يحدث»، ب) الحكمة، بأن أقول لها تقريباً: «انظري يا صبية، لدي تجربتي، ويمكن لي أن أكون بمقام أبيك، فاستمعي إلى نصائحي»، وربما كان الأسلوب الثاني هو المناسب لي، حتى ولو بدا ذلك غير قابل للتصديق. لأنني في الأسلوب الأول سأجازف كثيراً بالرغم من أن كل الأمور ما زالت غير

ناضجة. أظن أنها ترى فـيَّ مديراً لطيفاً إلى حدّ ما، ولا شيء أكثر. ومع ذلك، فهي ليست صغيرة جداً. فأربعة وعشرون عاماً ليست أربعة عشرة عاماً. إنها إحدى سنوات العمر التي يفضلن فـيها الرجال الناضجين. ولكن خطيبها كان شاباً مع ذلك. حسن، لقد انتهت علاقتها به. وربما ستدفعها ردة الفعل الآن إلى المضي فـي الاتجاه المعاكس. وفـي الاتجاه المعاكس قد أكون أنا بالذات: سيد ناضج، مجرب، أشيب، رصين، تسعة وأربعون عاماً، دون أمراض ذات شأن، راتب جيد. ولن أذكر الأبناء الثلاثة فـي بطاقة التعريف؛ فهذا غير مشجع. ولكنها تعرف على أي حال أن لدي أبناء.

والآن، حسن (ولنقل ذلك بتعبير امرأة الأحياء البدينة والفضولية) ما هي نواياي؟ الحقيقة أنني لم أحسم أمري للتفكير فـي علاقة دائمة، من نوع «إلى أن يفرق الموت بيننا». (ما إن كتبت كلمة «موت» حتى ظهرت لي إيزابيل. ولكن إيزابيل كانت شيئاً آخر. أظن أن اهتمامي بالجانب الجنسي فـي علاقتي بأبييّانيدا أقل شأناً، أو ربما أن الجنس فـي التاسعة والأربعين يصبح أقل أهمية مما كان عليه فـي الثامنة والعشرين)، ولكنني لم أحسم أمري بالبقاء دون أبييّانيدا كذلك. أما الوضع المثالي الذي توصلت إليه، فسيكون بالحفاظ على العلاقة بأبييّانيدا دون الاضطرار إلى جعلها علاقة دائمة. ولكن هذا كثير. ومع ذلك، لا بأس من المحاولة.

لا يمكنني أن أعرف شيئاً قبل أن أتحدث إليها. فكل شيء مجرد حكايات أنسجها لنفسي. صحيح أنني، بعد هذا العمر، أصبحت أمل المواعيد السرية، واللقاءات فـي الشقق المفروشة؛ لأنها تتم دائماً فـي جو

مخلخل، وبإحساس بالآنية، وبأن الأمر مستعجل، مما يفسد أي نوع من الحوار يمكن أن أقيمه مع أي نوع من النساء. لأن أهم شيء في نظري حتى لحظة مضاجعتها، ولتكن من تكون، هو مضاجعتها؛ وبعد الانتهاء من ممارسة الحب، يكون أهم شيء هو انصرافنا، عودة كل منا إلى سريره الخاص، ونسيان أحدنا الآخر إلى الأبد. وبعد سنوات وسنوات من هذه اللعبة، لست أذكر حواراً واحداً مشجعاً، ولا عبارة واحدة مؤثرة (مني أو منهن)، عبارة من تلك التي تعود للظهور فيما بعد، في لحظة تشوش، لنحسم بها تردداً ما، ونقرر اتخاذ موقف يحتاج إلى جرعة دنيا من الشجاعة. حسن، هذا غير صحيح تماماً. ففي شقة مفروشة في شارع ريفيرا، قبل نحو ست أو سبع سنوات، قالت لي امرأة هذه العبارة الشهيرة: «أنت تمارس الحب بوجه موظف».

الأربعاء 8 أيار (مايو)

بيغنالي مرة أخرى. إنه ينتظرني عند مخرج المكتب. ولم أجد مفراً من الموافقة على دعوته لتناول فنجان من القهوة، كمقدمة لا بد منها لساعة من البوح بالأسرار.

إنه متألق. يبدو أن زوجة شقيق امرأته قد نجحت في هجومها الغرامي، وإذا صح ذلك فهو في أوج غرامياته الآن. «لقد تمادتْ معي بصورة أشبه بالكذب»، قال ذلك وهو يداعب ربطة عنق شبابية جداً، ذات لون فاتح ومزركشة بمعينات صغيرة زرقاء، مما يعني في الحقيقة تطوراً بارزاً بالمقارنة مع ربطات العنق المجعدة ذات اللون البني القاتم

غير المحدد التي كان يستخدمها في عهده كزوج فقط، زوج وفي.
«إنها امرأة بكل معنى الكلمة يا صاحبي... ولديها جوع مزمن».

إنني أتخيل جوع إلفيرا البدينة المزمن، ولا أريد مجرد التفكير بما ستؤول إليه حال بيغنالي المسكين بعد ستة أشهر. ولكنه يشع الآن سعادة من جميع مسامات جسده. أعتقد، وبكل صراحة، أن ما أغواها فيه هو شكله كذكر. وهو لم ينتبه إلى أنها في «جوعها المزمن»، لا ترى فيه (ولا يمكن لزوجها فرانتيسكو المسكين أن يُكذّب، بكل تأكيد، ملامح وجهه كديك مخصي) إلا الرجل المقبول إلى حدّ ما، والإمكانية المتاحة للتغيير.

«وزوجتك؟»، سألتُه بمزاج مترصد. فقال: «إنها مطمئنة وحسب. أتدري ما قالته لي قبل أيام؟ قالت إن مزاجي قد تحسن كثيراً في الآونة الأخيرة. وهي محقة في ذلك. فحتى كبدي صار يقوم بوظائفه جيداً».

الخميس 9 أيار (مايو)

لا يمكنني أن أتحدث إليها في المكتب. يجب أن أفعل ذلك في مكان آخر. إنني أرصد الطريق الذي تسلكه. غالباً ما تبقى في مركز المدينة لتناول وجبة الغداء. وهي تأكل بصحبة صديقة لها، فتاة بدينة تعمل في شركة «لندن باريس». ولكنهما تفترقان بعد ذلك، وتذهب هي لتتناول شيئاً في المقهى الذي عند تقاطع الشارع الخامس والعشرين وشارع مسيونيس. يجب أن يكون اللقاء مصادفة، فهذا أفضل.

الجمعة 10 أيار (مايو)

لقد تعرفت على ديغو، صهر المستقبل. انطباعي الأول عنه:

إنه يعجبني. في نظرته تصميم، وهو يتكلم بنوع من الاعتداد بالنفس، وهو اعتداد (كما بدا لي) غير مجاني، أعني أنه يستند إلى شيء في ذاته. لقد عاملني باحترام، ولكن دون أن يتملقني. هناك شيء يعجبني في كل تصرفاته، وأظنه أرضى غروري أيضاً. لقد كان مستعداً تماماً للتعامل معي، وهذا أمر لا شك فيه. ولكن كيف يكون لديه هذا الاستعداد المسبق من مصدر آخر غير أحاديثه مع بلانكا؟ سأكون سعيداً حقاً، في هذا المجال على الأقل، إذا ما عرفت أن لدى ابنتي انطباع جيد عني. هذا غريب، فأنا لا أهتم مثلاً بانطباع استيبان عني. ولكنني أهتم بالمقابل اهتماماً كبيراً، بانطباع خيمي وبلانكا. وربما كان السبب الذي أطلتُ البحث عنه يتلخص في أنني، بالرغم من أن الثلاثة يمثلون الكثير بالنسبة إليّ، وبالرغم من أنني أرى في الثلاثة انعكاساً لكثير من دوافعي وإحباطاتي، ألاحظ في استيبان فضلاً عن ذلك نوعاً من العداوة الخفية، شكلاً من أشكال الكراهية التي لا يتجرأ على البوح بها لنفسه. لست أدري من كان البادئ، أهو صدوده أم صدودي، ولكن الأمر المؤكد هو أنني لا أحبه مثلما أحب أخويه الآخرين، فقد كنت أشعر على الدوام بأنني بعيد عن هذا الابن الذي لا يستقر في البيت، والذي يكلمني وكأنه مجبر على ذلك كواجب، ويجعلنا نشعر جميعنا بأننا «غرباء» في «أسرته» المؤلفة منه، ومنه وحده. خيمي لا يشعر كذلك.يميل كثير إلى التواصل معي، ولكني لا ألمس منه ذلك النوع من الصدود المندفع. إن خيمي، بطبيعته، شخص متوحد لا سبيل إلى

إصلاحه، والآخرون، جميع الآخرين، يأتون في نظره ليدفعوا ثمن الأطباق المهشمة.

أعود ثانية إلى دييغو: يسعدني أنه شاب ذو شخصية متميزة، فهذا سيكون جيداً بالنسبة لبلانكا. إنه يصغرها بسنة واحدة، ولكنه يبدو أكبر منها بأربع أو خمس سنوات. المهم أن تشعر معه بالحماية. وبلانكا من جهتها وفية ومخلصة، وهي لن تخيب ظنه. إنني أحب خروجهما معاً وحيدين، دون ابنة عم أو أخت صغيرة ترافقهما. فالزمالة مرحلة جميلة من مراحل الحياة، لا يمكن الاستعاضة عنها، ولا يمكن استعادتها في ما بعد. وهذا ما لن أغفره أبداً لوالدة إيزابيل؛ فقد كانت، خلال فترة خطوبتنا، دائمة الالتصاق بنا مثل رقعة. كانت تراقبنا بصرامة وغيرة تدفع أحدنا، حتى ولو كان في ذروة الطهارة، إلى استحضار كافة الأفكار الخاطئة التي في متناول يده. وحتى في تلك المناسبات التي كانت تتغيب فيها ـ وهي نادرة في الحقيقة ـ، لم نكن نشعر بأننا وحيدان؛ فقد كانت تسيطر علينا القناعة بأن هناك نوعاً من الشبح المتلفع بشال يرصد كل حركاتنا. فإذا تبادلنا القبل يوماً، فعلنا ذلك بتوتر، وبتيقظ لالتقاط أي إشارة لظهورها في أي ركن من أركان غرفة المعيشة الأربعة، حتى إن القبلة كانت تأتي دائماً كملامسة عابرة تماماً، فيها شيء قليل من الجنس، وشيء أقل من الحنان، ولكن فيها بالمقابل الكثير من الخوف، من التماس الكهربائي، من تمزق الأعصاب. إنها لاتزال على قيد الحياة؛ وقد رأيتها في مساء أحد الأيام الماضية في شارع ساراندي، منتصبة القامة، حازمة، صلبة، وهي ترافق في نوبة حراسة أصغر بناتها الست وشاباً عاثر الحظ، له وجه خطيب. ولم يكن

العريس المرشح والفتاة يمسك أحدهما بذراع الآخر، بل كان بينهما فاصل يبلغ اتساعه نحو عشرين سنتمتراً. من الواضح أن العجوز لم تتنازل بعد عن شعارها الشهير: «تأبط الذراع إلى ما بعد الزواج».

ولكنني ابتعدت ثانية عن موضوع ديغو. يقول إنه يعمل في مكتب، وإنه عمل مؤقت فقط. «لا أستطيع الرضا بمستقبل أرى فيه نفسي على الدوام هناك، محبوساً، أستنشق رائحة الشيخوخة فوق الدفاتر والسجلات. إنني واثق من أنني سأصبح، وسأفعل، شيئاً آخر». كانت هناك حقبة من حياتي كنت أفكر فيها بهذه الطريقة أيضاً. ومع ذلك، مع ذلك... يبدو أن هذا الشاب أكثر حزماً مني.

السبت 11 أيار (مايو)

في إحدى المرات سمعتها تقول إنها تلتقي في معظم أيام السبت ظهراً مع ابنة عم لها عند تقاطع الشارع الثامن عشر وشارع باراغواي. يجب أن أكلمها. انتظرتُ ساعة في ذلك التقاطع، ولكنها لم تحضر. لا أريد الاتفاق معها على موعد. يجب أن يبدو الأمر مصادفة.

الأحد 12 أيار (مايو)

سمعتها تقول كذلك إنها تذهب في أيام الآحاد إلى المعرض. يجب أن أكلمها، ولهذا ذهبتُ إلى المعرض. وخيل إليّ مرتين أو ثلاث مرات أنني وجدتها. فقد كنت أرى، فجأة، في الزحام، ووسط الرؤوس الكثيرة، جزءاً من عنق أو تسريحة أو كتف يشبه

عنقها أو تسريحتها أو كتفها، ولكن ما إن أرى الشخص كاملاً حتى يتكامل ذلك الجزء الذي رأيته مع صاحبه ويفقد تشابهه بها. وكنت أرى أحياناً امرأة من الخلف، لها مثل مشيتها، ومثل مؤخرتها، ومثل رقبتها. ولكن ما إن تلتفت حتى يصبح التشابه مستحيلاً. الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يكون خادعاً (كملمح منفصل) هو النظرة. ولكنني لم أجد عينيها في أي جهة. ومع ذلك (وهذا خطر لي الآن فقط)، فإنني لا أعرف كنه عينيها، لا أعرف لونهما. رجعت منهوكاً ومضطرباً ومكدراً وضجراً. ولكن هناك كلمة واحدة أكثر إيجازاً وصواباً: رجعت وحيداً.

الاثنين 13 أيار (مايو)

إنهما خضراوان. وهما في بعض الأحيان رماديتان. كنت أنظر إليها، وربما فعلتُ ذلك بتدقيق شديد، فسألتني عندئذ: «ماذا فيَّ يا سيدي؟». كم هو مضحك قولها لي «يا سيدي». «على وجهك لطخة سواد»، قلتُ كجبان. فمرت بسبابتها على خدها (حركة تقليدية من حركاتها تشد بها عينها إلى أسفل، حركة لا تناسبها) وعادت تسأل: «والآن؟». «صرتِ الآن كاملة بلا أية شائبة» أجبتها بقدر أقل من الجبن. فاحمر وجهها، واستطعتُ أن أضيف: «لم تعودي الآن بلا أية شائبة وحسب، بل باهرة الجمال». أظن أنها قد انتبهت. أظن أنها قد أدركت الآن أن ثمة ما يحدث. أم أنها فسرت قولي كعبارة تملق أبوية؟ أشعر بالقرف من الإحساس بأنني أبويّ.

الأربعاء 15 أيار (مايو)

ذهبت إلى مقهى تقاطع الشارع الخامس والعشرين وشارع مسيونيس. وظللتُ هناك منذ الساعة الثانية عشرة والنصف حتى الثانية. قمت بتجربة: فكرت «يجب أن أتحدث إليها، وعليها بالتالي أن تحضر». بدأت «أراها» في كل امرأة تقترب آتية من الشارع الخامس والعشرين. ولم أعد أهتم الآن بعدم رؤيتي في هذه المرأة أو تلك أي تفصيل يذكرني بها. فقد كنت «أراها». إنها لعبة سحرية (أو بلهاء، وكل شيء يعتمد على الزاوية التي نرى الأمر منها). وعندما تصبح المرأة التي أتطلع إليها على بعد عدة خطوات قليلة، أقوم بتراجع ذهني مباغت وأتوقف عن رؤيتها، فأستبدل رؤية الصورة المنشودة بالواقع غير المرغوب. بقيتُ على تلك الحال إلى أن تحققت المعجزة فجأة. فقد ظهرت فتاة عند الناصية، ورأيت فيها على الفور أبيّانيدا، صورة أبيّانيدا. ولكنني عندما أردت القيام بالتراجع الذهني المعتاد، وجدت أن الواقع هو أبيّانيدا أيضاً. أي طفرة يا رب! أحسست وكأن قلبي قد استقر في صدغيّ. كانت على بعد خطوتين، قريبة من النافذة التي أجلس بجوارها. قلت لها: «كيف الحال؟ ماذا تفعلين هنا؟». كانت نبرة صوتي طبيعية، وشبه روتينية، نظرتْ إليّ مذهولة، وأظن أن ذهولها كان بهيجاً. «آه، سيد سانتومي، لقد أخفتني.» ولم أقم إلا بإيماءة متهاونة من يدي اليمنى، أرفقتها بدعوة لا تفخيم فيها: «قهوة؟». «لا، لا أستطيع، يا للأسف. والدي ينتظرني في المصرف لإجراء معاملة هناك». إنها القهوة الثانية التي ترفض دعوتي إليها، ولكنها قالت هذه المرة «يا للأسف». لو لم تقل ذلك لكنت قذفتُ، على ما أعتقد، كأساً إلى الأرض، أو كنت

قضمت شفتي السفلى، أو غرست أظفاري في رؤوس أصابعي. لا، حماقات، مجرد مبالغات؛ ما كنت لأفعل شيئاً. باختصار، كنت سأظل محبطاً وخاوياً، بساقين متقاطعتين، وأسنان مطبقة بشدة، وبألم في عيني من شدة التحديق بالفنجان نفسه. ولكنها قالت «يا للأسف»، بل إنها سألتني كذلك، قبل أن تنصرف: «هل تكون حضرتك هنا دائماً في مثل هذه الساعة؟». وقلت كاذباً: «بالطبع». «فلنؤجل الدعوة إذن إلى يوم آخر». فقلتُ بإصرار: «حسن. لا تنسي ذلك». وانصرفتْ. بعد نحو خمس دقائق، جاء النادل، وأحضر لي فنجان قهوة آخر، وقال وهو ينظر إلى الشارع: «يا لجمال الشمس اليوم. أليس كذلك؟ إن المرء يشعر أنه إنسان جديد. وتراود أحدنا الرغبة في الغناء وكل شيء» عندئذ فقط سمعت صوتي. فدون وعي مني، ومثل غراموفون عتيق يضعون فيه أسطوانة وينسونه، كنت قد وصلت، دون أن أشعر، إلى المقطع الثاني من أغنية «رايتي».

الخميس 16 أيار (أيار)

«أراهن أنك لن تعرف مع من التقيت؟» هكذا جاءني صوت بيغنالي في الهاتف. ولا بد أن صمتي كان استفزازياً لدرجة أنه لم ينتظر ولو ثلاث ثوان ليقدم لي جواب الأحجية: «مع اسكايولا، لاحظ ذلك». ولاحظتُ ذلك. إسكايولا؟ غريب أن أعود لسماع هذا الاسم، إنه كنية قديمة، من ذلك النوع الذي لم يعد مستخدماً. «غير ممكن، وكيف حاله؟».

«لقد صار دلفيناً، وزنه 98 كيلوغراماً». حسن. لقد علم إسكايولا من بيغنالي أن هذا الأخير قد وجدني، وتم ـ بالطبع ـ تحديد عشاء في البرنامج.

إسكايولا هو أيضاً من رفاق مرحلة العيش في شارع براندثين. ولكن هذا شخص ما زلت أذكره. كان فتى نحيلاً، طويلاً، عصبياً. وكان لديه تعليق ساخر سريع على أي شيء، وقد كان حديثه ممتعاً بصورة عامة. ففي مقهى الغاليسي ألباريث، كان إسكايولا هو النجم. ومما لا شك فيه أنه كان لدينا جميعنا استعداد مسبق للضحك؛ لأن إسكايولا كان يقول أي شيء (ليس مهماً أن يكون فيه ظرف) فننفجر ضاحكين. أذكر أننا كنا نضحك، ونحن نمسك بطوننا، لمجرد أنه صرخ. وأعتقد أن السر يكمن في أنه يمارس الظرافة بكل جدية: شخصية من طراز بوستير كياتون. لا بأس في اللقاء به ثانية.

الجمعة 17 أيار (مايو)

أخيراً وقعت الواقعة. كنتُ جالساً إلى جوار النافذة في المقهى. ولم أكن أنتظر شيئاً هذه المرة، لم أكن أرصد وأراقب. أظن أنني كنت أحسب أرقاماً، في محاولة غير مجدية للموازنة بين نفقات ودخل شهر أيار الهادئ والخريفي، والمغرق بالديون حقاً. رفعتُ عيني ووجدتها هناك. مثل رؤيا أو شبح، أو ببساطة ـ وهو الأفضل بكثير ـ مثل أبيّانيدا. قالت: «جئت لأطالب بقهوة اليوم الفائت». نهضتُ واقفاً، فتعثرتُ بالكرسي، وانزلقت ملعقة قهوتي عن المنضدة مصدرة ضجة

بدت كأنها صادرة عن مغرفة. تطلع إلينا النُدل. وجلست هي على الكرسي. فالتقطتُ المعلقة عن الأرض، ولكن قبل أن أستطيع الجلوس، علقت سترتي في تلك الحافة اللعينة التي توجد في مسند كل كرسي. ولم أكن قد وضعت بالاعتبار في تصوري العام لهذا اللقاء المنشود، مشهداً بمثل هذه الحيوية. قالت وهي تضحك بانطلاق: «يبدو أنني قد أخفتك». فاعترفت لها: «حسن، بعض الشيء». وقد أنقذني ذلك الاعتراف. فقد استعدنا وضعنا الطبيعي. تحدثنا عن المكتب، وعن بعض الزملاء، ورويت لها عدة نوادر من الأزمنة الماضية. وكانت تضحك. إنها ترتدي سترة خضراء قاتمة فوق بلوزة بيضاء. وشعرها غير مُسرّح، ولكن في نصفه الأيمن فقط، وكأن ريحاً قد صفعت هذا الجانب وحده. وأعجبني أن مزاجها المرح يصل إلى حد السخرية من نفسها. عندئذ قلت لها: «أتعرفين أنك السبب في إحدى أكبر الأزمات في حياتي؟» فسألتني: «أهي أزمة اقتصادية؟»، وكانت لا تزال تضحك. وأجبتها: «لا، إنها عاطفية»، فانتقلت إلى الجد وقالت: «يا للهول»، وانتظرتْ مني أن أكمل. فأكملتُ: «انظري يا أبييّانيدا، من المحتمل جداً أن يبدو لك ما سأقوله ضرباً من الجنون. فإذا كان كذلك، فأخبريني فقط. لكنني لا أريد أن أدخل في عملية لف ودوران: أظن أنني مغرم بك» ثم توقفتُ هنيهة. لم تنطق بكلمة واحدة. كانت تنظر بثبات إلى حقيبتها. وأظن أنها احمرت حياء إلى حدّ ما. ولم أحاول أن أحدد إذا ما كان ذلك الحياء هو حياء التألق أم الخجل. وتابعتُ قائلاً: «في مثل سني وسنك، يقتضي المنطق أن أطبق فمي وأصمت؛ ولكنني أظن على أي حال أن ما قلته هو تكريم أدين به لك. لن أطالب بشيء. إذا ما

قلتِ لي اليوم أو غداً أو في أي وقت: «كفى»، فلن يكون هناك مزيد من الحديث في هذا الموضوع، وسنبقى صديقين. لا تخافي على عملك في المكتب، على الطمأنينة في عملك؛ فأنا أُحسن التصرف، لا تقلقي». وانتظرتُ مرة أخرى. كانت هناك أمامي عزلاء، هذا يعني أنني كنت أدافع عنها بنفسي ضد نفسي. أي شيء ستقوله، أي موقف ستتخذه سيعني: «هذا هو لون مستقبلك». لم أعد قادراً على الانتظار، فقلت لها: «ماذا؟» وأجبرتُ نفسي على الابتسام قليلاً، وأضفت بصوت مرتعش لا يتناسب مع الدعابة التي كنت أود قولها: «هل لديك شيء تودين الاعتراف به؟» توقفتْ عن النظر إلى محفظتها. وعندما رفعتْ عينيها، أحسستُ أن اللحظة الأسوأ قد انقضت. قالت: «كنت أعرف ذلك. ولهذا جئت لتناول القهوة».

السبت 18 أيار (مايو)

توقفتُ أمس عن الكتابة بعد أن سجلت ما قالته لي. لم أواصل أكثر. لم أواصل لأني أردتُ أن ينتهي اليوم، اليوم الذي أتولى كتابته، ببارقة الأمل تلك. لم تقل «كفى»، ولم تتوقف كذلك عند عدم قول «كفى»، بل قالت أيضاً «لهذا جئت لتناول القهوة»، ثم طلبت مني أن أمنحها يوماً، بضع ساعات على الأقل، لكي تفكر. «كنتُ أعرف ذلك، ولكنني فوجئت على أي حال؛ لا بد لي من التفكير في الأمر». يوم غد الأحد، سنتناول الغداء معاً في مركز المدينة. ما العمل الآن؟ الحقيقة أنني لم أتمكن من مجرد البدء بإلقاء خطبتي التي كنت قد أعددتها وضمنتها شرحاً مطولاً.

صحيح أنني لم أكن واثقاً تماماً من أن تلك الوسيلة ستكون هي الأكثر إقناعاً. وكنت قد فكرت في إمكانية تقديم نفسي كناصح لها، وفي أن أضع تجربة سنوات حياتي تحت تصرفها. ولكنني عندما خرجت من حساباتي، ووجدتها أمامي وسقطتُ في كل تلك الحركات الخرقاء والرعناء، أحسست على الأقل بأن المخرج الوحيد للهروب المثمر من وضعي المضحك هو قول ما يمليه إلهام اللحظة وحسب، وتجاهل الخطب الجاهزة والتقاطعات المسبقة. ولستُ نادماً على انقيادي لذلك الدافع الآني. لقد جاءت الخطبة قصيرة و ـ الأهم من ذلك ـ بسيطة، وأظن أنه يمكن للبساطة أن تكون ورقة رابحة في مواجهتها. تريد أن تفكر في الأمر، هذا حسن. ولكنني أقول لنفسي: إذا كانت عارفة بمشاعري، فكيف لا يكون لديها رأي جاهز مسبقاً، وكيف يمكنها التردد بشأن الموقف الذي ستتخذه؟ يمكن للتفسيرات أن تكون متعددة: ربما كانت قد قررت في الواقع، مثلاً، أن تقول لي كلمة «كفى» الرهيبة، ولكنها وجدت أن قول ذلك مباشرة، وبهذه الطريقة سيكون قاسياً جداً. وهناك تفسير آخر: أن تكون قد عرفت (وعرفت، في هذه الحالة تعني أنها خمنت) ما أشعر به نحوها، ولكنها لم تتصور مع ذلك أن تبلغ بي الجرأة حدّ الإعراب عن تلك المشاعر بالكلام، وبعرض محدد. ومن هنا كان ترددها. ولكنها جاءت «لهذا» كي تتناول القهوة. ما معنى هذا الكلام؟ أكانت تريديني أن أطرح عليها السؤال، وبالتالي، الشكوك؟ عندما يرغب شخص في أن يُطرح عليه سؤال من هذا النوع، فإن تلك الرغبة تعني، على العموم، أن ردّه سيكون إيجابياً. ولكن، ربما كانت ترغب في دفعي إلى طرح السؤال أخيراً، كيلا تواصل انتظارها المتوتر

والقلق، وتكون في وضع يمكنها من أن تقول «لا» حاسمة ونهائية، وتستعيد توازنها. ثم إن هناك خطيبها، أو خطيبها سابقاً. ما مكانه في كل هذا؟ ليس في وقائع ما حدث (فالوقائع تشير دون ريب إلى توقف علاقتهما)، وإنما في تفكيرها بالذات. أأكون أنا، في نهاية المطاف، الحافز الذي تحتاجه، والدفعة الصغيرة التي كانت شكوكها تنتظرها لكي تعود إليه؟ كما أن هناك الفارق في السن، ووضعي كأرمل، وأبنائي الثلاثة... الخ. وهناك قراري حول شكل العلاقة التي أود حقاً أن أقيمها معها. وهذا الأمر الأخير أكثر تعقيداً مما يبدو عليه. ولو كان هناك قارئ آخر سواي لهذه المذكرات، لأنهى اليوم على طريقة الروايات المتسلسلة: «إذا أردت أن تعرف الإجابة على هذه التساؤلات المحرجة، فاقرأ عددنا القادم».

الأحد 19 أيار (مايو)

انتظرتها عند تقاطع شارعي مرثيدس وريو برَّانكو. جاءت متأخرة عشر دقائق فقط. وكانت ملابس يوم الأحد تُظهرها أفضل بكثير، وإن كان ثمة احتمال بأن لديّ استعداد خاص لأجدها أفضل، دائماً أفضل. لقد كانت اليوم عصبية فعلاً. الثوب هو فأل حسن (إنها تريد ترك انطباع طيب)؛ أما الأعصاب، فليست كذلك. أحسستُ بأن هنالك شحوباً في خديها وشفتيها تحت أصباغ التجميل. وفي المطعم، اختارت منضدة منزوية في أقصى القاعة، تكاد تكون غير مرئية. ففكرتُ: «إنها لا تريد أن يراها أحد معي، وهذا فأل سيئ».

وما كادت تجلس حتى فتحت محفظتها، وأخرجت منها المرآة، ونظرت إلى نفسها. «إنها تراقب مظهرها، فأل جيد». مضت ربع ساعة هذه المرة (طلبنا أثناءها الطعام والنبيذ، وطلبنا الخبز الأسمر بالزبد) كان موضوع حديثنا خلاله عاماً. وفجأة، قالت: «أرجوك، لا تلاحقني بهذه النظرات المترقبة». فأجبتها كأحمق: «ليس لديّ سواها». قالت: «حضرتك تريد أن تعرف ردّي» ثم أضافت: «وردي هو سؤال آخر.» قلتُ: «اسألي». «ما الذي يعنيه ما قلته عن أنكَ مغرم بي؟» لم يخطر ببالي قطّ أن لهذا السؤال وجود، ولكن ها هو ذا أمامي. «أرجوكِ يا أبيَّانيدا، لا تجعليني أبدو مضحكاً أكثر مما أنا عليه. أتريدين أن أحدد لك، مثل مراهق، معنى كون المرء مغرماً؟». «لا، ولا بأي حال». «إذن؟». الحقيقة أنني كنت أقوم بدور الممثل؛ فأنا أعرف جيداً في داخلي ما الذي كانت تعنيه، عندئذ قالت: «حسن. حضرتك لا تريد أن تبدو مضحكاً، ولكن لا مانع لديك بالمقابل في أن أبدو كذلك. أنت تعرف ما الذي أعنيه. فكون المرء مغرماً يمكن أن يعني، خاصة في لغة الرجال، أشياء كثيرة مختلفة». «معكِ حق. ضعي إذن أفضل هذه المعاني الكثيرة. فهذا هو ما كنت أعنيه أمس، عندما قلتُ لكِ ذلك». لم يكن حواراً غرامياً، يا للأمل. فالإيقاع بدا كأنه إيقاع محادثة بين تجار أو بين أساتذة أكاديميين، أو بين سياسيين، أو بين أي شخصين متخاصمين ومتكافئين. فتابعتُ قائلاً بشيء أكثر من الحماسة: «انتبهي جيداً، هنالك ما يسمى الواقع وهناك ما يسمى المظاهر». «آه»، قالت ذلك دون أن يبدو عليها أنها تسخر. «وأنا أحب حضرتك بهذه الطريقة التي تسمى واقعاً، ولكن المشاكل تظهر عندما أفكر في ذاك الذي يسمى مظاهر»

فسألتني: «أي مشاكل؟». وأظن أنها كانت مستسلمة هذه المرة. «لا تجعليني أقول لكِ إنه يمكن لي أن أكون بمقام أبيك، أو إنك قد تكونين في عمر أحد أبنائي. لا تجعليني أقول ذلك، لأن هذا هو السر في كل المشاكل، ولأنني سأشعر عندئذ بشيء من التعاسة». لم تجب بشيء. كان ذلك جيداً. إنه الأسلوب الذي ينطوي على أقل قدر من المجازفة، ثم سألتها: «هل تفهمينني إذن؟» وأضفتُ دون أن أنتظر جواباً: «إن هدفي هو، إلى جانب الرغبة الواضحة جداً في الإحساس بالسعادة أو ما هو قريب منها، أن تكوني أنت سعيدة أيضاً. وهنا تكمن الصعوبة. فأنت تملكين كل الشروط التي تمكنك من إسعادي؛ أما أنا، فلا أملك إلا شروطاً قليلة لإسعادك. ولا تظني أنني أريد نقل المبادرة إليك. ففي ظروف أخرى (وأعني، بعبارة أدق، في سن أخرى) يكون أصوب طريق هو أن أعرض عليك خطوبة جدية، جدية تماماً، مع وعد بالزواج خلال مهلة قصيرة. ولكنني إذا عرضت عليك شيئاً مماثلاً الآن، فإنني أرى في ذلك أنانية كبيرة، لأني لن أفكر في هذه الحالة إلا بنفسي، وما أريده الآن ليس التفكير بنفسي، وإنما بحضرتكِ. أنا لا أستطيع أن أنسى ـ ولا أنتِ كذلك ـ أنني سأصبح في الستين خلال عشر سنوات. أي «عجوز قليلاً » كما يمكن لمتفائل أو منافق أن يقول، ولكن لا أهمية لمثل هذا التفصيل الآن. إنني أريد الحفاظ على نزاهتي بالقول لك إنني لن أتمكن الآن، أو بعد بضعة أشهر، من أن أستجمع ما يكفي من القوة للتحدث عن الزواج. ولكن ـ ودائماً هنالك ولكن ـ عم سنتحدث إذن؟ أنا أعرف، مهما كان إدراك حضرتك للأمر، أنه من الصعب مع ذلك القبول بطرح آخر. لأن هناك طرحاً آخر دون شك. وفي هذا

الطرح الآخر يوجد متسع للحب، ولكن ليس للزواج» رفعت عينيها، ولكنها لم تكن تستفهم. ربما أرادت أن ترى وجهي فقط وأنا أقول ذلك. ولكنني بعد أن وصلت إلى هذا الحدّ، كنت مصمماً على عدم التوقف: «هذا الطرح هو ما تطلق عليه المخيلة الشعبية، التي تفتقر إلى التسميات عادة، اسم «مغامرة» أو «برنامج»، ومن المنطقي جداً أن تشعري ببعض الذعر. ولكي أكون صادقاً، فإنني مذعور أيضاً، وليس ذلك إلا لخوفي من أن تظني أني أعرض عليك مغامرة. وقد لا أبتعد ميليمتراً واحداً عن مركز صراحتي إذا قلتُ لكِ إن ما أبحث عنه بشجاعة هو اتفاق، نوع من التوافق بين حبي وحريتك. أعرف، أعرف أنك تفكرين الآن بأن الواقع هو عكس ذلك تماماً. إن ما أبحث عنه هو حبك وحريتي تحديداً. ولديك كل الحق في أن تفكري هكذا، ولكنني أعترف بأن لي الحق بدوري في أن أقامر بكل شيء في ورقة واحدة. وهذه الورقة هي الثقة التي يمكنك أن تمنحيني إياها». في هذه اللحظة كنا ننتظر مجيء التحلية. وقد أحضر النادل أخيراً لذائذ السماء، وانتهزتُ الفرصة لأطلب قائمة الحساب. وبعد اللقمة الأخيرة مباشرة، مسحت أبيّانيدا فمها بشدةٍ بالفوطة، ثم نظرت إليّ مبتسمة. وقد شكلت الابتسامة خطوطاً تجتمع عند جانبي فمها. وقالت: «حضرتك تعجبني».

الاثنين 20 أيار (مايو)

الخطة التي وضعناها تقوم على الحرية المطلقة. أن يتعرف كل منا على الآخر، ونرى ما يمكن أن يحدث. أن نسمح للوقت بالمرور ثم

نقوم بالمراجعة. ليست هناك قيود، ولا التزامات. إنها رائعة.

الثلاثاء 21 أيار (مايو)

«هنالك تحسن في نبرة صوتك» هذا ما قالته لي ابنتي بلانكا عند الظهر، ثم أضافت: «إنك أشد حماسة، وأكثر سعادة».

الجمعة 24 أيار (مايو)

إن ما يحدث في المكتب الآن هو نوع من اللعب. لعبة الرئيس ومعاونته. والشعار هو عدم الخروج عن الإيقاع العام، عن التعامل العادي، عن الروتين. في التاسعة صباحاً أوزع العمل على مونيوث، وروبليدو، وأبيّانيدا، وسانتيني. أبيّانيدا هي واحدة أخرى في القائمة، مجرد واحدة من هؤلاء الذين يمدون أيديهم أمام منضدتي لأسلمهم الاستمارات. هاهي ذي يد مونيوث، طويلة، مجعدة، بأظفار تشبه المخالب؛ ويد روبليدو، قصيرة حتى تكاد تكون مربعة؛ ويد سانتيني ذات الأصابع الرفيعة المزينة بخاتمين؛ وإلى جانبها يدها هي، بأصابعها الشبيهة بأصابع سانتيني، والفارق بينهما هو أنها أصابع أنثوية وليست مخنثة. لقد أخبرتها من قبل بأنها كلما اقتربت مع الآخرين، ومدت يدها، سأطبع (ذهنياً بالطبع) قبلة جنتلمان على فقرات أصابعها المرهفة الحساسة. وهي تقول إنها لا تلمح ذلك على وجهي المتحجر. وأحياناً تتلمس يدها محاولة أن تنقل إليّ عدوى رغبتها المكبوحة في الضحك. ولكنني أحافظ على تماسكي. وأتماسك إلى حدّ دفعَ مونيوث

إلى الاقتراب مني مساء اليوم ليسألني عما إذا كان قد حدث لي شيء، لأنه يلاحظ أنني قلق قليلاً منذ بضعة أيام. «أيكون السبب هو اقتراب موعد إنجاز الميزانية؟ كن مطمئناً أيها الرئيس. فالسجلات ستكون جاهزة بسرعة. لقد كنا نتأخر في السنوات الماضية أكثر مما نحن عليه اليوم بكثير». وما تهمني الميزانية! كدت أضحك منه في وجهه. ولكن عليّ أن أتكلف: «هل تظن حقاً يا سيد مونيوث أننا سننتهي في الوقت المناسب؟ لاحظ أن أقساط الأرباح المرتفعة ستأتي بعد ذلك، وأن هؤلاء الثقلاء سيرفضون مرتين أو ثلاث مرات الإقرارات المحلَّفة، ونصل عندئذ بالطبع إلى زنقة في العمل. يجب العمل بجدّ يا مونيوث، لاحظ أنها آخر ميزانية لي، وأريدها أن تخرج في الموعد المحدد. أخبر الشباب بذلك، إيه؟».

الأحد 26 أيار (مايو)

تعشيت اليوم مع بيغنالي وإسكايولا. إنني لا أزال متأثرا حتى الآن. فأنا لم أشعر من قبل بصرامة مرور الزمن مثلما شعرت به اليوم حين التقيت بإسكايولا، بعد نحو ثلاثين عاماً من عدم رؤيته، ومن عدم معرفة أي شيء عنه. لقد تحول ذلك المراهق الطويل والعصبي والممازح إلى مسخ ذي كرش، ومؤخرة مذهلة، وشفتين ممتلئتين وطريتين، ووجه به لطخات تبدو كأنها لطخات قهوة تسيل، وأكياس دهنية رهيبة تتدلى أسفل عينيه وتهتز عندما يضحك. لأن إسكايولا صار يضحك الآن. فعندما كان يعيش في شارع براندثين، كان مفعول دعاباته يتركز تحديداً

في أنه يرويها بجدية كبيرة. كنا نغرق جميعنا في الضحك، بينما يظل هو غير متأثر. وفي أثناء العشاء اليوم، حاول بعض المزاح، فروى حكاية بذيئة أعرفها مذ كنت أذهب إلى المدرسة، وقصَّ بعض النوادر اللاذعة المبطنة، وهي مستمدة من عمله كوكيل في البورصة. وكان أقصى ما استطاع الوصول إليه هو أنه جعلني ابتسم بتواضع، وجعل بيغنالي (وهو شخص إمعة فعلاً) يطلق قهقهة مفتعلة إلى حدّ بدت معه أقرب إلى النحنحة. ولم أستطع كبح نفسي من القول له: «فضلاً عن الكيلو غرامات التي ازدادها وزنك، فإن أكثر ما يثير استغرابي فيك الآن هو أنك تضحك بقوة. كنتَ فيما مضى تروي أشد النوادر إجراماً بوجهٍ جنائزي مؤثر». لمحتُ وميض غيظ، أو ربما عجز، في عيني إسكايولا. ثم بدأ يوضح لي الأمور فوراً: «أتدري ما الذي حدث؟ كنت أروي الدعابات دائماً بجدية كبيرة. أنت محق في هذا. كم تتذكر! ولكنني انتبهت في أحد الأيام إلى أنني لم أعد أجد موضوعات للنوادر. فأنا لم أكن أحب إعادة القصص التي يرويها آخرون. أنت تعلم أنني كنت مبدعاً. فالنكتة التي أرويها لم يسمع بها أحد من قبل. كنت أخترع دعاباتي، بل كنت أحاول أحياناً إبداع مسلسلات حقيقية من النكات، تكون لها شخصية رئيسية مثل الروايات المتسلسلة، وكنت أستمر فيها أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. حسن، بعد أن انتبهت إلى أنه لم تعد لدي موضوعات (لست أدري ما الذي حدث لي؛ ربما فرغت جعبتي) لم أشأ الاعتزال في الوقت المناسب، مثلما يفعل أي رياضي جيد، وعندئذ بدأت أكرر نوادر الآخرين. وكنت أقوم بالانتقاء في أول الأمر، ولكنني ما لبثت أن استنزفت تلك المختارات، فشرعت بإضافة أي شيء إلى مجموعتي.

وصار الناس، الشباب (فقد كان لي معيتي على الدوام) بعدم الضحك، لا يجدون أي طرافة في ما أرويه. إنهم محقون. ولكنني لم أعتزل حينئذ أيضاً، بل اخترعت أسلوباً آخر: أن أضحك أنا نفسي عندما أروي، وذلك للتأثير على مستمعي وإقناعه بأن الطرفة ظريفة فعلاً. وقد كانوا يجارونني في الضحك أول الأمر، لكنهم سرعان ما بدؤوا يشعرون بالغبن، ويعرفون أن ضحكي ليس إشارة إلى وجود كوميديا مؤكدة. وقد كانوا محقين في هذا أيضاً. أما أنا، فلم يعد بمقدوري أن أتخلى عن الضحك. وهاأنذا، كما رأيتني، وقد تحولت إلى شخص ثقيل الظل. أتريد نصيحة مني؟ إذا أردت الحفاظ على صداقتي فحدثني في أمور مأساوية».

الثلاثاء 28 أيار (مايو)

إنها تأتي كل يوم تقريباً لتناول القهوة معي. والفحوى العامة لأحاديثنا على الدوام هي الصداقة. وباختصار، الصداقة وأشياء أخرى. ولكنني آخذ بالتقدم في هذه «الأشياء الأخرى». فنحن نتبادل الحديث أحياناً عن علاقتنا. وعلاقتنا هي هذا الرابط غير المحدد الذي يربط بيننا الآن. ولكننا عندما نذكرها، نفعل ذلك بصورة خارجية فقط. سأوضح ما أعنيه: فنحن نقول، مثلاً، إنه «لم ينتبه أحد في المكتب حتى الآن إلى علاقتنا» أو أن هذا الأمر أو ذاك قد حدث قبل بدء علاقتنا. ولكن، ما هي علاقتنا هذه في نهاية المطاف؟ إنها إلى الآن، على الأقل، نوع من التواطؤ في مواجهة الآخرين.. سر مشترك.. اتفاق أحادي الجانب.

وهذا بالطبع ليس مغامرة، وليس برنامجاً، كما أنه ليس خطوبة بأي حال من الأحوال. ولكنه مع ذلك شيء أكثر من الصداقة. وأسوأ ما في الأمر (أو ربما أفضل ما فيه) هو أنها راضية جداً عن هذا الوضع غير المحدد. إنها تتحدث إليّ بكل ثقة، وبكل ظرف، بل وبشيء من المحبة أيضاً كما أظن. لديها رؤية خاصة جداً وشديدة التهكم لكل ما يحيط بها. فهي لا تحب سماع القيل والقال في المكتب، ولكن لديها بالمقابل تصنيف للجميع. وهي تنظر أحياناً حولها، في المقهى، وتطلق تعليقاً صائباً ودقيقاً، ولا وجود لما هو أفضل منه، في وصف الحالة المعنيّة. فاليوم مثلاً، كانت هناك منضدة حولها أربع أو خمس نساء، جميعهن في حوالي الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من العمر. وقد تطلعتْ إليهن بتمعن ثم سألتني: «إنهن كاتبات عموميات، أليس كذلك؟» وقد كن كاتبات عموميات فعلاً. فأنا أعرف بعضهن منذ سنوات، بوجوههن على الأقل. سألتها: «أتعرفينهن؟». «لا. لم أرهن من قبل قط». «وكيف أصبتِ إذن؟». «لستُ أدري؛ يمكن لي دائماً التعرف على النساء اللواتي يعملن كاتبات عموميات. إن لهن ملامح وعادات خاصة جداً، لا تتكرر في صاحبات مهن أخرى. فإما أنهن يطلين شفاههن بخط واحد قاس، كمن يكتب على سبورة، أو أن في أصواتهن بُحّة أبدية لكثرة ما يقرأن من العرائض الرسمية، أو أنهن لا يعرفن كيف يحملن حقائبهن النسائية لكثرة ما يحملنه من أضابير وملفات. وهن يتكلمن بإحجام، كما لو أنهن لا يشأن قول شيء قد يتناقض مع القوانين، ولا تراهن ينظرن إلى أنفسهن في مرآة أبداً. تأمل تلك، الثانية إلى اليسار، إن لديها ربلتي ساقين جديرتين بنائبة بطلة رياضية. وتلك التي إلى جانبها، لها

وجه من لا تعرف كيف تطهو ولو بيضة مقلية. إنهن يسببن لي الحمى. وأنت، ماذا تشعر نحوهن؟». لا، أنا لا يسببن لي الحمى (بل إنني أذكر، فوق ذلك، كاتبة عمومية هي صاحبة الصدر الأكثر جاذبية في هذا الكون ومحيطه)، ولكنني أستمتع بالاستماع إليها عندما تتحمس لشيء أو ضد شيء. أما الكاتبات العموميات المسكينات، المسترجلات، النشيطات، العضليات، فقد واصلن حوارهن، دون أن يعرفن شيئاً عن النقد الماحق الذي كان يضيف، على بعد منضدة واحدة منهن، مثالب أخرى لمظهرهن، لوضعهن، لموقفهن ولحديثهن.

الخميس 30 أيار (مايو)

شخص فريد صديق استيبان هذا. سيتقاضى مني خمسين بالمئة من راتب التقاعد الأول. ولكنه يؤكد لي أنني لن أعمل يوماً واحداً زائداً. الإغراء كبير. حسن، كان كبيراً. لأني سقطت. لقد خفّض المبلغ إلى أربعين بالمئة، ونصحني بأن أوافق قبل أن يندم ويتراجع، وأنه لا يفعل مثل هذا مع أحد، وأنه لا يتقاضى أبداً أقل من خمسين بالمئة، ويمكنني أن أسأل عن ذلك، «لأن في مهنتي مستغلين كثيرين، وأناساً بلا ضمير»، وإنه يقدم لي هذا السعر الخاص لأني والد استيبان، «فأنا أحب النحيل كأنه أخي. إننا نلعب البلياردو معاً منذ أربع سنوات. وهذا يوحد يا سيدي». تذكرت آنيبال، وحديثنا يوم الأحد، الخامس من الشهر، عندما قلت له: «من يريد الحصول على شيء مشروع الآن، عليه أن يقدم رشوة أيضاً. وهذا يعني منتهى التسيب».

الجمعة 31 أيار (مايو)

الحادي والثلاثون من أيار هو يوم ميلاد إيزابيل. كم هي بعيدة. في إحدى المرات، اشتريت لها في عيد ميلادها دمية. كانت دمية ألمانية، تحرك عينيها وتمشي. حملتها إلى البيت في علبة طويلة من ورق مقوى شديد المتانة. وضعتها على السرير، وطلبت أن تخمن ما في العلبة. فقالت: «دمية». لن أغفر لها ذلك أبداً.

لم يتذكر أي من الأبناء المناسبة؛ أو أنهم لم يتحدثوا إليّ عن ذلك على الأقل. لقد راحوا ينؤون تدريجياً عن عبادة أمهم. أظن أن بلانكا هي الوحيدة التي تفتقدها فعلاً، إنها الوحيدة التي تأتي على ذكرها بصورة طبيعية على الأقل. أأكون أنا المذنب؟ في الفترة الأولى لم أكن أُكثر من التحدث عنها، ولأن الحديث عنها كان يسبب لي الألم فقط. وأنا الآن لا أتحدث عنها كثيراً أيضاً، لأنني أخشى أن أخطئ، أخشى أن أتحدث عن شخصية أخرى لا علاقة لها بزوجتي.

هل سيصل الأمر بأبيَّانيدا إلى نسياني هكذا؟ وهنا يكمن السر: فقبل أن يبدأ أحدنا بالنسيان، عليه أن يتذكر البدء بالتذكُّر.

الأحد 2 حزيران (يونيو)

الزمن يمضي. إنني أفكر أحياناً في أنه عليّ أن أعيش متعجلاً، وأن أستخلص من هذه السنوات المتبقية لي أقصى ما أستطيعه من فائدة. اليوم، يمكن لأي شخص أن يقول لي، بعد أن يمعن النظر في تجاعيد وجهي: «ولكنك لا تزال رجلاً شاباً». لا تزال. وكم سنة ستدوم

هذه الـ «لا تزال»؟ أفكر في ذلك فتداخلني العجلة، يراودني إحساس ضاغط بأن الحياة تفلت مني، وكأن شراييني قد انفتحت وأنا عاجز عن وقف دمي من التسرب. لأن الحياة أشياء كثيرة (عمل، مال، حظ، صداقة، تعقيدات) ولكن أحداً لن يعترض على أننا عندما نفكر بهذه الكلمة «حياة»، عندما نقول مثلاً: «إننا نتشبث بالحياة»، فإننا نطابق بينها وبين كلمة أخرى أكثر تحديداً، وأكثر جاذبية، وأكثر أهمية بكل تأكيد: نطابق بينها وبين «متعة». أفكر في المتعة (بأي شكل من أشكال المتعة) وأكون واثقاً من أنها حياة. من هنا يأتي التعجل، التعجل المأساوي لهذه السنوات الخمسين التي تتبع كعبيّ. ما زالت لدي، وهذا ما آمل به، بضع سنوات من الصداقة، ومن الصحة المقبولة، والأعمال الروتينية، ومن الرجاء أمام الحظ. ولكن، كم سنة من المتعة بقيت لدي؟ كان عمري عشرين عاماً وكنت شاباً؛ وأربعين عاماً وكنت شاباً. وأنا الآن في الخمسين «وما زلت شاباً». ومازلت تعني: انتهى.

وهذا هو الجانب السخيف من اتفاقنا: نقول إننا سنتناول الأمر بتمهل وهدوء، وإننا سنترك الوقت يمضي، وإننا سنراجع الوضع في ما بعد. لكن الوقت يمضي، سواء أتركناه أم لم نتركه، الوقت يمضي ويجعلها كل يوم شهية أكثر، ناضجة أكثر، يانعة أكثر، امرأة أكثر. أما أنا بالمقابل، فإن كل يوم يشرق عليّ يجعلني أكثر هرماً، وأكثر استنفاداً، وأقل شجاعة، وأقل حيوية. علينا أن نسرع نحو اللقاء، لأن المستقبل في حالة كحالتنا هو فراق محتم. فجميع صفات أكثر لديها تقابلها أقل لدي، وجميع صفات أقل لديها تقابلها أكثر لدي. إنني أدرك أن ما يشدّ امرأة شابة ويجتذبها، معرفتها أن هذا الشخص قد عاش طويلاً،

وأنه استبدل البراءة منذ زمن طويل بالتجربة، وأنه يفكر ورأسه ثابت فوق كتفيه. يمكن لهذا أن يكون جذاباً بالفعل، ولكن لوقت قصير فقط. لأن التجربة تكون جيدة عندما تكون اليد قادرة؛ أما بعد ذلك، عندما تذهب المقدرة، فإن أحدنا يتحول إلى قطعة ديكور متحفية، قيمته الوحيدة في كونه ذكرى لما كان عليه. والتجربة والقدرة تتلاقيان معاً لوقت قصير فقط. وأنا أعيش الآن هذا الوقت القصير. ولكنه ليس بالحظ الذي أُحسد عليه.

الثلاثاء 4 حزيران (يونيو)

حدث عظيم. لقد تشاجرت ابنة بالبيردي مع سواريث. المكتب بأسره هائج مائج. وجه مارتينث كان أنشودة. فهذه القطيعة تعني بالنسبة إليه أن الطريق أضحى ممهداً وسالكاً لمنصب نائب الوكيل. سواريث لم يحضر إلى المكتب صباحاً. وعندما جاء بعد الظهر، كانت هناك كدمة في جبهته، وكانت تبدو على وجهه آثار السهر. استدعاه الوكيل ووجه إليه بضع صرخات. هذا يعني أن الأمر ليس مجرد إشاعة، بل هو رواية رسمية ومأذونة فعلاً.

الجمعة 7 حزيران (يونيو)

ذهبنا معاً إلى السينما مرتين حتى الآن، ولكنها صارت تذهب إليها وحدها بعد ذلك. أما اليوم، فقد رافقتها إلى بيتها. كانت ودودة جداً، رقيقة جداً. ففي منتصف الفيلم، عندما بدأت أليدا فالي تعاني كثيراً

مع السفيه فارلي غرانجر، أحسستُ فجأة بيدها تستند إلى ذراعي. أظن أنها كانت حركة انعكاسية، ولكن القضية هي أنها لم تسحب يدها بعد ذلك. هنالك في داخلي سيد لا يرغب في استباق الأحداث؛ إلا أن هناك سيداً آخر، في الوقت ذاته، تسيطر على ذهنه فكرة التعجل.

نزلنا في شارع 8 أكتوبر، ومشينا على أقدامنا مجتازين ثلاثة شوارع تتقاطع معه. كان الظلام مخيماً، لكنه ظلام الليل الصافي دون زيادة أو نقصان. فشركة يو. تي. ي، شركة يو.تي.ي العجوز والغاوتشية، أهدت إليّ انقطاعاً مفاجئاً في التيار الكهربائي. كانت تسير بعيدة عني، تفصل بيننا مسافة متر تقريباً. ولكن ما إن اقتربنا من أحد المنعطفات (منعطف فيه متجر، وعلى منضدة كونتوار بداخله شمعة)، حتى انفصل شبح أحدهم ببطء عن شبح شجرة. فضاقت مسافة المتر التي تفصل بيننا، وقبل أن أنتبه لما يجري، كانت قد أمسكت بذراعي. ذاك الشبح كان رجلاً مخموراً. مسالماً وأعزل يتمتم: «يحيا فقراء الروح والحزب الوطني!» شعرت بأنها تكتم ضحكة خافتة، وأن توتر أصابعها بدأ يتراخى. بيتها هو الرقم 268 في شارع يحمل اسماً ولقباً لهما إيقاع رامون ب. غوتييرث أو إدواردو ث. دومينغث، لا أذكر جيداً. وللبيت شرفات ومدخل ضيق يشبه الدهليز. كان الباب الخارجي مقفلاً، لكنها أخبرتني أن هناك كوة صغيرة ضمن الباب الرئيسي تحاول التشبه بفسيفساء الزجاج الملون. «يقال إن مالك البناء أراد تقليد فسيفساء الزجاج الملون في نوتردام، لكنني أؤكد لك أن فيه رسماً للقديس سيباستيان يشبه غارديل».

لم تفتح الباب فوراً، بل استندت إليه باسترخاء. وفكرتُ في أن

قبضة الباب البرونزية تحتك الآن بعمودها الفقري. لكن ذلك لم يكن يضايقها. عندئذ قالت لي: «أنت طيب جداً. أعني أنك تتصرف بطريقة حسنة جداً». وأنا الذي أعرف نفسي، كذبت مثل قديس: «أنا طيب جداً بالطبع. ولكنني لست متأكداً من أنني أتصرف بطريقة حسنة». فقالت: «لا تكن مغروراً، ألم يعلموك وأنت صغير، أنه يجب على المرء، إذا أحسن التصرف، ألا يعلن ذلك؟» وكانت تلك هي اللحظة المناسبة، وكانت هي تنتظرها أيضاً، فقلت لها: «عندما كنت صغيراً علموني أنه كلما أحسن أحدنا التصرف، مُنحت له مكافأة. أولستُ أستحق المكافأة؟» مرت لحظة صمت. لم أكن أرى وجهها، لأن أوراق شجرة صنوبر لعينة من أشجار البلدية كانت تحجب ضوء القمر. وسمعتها تقول: «بلى، إنك تستحقها». عندئذ ظهر ذراعاها من العتمة، واستندا إلى كتفي. لا بد أنها رأت هذه المقدمة التمهيدية في فيلم أرجنتيني. أما القبلة التي تلت ذلك، فإنني واثق من أنها لم ترها في أي فيلم. تعجبني شفتاها، أعني مذاقهما، طريقتهما في الالتحام، وفي الانفتاح، وفي الهروب، ليست المرة الأولى التي تُقبِّل فيها بالطبع. وما هذا؟ على الرغم من كل شيء، من الممتع أن يعود المرء إلى التقبيل من الفم بثقة ومحبة. لست أدري كيف، ولست أدري أي خطوة غريبة قد خطونا، ولكن المؤكد هو أنني أحسست فجأة بأن قبضة الباب البرونزية تنغرس في عمودي الفقري. بقيتُ نصف ساعة عند باب البيت رقم 368. رباه! يا للتقدم الذي أحرزناه. لم يقل أي منا نحن الاثنين ذلك، ولكن شيئاً واحداً مؤكداً بقي بعد ذلك الفصل. غداً سأفكر. إنني مرهق الآن.

ويمكنني أن أقول إنني سعيد كذلك. ولكنني حذر جداً، إلى حدّ لا يمكنني الشعور معه بالسعادة الكاملة. حَذِر من نفسي، ومن الحظ، ومن هذا المستقبل الوحيد الملموس الذي يدعى غداً. وحَذِر تعني: غير واثق.

الأحد 9 حزيران (يونيو)

ربما كنت مهووساً بالتوازن. ففي أي مشكلة تعترضني، لا أميل أبداً إلى الحلول المتطرفة. وربما كان هذا هو أصل خيبتي. ولكن هنالك أمر جليّ: إذا كانت التصرفات المتطرفة تثير الحماسة، وتجرف الآخرين، وتكون مؤشراً للقوة، فإن التصرفات المتوازنة بالمقابل، تكون غير مريحة في معظم الأحيان، ومزعجة في أحيان أخرى، ولا تبدو بطولية على الإطلاق تقريباً. والاحتفاظ بالتوازن يتطلب، عموماً، قدراً كبيراً من الشجاعة (وهي شجاعة من نوع خاص)، ولكن لا سبيل إلى الحيلولة دون رؤية الآخرين فيه دليلاً على الجُبن. ثم إن التوازن ممل. ويعتبر التوازن، في أيامنا هذه، عيباً كبيراً لا يغفره الناس عموماً.

ما الهدف من هذا كله؟ آه، أجل، فالتوازن الذي أبحث عنه الآن له علاقة (أليس له علاقة بحياتي الحالية؟) بابيّانيدا. لا أريد إلحاق الضرر بها، كما لا أريد إلحاق الضرر بنفسي (توازن أول)؛ ولا أريد لعلاقتنا أن تجرنا معها إلى وضع الخطوبة السخيفة المتجهة نحو الزواج، ولا أريد لها أن تتخذ طابع برنامج عابر مبتذل وتافه (توازن ثانٍ)؛ ولا أريد أن يدينني المستقبل باعتباري شيخاً تحتقره امرأة في أوج مشاعرها، ولا أن

أظلَ، بسبب خوفي من هذا المستقبل، على هامش حاضر، كهذا الحاضر شديد الجاذبية الذي لا يمكن التفريط به (توازن ثالث)، ولا أريد (وهذا هو التوازن الرابع والأخير) أن نبدأ في التدحرج من شقة مفروشة إلى أخرى بدلاً من أن نؤسس منزلاً مستقراً بكل معنى الكلمة.

والحلول؟ أولاً: استئجار شقة. دون أن أهجر بيتي بالطبع. حسن، أولاً ويكفي. لا توجد حلول أخرى.

الاثنين 10 حزيران (يونيو)

برد ورياح. يا للجائحة. أظن أنني كنت أحب الشتاء وأنا في الخامسة عشرة من عمري. أما الآن فإنني أبدأ بالعطاس ثم أضيع عدد العطسات التي أطلقها. يراودني الإحساس أحياناً بأنه لدي بدل الأنف حبة طماطم ناضجة، ذلك النضوج الذي يصل إليه الطماطم قبل عشر ثوان من تعفنه. وعندما أصل إلى العطسة الخامسة والثلاثين، لا أستطيع منع نفسي من الشعور بأنني كائن أدنى من بقية أفراد الجنس البشري. إنني أقدّر أنوف القديسين، تلك الأنوف المرهفة الطليقة، مثلما هي أنوف قديسي لوحات الغريكو مثلاً. أقدّر أنوف القديسين، لأن هؤلاء (وهذا لا ريب فيه) لم يعرفوا الزكام قطّ، ولم ينهكهم مثل هذا العطس المتتالي في سلسلة. مطلقاً. فلو أنهم عطسوا عشرين أو ثلاثين عطسة متتالية، لما استطاعوا الحؤول دون استسلامهم لإطلاق الألفاظ البذيئة، بالنطق بها أو بالتفكير فيها ذهنياً. ومن يطلق البذاءات ـ حتى في أدنى أفكاره الخبيثة ـ تُغلق أمامه أبواب الفردوس.

الثلاثاء 11 حزيران (يونيو)

لم أقل لها شيئاً، لكنني بدأت البحث عن شقة. هناك واحدة، مثالية، في ذهني. ولكن يا للأسف، فالشقق المثالية لا سبيل إلى الوصول إليها، فهي غالية على الدوام.

الجمعة 14 حزيران (يونيو)

منذ نحو شهر لم أدخل مع خيمي أو استيبان في حديث يزيد عن خمس دقائق. إنهما يأتيان إلى البيت مدمدمين، ويغلقان على نفسيهما بابي غرفتيهما، ويأكلان صامتين وهما يقرأان الصحيفة، ويخرجان مجدفين، ويرجعان عند الفجر. أما بلانكا فهي، بالمقابل، لطيفة وسعيدة ومحبة للحديث. إنني أرى دييغو أحياناً، وأتعرف على حضوره في وجه بلانكا. لستُ مخطئاً: إنه شخص طيب. أعرف أن استيبان قد حصل على ترقية أخرى. حصلوا له عليها في النادي. لدي انطباع، مع ذلك، بأنه بدأ يندم لأنه سمح لهم بأن يورطوه تماماً. لا بد أنه سينفجر يوماً، إنني أرى ذلك، وسيلقي بكل شيء إلى الشيطان. عسى أن يفعل ذلك قريباً. لا أرغب في رؤيته متورطاً في عملية تتناقض ظاهرياً مع قناعاته القديمة. لا أرغب في رؤيته صفيقاً وغير مبال بالآخرين، وواحداً من أولئك الوقحين الذين ما إن تحين ساعة اللوم حتى يبدؤوا بالاعتذار: «إنها الطريقة الوحيدة للتقدم، وليكون المرء شيئاً ذا قيمة». أما خيمي فهو يشتغل، ويشتغل جيداً؛ وهم يحبونه في عمله. ولكن مشكلته في شيء آخر. وأسوأ ما في

الأمر هو أني لا أعرف حقيقة مشكلته. إنه عصبي دائماً، وغير راض عن أي شيء. يبدو قوي الشخصية في الظاهر، ولكنني أجد نفسي غير متأكد أحياناً مما إذا كان ذلك قوة شخصية أم هو مجرد نزوة. وأنا لا أحب أصدقاءه. إن فيهم شيئاً من الضعف والخفة، فهم يأتون من حي بوثيتوس الراقي، وربما كانوا يحتقرونه في أعماقهم. إنهم يستغلونه، لأن خيمي ماهر في الأعمال اليدوية، وهو دائماً مشغول بصنع شيء طلبوه منه. مجاناً بالطبع. وهم جميعهم لا يشتغلون، فهم أبناء مدللون. وأنا أسمعهم يحتجون أحياناً: «يا للعنة شغلك هذا. لا يمكن الوثوق من اللقاء بك أبداً» وينطقون كلمة «شغل» كمن حقق مأثرة، مثل محسن يقترب من متسول سكران، متخطياً الاشمئزاز والشفقة، ويلمسه بطرف حذائه. إنهم يلفظون كلمة «شغل» وكأن عليهم أن يتطهروا بعد النطق بها.

السبت 15 حزيران (يونيو)

لقد وجدتُ شقة. إنها شبيهة إلى حدّ ما بالشقة المثالية التي تخيلتها. وهي رخيصة إلى حد لا يُصدق. ولكن عليّ أن أضغط الميزانية في كل الأحوال، وآمل أن تكون كافية. الشقة على بعد خمس أبنية من تقاطع الشارع الثامن عشر وشارع آنديس. وهي تتميز، فضلاً عن ذلك، بأنه يمكن فرشها بمبلغ زهيد. هذا يعني أنه لا بد لي من إنفاق مبلغ الـ 2465،79 بيزو الذي أملكه في دار للرهن. سوف أخرج معها هذه الليلة. ولكنني لا أفكر في أن أخبرها بشيء.

الأحد 16 حزيران (يونيو)

ومع ذلك، فقد أخبرتها. كنا نجتاز مسافة الشوارع الثلاث التي تتقاطع مع شارع 8 أكتوبر، في الطريق إلى بيتها، ولم يكن التيار الكهربائي مقطوعاً هذه المرة. وأظن أنني تلعثمت ببعض الأمور، ذكرت خطتنا في الحرية المطلقة، وفي تعرف كل منا على الآخر وانتظار ما يحدث، وفي أن نترك الوقت يمضي ثم نراجع حساباتنا. إنني متأكد من أنني تلعثمت. لقد انقضى شهر على دخولها إلى مقهى تقاطع الشارع الخامس والعشرين وشارع مسيونيس لتطالب بقهوتها. قلت لها: «أريد أن أعرض عليك أمراً». إنني أخاطبها دون كلفة منذ يوم الخميس، السابع من الشهر، أما هي فلم تفعل ذلك بعد. وفكرتُ في أنها سترد عليّ: «أعرفه»، مما سيعني راحة عظيمة لي. ولكنها لم تقل ذلك. تركتني أتحمل ثقل العرض كله. لم تحزر هذه المرة، أو أنها لم تشأ أن تحزر. وأنا لست خبيراً في المقدمات على الإطلاق، لذلك اقتصر على قول ما لا بد منه: «لقد استأجرتُ شقة.. لنا». من المؤسف أن التيار الكهربائي لم يكن مقطوعاً، لأنني ما كنت سأرى نظرتها آنئذ. ربما كانت نظرة حزينة. وما أدراني بذلك. فأنا لم أكن متأكداً يوماً مما تريد النساء قوله عندما ينظرن إليّ. أفكر أحياناً في أنهن يسألنني، ثم لا ألبث أن أنتبه، بعد مرور بعض الوقت، إلى أنهن يحملن الإجابة في نظراتهن تلك. وهكذا، فقد طَفَتْ، للحظة، بيننا نحن الاثنين، كلمةٌ أشبه بسحابة، ومثل سحابة راحت تنزاح. فكلانا كنا نفكر بكلمة زواج، وكلانا أدرك أن السحابة آخذة بالانزياح، وأن السماء ستكون صافية في الغد. سألتني: «دون أن تستشيرني؟». وأجبتها بحركة من

رأسي أي نعم. والحقيقة أن عقدة في حلقي منعتني من الكلام. قالت وهي تحاول أن تبتسم: «لا بأس. يجب معاملتي هكذا، بأسلوب فرض الأمر الواقع». كنا قد وصلنا إلى مدخل بيتها. كان الباب مفتوحاً هذه المرة، لأن الوقت أبكر بكثير مما كان عليه المرة الماضية. كانت ثمة أضواء هنا وهناك. ولم يكن هناك مكان للأسرار، اللهم إلا ذلك الشيء الآخر الذي يسمى الصمت. بدأتُ أدرك أن عرضي لم يكن نجاحاً مدوياً. غير أنه لا يمكن لي وأنا في الخمسين أن أتطلع إلى تحقيق نجاحات مدوية. وماذا لو كنت قد أجبتها بـ «لا»؟ فقد أحسست بأنني أدفع ثمن عدم استخدامي للنفي في الرد على سؤالها، وهذا الثمن هو الموقف الثقيل، واللحظة المزعجة وشبه المؤلمة، برؤيتها صامتة قبالتي، ومائلة قليلاً في سترتها القاتمة، وبوجه يبدو كأنه يقول وداعاً لأشياء عديدة. لم تقبّلني. ولم أبادر أنا أيضاً إلى تقبيلها. كان وجهها محتقناً ومتيبساً. وفجأة، دون سابق إنذار، بدا كما لو أن نوابضها كلها قد أفلتت، وكما لو أنها قد نزعت قناعاً لم تعد تطيقه. وفي وضعها ذاك، حيث كانت تتطلع إلى أعلى، ومؤخرة عنقها مستندة إلى البوابة، أجهشت في البكاء. ولم يكن بكاؤها هو بكاء السعادة الشهير، بل ذلك البكاء الذي يداهم أحدنا حين يشعر بتعاسة كئيبة. فحين يشعر المرء بتعاسة باهرة الوضوح، يصبح الموقف جديراً فعلاً ببكاء تصاحبه اختلاجات وتشنجات، وهذا النوع من البكاء يتطلب بصورة خاصة وجود جمهور. أما عندما يشعر أحدنا بأنه مكتئب، فضلاً عن التعاسة، فإنه لا يجد عندئذ متسعاً للتمرد أو التضحية أو البطولة، ولا بد في هذه الحالة من البكاء دون ضجة، لأن أحداً لا يستطيع مدّ يد المساعدة

إليه، ولأن المرء نفسه يدرك أن هذا الوضع سينجلي وأنه سيستعيد توازنه وحالته الطبيعية في النهاية. هكذا كان بكاؤها. ولا يمكن لأحد أن يخدعني في هذا المجال. ولكنني قلت لها مع ذلك: «أيمكنني مساعدتك؟ هل أستطيع علاج هذا الوضع؟» أسئلة غير مجدية، أتبعتها بإخراج سؤال آخر، من أعمق أعماق شكوكي: «ماذا حدث؟ أترغبين في أن نتزوج؟» ولكن السحابة كانت قد ابتعدت. فقالت: «لا. إنني أبكي لأن كل شيء مؤسف» وهذا صحيح تماماً. كل شيء مؤسف: عدم انقطاع التيار الكهربائي، وبلوغي الخمسين من العمر، وكونها فتاة طيبة، ووجود أبنائي الثلاثة، وخطيبها السابق، والشقة... أخرجت منديلي ومسحت الدموع عن عينيها. «هل انقضى كل شيء؟». فأجابت: «نعم، انقضى كل شيء» وكان ذلك كذباً، ولكننا كنا ندرك كلينا أنه من المستحسن الكذب في مثل هذه الأحوال. وقد تابعت تقول، بينما نظرتها لا تزال ناقهة: «لا تظن أنني حمقاء دائماً». لقد قالت «لا تظنني» دون أن تقول حضرتك، إنني واثق من أنها قالت «لا تظنني». لقد بدأت تكلمني دون تكلف إذن.

الخميس 20 حزيران (يونيو)

منذ أربعة أيام لم أكتب أي شيء. فما بين إجراءات استئجار الشقة، وقبول الضمانة، وسحب مبلغ الـ 2465،79 بيزو، وشراء بعض الأثاث، أمضيت أوقات اضطراب رهيبة. غداً سوف يسلمونني الشقة. ويوم السبت بعد الظهر سيأتونني بالأثاث.

الجمعة 21 حزيران (يونيو)

لقد صرفوا سواريث من العمل، إنه أمر لا يكاد يُصدق، ولكنهم صرفوه فعلاً. وقد تداول العاملون الإشاعة القائلة إن ابنة بالبيردي قد ضغطت كي يفصلوه من العمل. والمفاجئ في الأمر هو أن سبب الفصل لم يكن أقل من ذلك. فقد أرسل قسم الصادر طردين خاطئين، دون أن يكون لسواريث مجرد علم بأمر هاتين الإرساليتين، ولا بد أن من فعل ذلك هو أحد الشبان الجدد الذين يتولون مهمة التعليب. منذ زمن غير بعيد كان يمكن لسواريث أن يمارس أنواعاً لا حصر لها من القذارة، ولم يكن هناك من يقول له شيئاً. ومما لا شك فيه أنه كانت لدى الوكيل، منذ نحو ثلاثة أو أربعة أيام، أوامر محددة تقضي بطرد هذا العاشق المنكوب؛ ولكن سواريث الذي كان مدركاً لما سيحل به، أخذ يتصرف مثل طفل مثالي. فهو يصل إلى المكتب في الموعد المحدد لبدء العمل، بل ويعمل في بعض الأيام بضع ساعات إضافية؛ وقد أصبح لطيفاً، وذليلاً، ومنضبطاً. ولكن ذلك كله لم يفده في شيء. ولو لم يقع ذلك الخطأ في قسم الصادر، فإنني متأكد من أنهم كانوا سيطردونه، ربما لأنه يُكثر من التدخين، أو لأنه لم يلمع حذاءه جيداً. ويؤكد أحد المطلعين من جهة أخرى، بأن الصندوقين قد أرسلا إلى عنوان خاطئ بأمر محدد وسري من الوكيل. وهذا لا يثير فيّ أي قدر من الدهشة والاستغراب.

عندما أطلعوا سواريث على نبأ فصله، كانت رؤيته تدعو إلى الرثاء. ذهب إلى الصندوق، وقبض تعويضه، ثم رجع إلى منضدته وبدأ يُفرغ الأدراج بصمت، دون أن يدنو منه أحد ليسأله عما حدث، أو ليقدم

له نصيحة ما، أو ليعرض عليه أي مساعدة. وخلال نصف ساعة فقط، صار شخصاً غير مرغوب فيه. أنا لا أكلمه منذ سنوات (منذ أن لاحظت أنه يستخرج أرقاماً سرية من قسم الحسابات ويقدمها إلى أحد أعضاء مجلس الإدارة ليستثيره ضد الآخرين)، ولكنني أقسم بأني شعرت اليوم برغبة في الاقتراب منه، وتطييب خاطره بكلمة تعاطف ومواساة. ولم أفعل ذلك لأنه شخص قذر، ولأنه لا يستحق المواساة. ولكنني لم أستطع تجنب الإحساس بشيء من الاشمئزاز نحو هذا التحول التام والمفاجئ (والذي شارك فيه الجميع، ابتداء من رئيس مجلس الإدارة، وحتى أصغر العاملين)، وهو تحول تسبب فيه انقطاع العلاقة بين سواريث وابنة بالبيردي. قد يبدو الأمر غريباً، إلا أن أجواء هذه المؤسسة التجارية تسير، إلى حدّ كبير، بنظام الأهواء الخاصة.

السبت 22 حزيران (يونيو)

لم أذهب اليوم إلى المكتب. فقد انتهزت فرصة فوضى البهجة التي عمت المكتب أمس، وطلبت من الوكيل الإذن اللازم للغياب صباح اليوم. وقد وافق على طلبي مبتسماً، بل وأتبع ذلك بتعليق مشجع ومرح، بأنه لا يعرف كيف سيتمكنون من تدبر الأمور دون وجود رجل المكتب الأساسي. أيريدون إلصاق ابنة بالبيردي بي؟ رباه.

تلقيت الأثاث في الشقة، وعملت على ترتيبه مثل عبد. بدت الشقة حسنة الترتيب. ليس هناك أي شيء حديث يثير الغيظ. فأنا لا أحب تلك المقاعد الوظيفية، ذات القوائم غير المستقرة بصورة مضحكة،

والتي تتحطم بمجرد إلقاء نظرة غاضبة عليها. ولا أحب مساند الظهر تلك التي تبدو دائماً كما لو أنها صُنعت على مقاس مستخدِم آخر. ولا أحب تلك المصابيح التي تضيء دائماً ما لا نريد أن نراه أو نريه لأحد: شبكات العناكب أو الصراصير، أو البقع.

أظن أنها المرة الأولى التي أرتب فيها جواً على هواي. فعندما تزوجت أهدت إلينا أسرتي أثاث غرفة النوم، وساهمت أسرة إيزابيل بغرفة الطعام. وكانت كل منهما تركل الأخرى، ولكن ليس مهماً. فبعد ذلك كانت تأتي حماتي وتفتي: «يلزمكما لوحة في غرفة المعيشة» ولا تعيد قول ذلك مرتين. ففي صباح اليوم التالي، تظهر في الغرفة لوحة طبيعة صامتة، فيها قطع سجق وجبن ناشف وشمامة وخبز بيتي وزجاجات بيرة. وباختصار، شيء يسدّ شهيتي ستة شهور. وفي أحيان أخرى، وغالباً ما يكون ذلك في إحدى المناسبات، يرسل إلينا عمٌّ ما لوحةً فيها نوارس، لنعلقها على جدار غرفة النوم، أو مزهريتين فخارتيتين مزركشتين برسوم غلمان مخنثين، وتكون أقرب إلى إثارة الاشمئزاز منها إلى أي شيء آخر. وبعد موت إيزابيل، واشتراك الزمن وسهوي وانشغالي بالأعمال المنزلية، في إتلاف لوحات الطبيعة الصامتة والنوارس والغلمان، راح خيمي يملأ البيت بهذا التهريج الذي يتطلب تفسيراً دورياً. إنني أراه أحياناً مع أصدقائه وهم يقفون مشدوهين أمام جرة لها أجنحة، أو قصاصات صحف مختلطة، أو رسم باب وخصيتين، وأسمعهم يعلقون: «يا له من رسم هائل!» فلا أفهم، ولا أرغب في أن أفهم، أن لإعجابهم وجهاً منافقاً! فقد سألتهم يوماً: «ولماذا لا تأتون مرة بصورة لإحدى لوحات غوغان أو مونيه أو

رينوار؟ هل هؤلاء سيئون؟» عندئذ تنطح لي دانيليتو غوميث فيرنادو، وهو مدلل يذهب للنوم كل يوم في الخامسة صباحاً، لأن «ساعات الليل هي الأكثر أصالة»، وحساس إلى حدّ لا يدخل معه مطعماً مرة أخرى إذا رأى فيه أحداً يستخدم عوداً في تنظيف أسنانه. هذا الفتى، هذا الفتى بالذات، هو الذي ردّ عليّ قائلاً: «ولكن يا سيد، نحن من مؤيدي التجريد» هو نفسه، بالمقابل، ليس فيه أي تجريد بوجهه الضئيل الخالي من الحاجبين، وملامحه الأبدية التي تشبه ملامح هرّة حبلى.

الأحد 23 حزيران (يونيو)

فتحتُ الباب ووقفتُ جانباً كي أفسح لها طريق الدخول. فتقدمتْ إلى الداخل بخطوات قصيرة وهي تتأمل كل شيء بأقصى اهتمام، كأنها تريد أن تمتص، بتمهل، الضوء والأجواء والرائحة. مرت بيدها على رف الكتب، ثم على قماش الأريكة. ولكنها لم تُلق ولو نظرة واحدة باتجاه غرفة النوم. جلستْ. أرادت أن تبتسم ولم تستطع. بدا لي أن ساقيها ترتعشان. تطلعتْ إلى صور اللوحات المعلقة على الجدار، وقالت مخطئة: «بوتشيلي». وكانت اللوحة المعنية لفيليبو ليبي. سيكون لدي متسع من الوقت لأوضح لها هذا الخطأ. بدأت تسأل عن النوعية، وعن الأسعار، وعن الأثاث. وقالت ثلاث أو أربع مرات: «إنه يروقني».

كانت الساعة السادسة مساء؛ وكانت الشمس المائلة إلى الغروب تحوّل لون ورق الجدران الأبيض الشاحب إلى برتقالي. جلستُ إلى جانبها فتيبست. ورأيت أنها لم تترك حتى حقيبتها، فقلت لها: «أتذكرين

أنك لست زائرة، وإنما سيدة البيت؟». عندئذ بذلت جهدها، وطوحت شعرها قليلاً، ثم خلعت سترتها، ومدت ساقيها بعصبية. فسألتها: «ماذا هنالك؟ أأنت خائفة؟» وردت عليّ بسؤال: «وهل يبدو على وجهي أنني خائفة؟». «بصراحة، نعم». فقالت: «ممكن، ولكنني لست خائفة منك ولا من نفسي». بدا لي أنها قد اطمأنت. ولاحظت أن هناك شيئاً مؤكداً: لم تكن تتصنع. فالشحوب يعني أن الخوف حقيقي. ولم يكن سلوكها مثل سلوك أمينات الصندوق، أولئك اللواتي يوافقن على الذهاب إلى الشقق المفروشة، ولكنهن يُصبن بنوبة هستيرية في اللحظة التي تتوقف فيها سيارة الأجرة أمام الشقة، ويصرخن مناديات على الماما. لا، ليس فيها أي شيء مسرحي. لقد كانت مرتبكة، وأنا لم أشأ ـ وربما لم يكن يناسبني ـ أن أتقصى كثيراً حول أسباب ذلك الارتباك. قالت: «كل ما في الأمر هو أنه عليّ أن أعتاد على الفكرة» وربما قالت ذلك كي أكتفي به. وقد انتبهت هي نفسها إلى أنني أفتقد الحماسة إلى حدّ ما. «إن إحدانا تتخيل هذه الأشياء دوماً بطريقة مختلفة قليلاً عما ستكون عليه في الواقع. ولكن عليّ أن أعترف بشيء وأن أشكرك عليه. فهذا الذي أعددته لا يختلف كثيراً عما تخيلته». «ومنذ متى بدأتِ بتخيله؟». «مذ كنت أذهب إلى المدرسة، وأغرمت بأستاذ الرياضيات». كانت المائدة معدّة، عليها تلك الأطباق الصفراء التي اختارتها لي عاملة المحل (وهذا ليس صحيحاً تماماً، لأن الأطباق أعجبتني أنا أيضاً)، سكبتُ المأكولات الباردة، وأديت دور المضيف بكل وقار. لقد أبدت إعجابها بكل شيء، لكن توتر الأعصاب لم يُتح لها الاستمتاع بشيء. وعندما حانت لحظة فتح زجاجة الشمبانيا، كان

الشحوب قد فارقها، فسألتها: «إلى أي ساعة تستطيعين البقاء؟». «إلى وقت متأخر». «وأمك؟». «أمي تعرف بأمر علاقتنا».

ضربة تحت الحزام دون ريب. هذا لا ينفع. أحسست بأنني عارٍ، بذلك النوع من عري الأحلام اليائس الذي يرى المرء نفسه فيه يتمشى بسرواله الداخلي في منطقة ساراندي، والناس يحتفون به من شارع إلى آخر. ولكنني تجرأت على سؤالها: «ولماذا فعلت ذلك؟». «أمي تعرف كل شيء عني». «وأبوكِ؟». «أبي يعيش خارج هذه الدنيا. إنه خياط. مرعب. لا تفكر أبداً في صنع بدلة عنده. إنه يصنع جميع البدلات على مقاس تمثال المانيكان نفسه. ولكنه صوفي فوق ذلك. وفوضوي أيضاً. إنه لا يسأل عن أي شيء أبداً. وهو يجتمع كل يوم اثنين مع أصدقائه الصوفيين، وينهمك في تفسير بلافاتسكي حتى الفجر؛ وفي أيام الخميس، يأتي أصدقاؤه الفوضويون إلى البيت ويتناقشون بأعلى أصواتهم حول باكونين وكروبوتكين. وفي ما عدا ذلك هو رجل رقيق ومسالم، ينظر إليّ أحياناً بصبر عذب، ويقول لي أشياء نافعة جداً، بل أكثر الأشياء النافعة التي سمعتها على الإطلاق». يعجبني أن تتحدث عن أسرتها، ولكن حديثها اليوم أعجبني أكثر. بدا لي ذلك فألاً حسناً لتدشين مقر علاقتنا الجديد. «وماذا تقول أمك عني؟» إن صدمتي النفسية آتية من أم إيزابيل. «عنكَ؟ لا شيء. إنها تقول عني». أجهزتْ على الشمبانيا المتبقية في كأسها، ثم مسحت شفتيها بالمنديل الورقي. لم يبق على وجهها أي شيء من الأصباغ: «تقول عني إنني مغالية، وإنني لا أعرف السكينة». «وهل تعني بذلك علاقتنا أم كل شيء؟». «كل شيء. إن نظريتها، نظرية حياتها العظمى

التي ترى أنها صالحة دوماً، تتلخص في أن السعادة، السعادة الحقيقية، هي حالة أقل ملائكية بكثير، بل وأقل لطفاً مما يميل أحدنا دائماً إلى الحلم بها. وهي تقول إن الناس ينتهون عموماً إلى الإحساس بالتعاسة لمجرد أنهم ظنوا أن السعادة هي شعور دائم وغير محدود بالرخاء، حالة نشوة ممتعة، مهرجان متواصل. ولكنها تقول لا، فالسعادة أقل من ذلك بكثير (أو ربما هي أكثر بكثير، لكنها شيء آخر على كل حال) وهي متأكدة من أن كثيرين من مدعي التعاسة هم سعداء في الواقع، ولكنهم لا يلحظون ذلك، لا يتقبلونه، لأنهم يعتقدون أنهم بعيدون جداً عن الحد الأقصى من الرخاء. إنه شيء شبيه لما يحدث لخائبي الأمل من المغارة الزرقاء. فالمغارة التي تصوروها هي مغارة حوريات، لا يعرفون جيداً كيف هي، ولكنهم يعرفون أنها مغارة حوريات؛ وعندما يصلون إليها يكتشفون أن كل المعجزة تتلخص في أن المرء يضع يديه في الماء فيراهما زرقاوين ومضيئتين قليلاً». مما لا شك فيه أنها تسعد برواية آراء أمها. وأعتقد أنها ترويها كقناعات لا يمكن لها الوصول إليها، ولكنها ترغب في الوقت نفسه، بحماسة، في امتلاكها. سألتها: «وأنت، كيف تشعرين؟ أتشعرين كما لو أنك ترين يديك زرقاوين ومضيئتين قليلاً؟» فأعادتها مقاطعتي هذه إلى الأرض، إلى اللحظة الخاصة التي يمثلها هذا اليوم. قالت: «لم أضعهما في الماء بعد»، ولكنها ابتسمت على الفور. لأن قولها قد يُفهم، بالطبع، على أنه دعوة، حتى لو نطقت به في تسرع لم تكن تقصده. لم يكن الذنب ذنبي، ولكن خسارتي المفاجئة كانت جاهزة. فقد نهضت واقفة، واستندت إلى الجدار، ثم سألتني بلهجة أرادت لها أن تكون لطيفة،

ولكنها كانت رادعة بصورة ظاهرة: «هل أستطيع أن أطلب منك أول معروف؟» فأجبتها وقد بدأت المخاوف تراودني: «يمكنك». «أتتركني أذهب اليوم، هكذا، دون أي شيء آخر؟ اليوم، فقط اليوم. وأعدك أن يكون كل شيء على ما يرام غداً.» أحسست بأنني خائب وأبله ومتفهم: «أتركك طبعاً. هذا أقل ما يمكن» ولكنه لم يكن أقل ما يمكن. وكيف له أن يكون كذلك.

الاثنين 24 حزيران (يونيو)

استيبان مريض. والطبيب يقول إن حالته قد تكون خطيرة. نأمل ألا تكون كذلك. وإنه مصاب بالتهاب غشاء الرئة أو شيء رئوي من هذا القبيل. وهو لا يعرف. ومتى يعرف الأطباء؟ دخلت بعد الغداء إلى غرفته لأرى كيف صارت حالته. كان يقرأ، وكان المذياع مفتوحاً. عندما رآني أدخل، أطبق الكتاب بعد أن ثنى الزاوية العليا للصفحة التي كان يقرؤها، ثم أطفأ المذياع وكأنه يريد أن يقول: «حسن، لقد انتهت حياتي الخاصة». تظاهرت بأنني لم أنتبه إلى ذلك. ولم أكن أعرف ما يمكنني أن أتحدث فيه معه. لم أعرف قطّ في أي أمر يمكنني التحدث مع استيبان. فأي موضوع نتحدث فيه، تكون نهايته المحتمة هي الدخول في جدال صاخب. سألني كيف تمضي مسألة تقاعدي. أظن أنها تسير بصورة جيدة. والواقع أنها لا يمكن أن تكون شديدة التعقيد. فمنذ زمن أعددتُ كل ما يلزم، ودفعت كل رسوم المعاملات المستحقة، ونظمت إضبارتي. «حسب ما قاله صديقك، فإن القضية

لن تكون طويلة». موضوع تقاعدي هو أحد أكثر الموضوعات تواتراً في أحاديثي مع استيبان. ثمة اتفاق مضمر في ما بيننا بإبقائه على اطلاع دائماً. ومع ذلك، فقد قمت اليوم بمبادرة: «حسن، حدثني قليلاً عن شؤونك، فنحن لا نتحدث في ذلك أبداً». «صحيح. لا بد أننا، أنت وأنا، مشغولان جداً على الدوام». «يبدو أن الأمر كذلك. ولكن، هل صحيح أن لديك عملاً كثيراً في مكتبك؟» سؤال أحمق وعابر. وكان الجواب متوقعاً، إلا أنني لم أتوقعه: «ماذا تعني؟ أتعني أننا نحن الموظفين الحكوميين جميعنا كسالى؟ أهذا ما تعنيه؟ طبعاً، فأنتم الذين تعملون في المؤسسات التجارية وحدكم من تتمتعون بامتياز الكفاءة والقدرة على العمل». أحسست بغضب مزدوج، لأني كنت مذنباً بالتحدث إليه. فقلت: «انظر، لا تغالِ كثيراً. لم أعنِ شيئاً من هذا الذي تقوله، بل إنني لم أفكر فيه. إنك نزق مثل عانس. أو أنك تشعر في قرارة نفسك بأن ما قلته صحيح». وخلافاً لما توقعت، لم يقل شيئاً مهيناً. لابد أن الحمى قد أضعفته. فقد وصل به الأمر إلى حدّ الاعتذار: «ربما كنتَ محقاً. إنني معكر المزاج دائماً. لا أدري. كما لو أنني أشعر بعدم ارتياح من نفسي». إن اعتبار هذا الكلام بوحاً، وخارجاً من جانب استيبان، يكاد يكون مبالغة. أما النظر إليه كنقد ذاتي، فأرى أنه قريب جداً من الحقيقة. منذ زمن وأنا أشعر أن منهج استيبان لا يتوافق مع ضميره. «ما رأيك في أن أتخلى عن الوظيفة العامة؟». «الآن؟». «حسن، ليس الآن. عندما أشفى، إذا كنت سأشفى. فقد قال الطبيب إنني قد أحتاج إلى بضعة أشهر». «وما سبب هذا التحول المفاجئ؟». «لا تسألني كثيراً. ألا يكفيك

أنني أريد التغيير؟». «بلى، يكفـيني. إنك تسعدني جداً بهذا. الشيء الوحيد الذي يقلقني هو أنك إذا طلبت إجازة مرضية، فإن الحصول عليها أسهل حيث أنت الآن». «وأنت، هل طردوك من عملك عندما أصبت بالتيفوس؟ أليس صحيحاً أنهم لم يفعلوا ذلك؟ وقد تغيبتَ عن العمل حينذاك ستة شهور». الحقيقة أنني كنت أعارضه لمجرد المتعة فـي سماعه يزداد تشبثاً بموقفه. «الشيء الأساسي، الآن، هو أن تشفى. وبعد ذلك سنرى». عندئذ بدأ حديثاً مطولاً عن نفسه، وعن محدودية تطلعاته، وآماله. وكان حديثاً طويلاً جداً حتى إنني وصلت إلى المكتب فـي الثالثة والربع، وكان عليّ أن أعتذر من الوكيل على ذلك التأخير. لقد كنت أسمعه بجزع. ولكنني شعرت بأنه لا حق لي فـي مقاطعته. فقد كانت المرة الأولى التي يقدم فـيها استيبان اعترافاته، ولم أستطع أن أخيب أمله. وبعد أن انتهى من كلامه، تحدثتُ أنا. قدمت إليه بعض النصائح، ولكن بصورة فضفاضة جداً، ودون تحديد. لم أشأ أن أخيفه. وأظن أنني لم أخفه. وعندما هممت بالانصراف، ربتُّ على ركبته التي كانت مرتفعة تحت اللحاف. وقد ابتسم لي. رباه، لقد بدا لي وجهه كوجه شخص غريب. أيكون ذلك ممكناً؟ وكان من جهة أخرى غريباً يفـيض باللطف. وهو ابني. يا للروعة.

كان عليّ أن أتأخر فـي المكتب، وأن أؤخر بالتالي «شهر عسلي».

الثلاثاء 25 حزيران (يونيو)

عمل كثير. سأؤجل الأمر إلى الغد.

الأربعاء 26 حزيران (يونيو)

كان علي أن أعمل حتى العاشرة ليلاً. إنني أنفجر غيظاً بكل معنى الكلمة.

الخميس 27 حزيران (يونيو)

أظن أن اليوم هو آخر أيام العمل المكثف. لم أرَ في حياتي قط طلب تقارير معقدة وعديمة الجدوى مثلما رأيت اليوم. ثم إنه لا بد لنا فوق ذلك من إنجاز الميزانية.

لحسن الحظ أن استيبان أمضى اليوم دون ارتفاع في الحرارة.

الجمعة 28 حزيران (يونيو)

أخيراً استطعتُ الخروج من المكتب في الساعة السابعة والنصف، وذهبت إلى الشقة. كانت قد سبقتني إلى هناك، وقد فتحت الباب بمفتاحها وجلست تنتظرني. عندما وصلت استقبلتني بسعادة، دون عوائق، وبقبلة مرة أخرى. أكلنا. تحدثنا. ضحكنا. مارسنا الحب. كل شيء مضى على ما يرام، لدرجة أنه لا يستحق أن أكتب عنه. إنني أصلي: «فليستمر هذا الوضع» ولكي أضغط على الرب، سألمس خشباً لا قوائم له.

السبت 29 حزيران (يونيو)

يبدو أن حالة استيبان ليست خطرة جداً. فالصورة الشعاعية

والتحاليل قد كذبت الطبيب وفأله السيئ. إنه شخص يحب الترويع، والإعلان على الأقل عن اقتراب تعقيدات بالغة وأخطار مبهمة وحتمية. وفي ما بعد، إذا كان الواقع مخالفاً لتلك الصورة الرهيبة، يسود شعور كبير بالفرج. ومشاعر الفرج الأسرية هي، عادة، أفضل الأجواء الممكنة لدفع فاتورة باهظة دون منغصات، بل وبامتنان أيضاً. فعندما يسأل أحدنا الدكتور، بتذلل، وبما يشبه الخجل، وبشعور واضح بالحرج لتعرضه لموضوع مبتذل وتافه أمام من يضحي بحياته ووقته من أجل صحة الآخرين: «كم هي أتعابك يا دكتور؟»، يجيب الطبيب دائماً، مرفقاً كلماته بحركة ضيق سخية ومتفهمة: «أرجوك يا صديقي، سيكون لدينا متسع من الوقت للحديث في هذا الشأن. لا تتسرع، فلن تواجه معي أية مشكلة على الإطلاق». ولكي ينقذ الوقار الإنساني من تلك الحفرة الموحلة، فإنه يسارع إلى تغيير الموضوع، ويمضي في تقديم شرح أكاديمي حول الحساء الذي يجب أن يتناوله الناقه غداً. وأخيراً، عندما يحين وقت الحديث في ذلك الشأن، تأتي فاتورة الحساب المثقلة وحدها، بالبريد، ويصاب أحدنا بالذهول وهو يرى الرقم، ربما لأن الابتسامة البشوشة والأبوية والفرنسيسكانية لشهيد العلم المتقشف ذاك، لا تكون حاضرة.

الأحد 30 حزيران (يونيو)

يوم كامل لنا، منذ الفطور حتى آخر النهار. لقد جئتُ جزعاً لأتحقق وأتأكد من كل شيء. ما فعلناه يوم الجمعة كان حدثاً وحيداً، ولكنه كان

جارفاً. انقضى كل شيء بسرعة كبيرة، وبصورة طبيعية جداً، وبسعادة كبيرة، حتى إنني لم أستطع تسجيل أي ملاحظة ذهنية. فعندما يكون المرء في بؤرة الحياة، يصعب عليه أن يفكر برصانة. وأنا أريد أن أفكر، وأن أُقوّم، بأكثر صورة تقريبية ممكنة، هذا الشيء الغريب الذي يحدث لي، وأن أتعرف على ملامحي الخاصة، وأن أعوض عما عانيته من نقص في شبابي بسبب مبالغتي في مسألة الضمير. ومن بين التفاصيل التي أود التأكد منها هناك نبرة صوتها، تلونات صوتها، ابتداء من أقصى الصراحة حتى التكلف الساذج؛ وهنالك جسدها الذي لم أره افتراضياً، ولكنني استطعتُ اكتشافه، لأنني فضلت، متعمداً، أن أدفع هذا الثمن مقابل أن أشعر باسترخاء توترها، وأن يتراجع تحفز أعصابها مفسحاً المجال للحواس؛ فضلتُ أن تكون الظلمة مطبقة فعلاً، وتحريت لذلك عن كل فجوة يتسرب منها الضوء، لعل كل رعشة خجل أو خوف أو أي شيء آخر لديها، تتحول تدريجياً إلى رعشات من نوع آخر، أكثر دفئاً، وأكثر طبيعية، وأكثر اتفاقاً مع الاستسلام. لقد قالت لي اليوم: «إنني سعيدة لأن كل شيء قد مضى» وكانت تبدو، من اندفاع كلماتها وبريق عينيها، أنها تشير إلى امتحان، أو إلى مخاض، أو إلى هجوم، أو إلى أي شيء آخر أشد خطورة ومسؤولية من عملية ممارسة الحبّ البسيطة والعادية واليومية بين رجل وامرأته؛ وهي عملية أكثر بساطة وعادية. «بل أقول لكَ إنني لا أشعر بالذنب، وبأنني طاهرة من الخطيئة» ولا بد أني قمت بحركة تنم عن نفاد الصبر، لأنها أوضحت في الحال: «أنا أعرف أنك لن تستطيع فهم هذا، لأنه شيء لا تتسع له عقول الرجال الراجحة. فممارسة الحب بالنسبة إليكم هي مجرد إجراء عادي،

شيء أشبه بقضاء حاجة صحية، ونادراً ما تكون مسألة ضمير. إنكم تُحسدون على قدرتكم على عزل هذا التفصيل الذي يسمى «الجنس» عن الأشياء الجوهرية الأخرى، عن كل مناطق الحياة الأخرى. وأنتم أنفسكم من اخترعتم تلك البدعة القائلة إن الجنس هو كل شيء في المرأة. ابتدعتموها ثم شوهتموها، حولتموها إلى صورة كاريكاتيرية لما تعنيه في الواقع. وعندما تقولون ذلك تفكرون في أن المرأة طالبة متعة متمادية بطبعها. فالجنس كل شيء في المرأة، يعني: حياة المرأة كلها، بتبرجها، وبفنونها في الخداع، وبورنيشها الثقافي، ودموعها الجاهزة، بكل أجهزة إغوائها لمهاجمة الرجل وتحويله إلى متعهد إشباع لحياتها الجنسية، ومتطلباتها الجنسية، وطقوسها الجنسية». كانت تتكلم بحماسة، حتى إنها بدت غاضبة مني. فقد كانت تنظر إليّ بسخرية مفعمة بالثقة بالنفس، تبدو معها كأنها القيّمة على كل الكرامة الأنثوية في هذا العالم. سألتها: «أليس هنالك ما هو صحيح في هذا؟»، وكان سؤالي لمجرد استفزازها، لأنها كانت تبدو جميلة جداً في موقفها العدواني. «هنالك شيء صحيح، إنه صحيح أحياناً. وأعرف أن هنالك نساء هكذا، ولسن إلا هكذا. ولكن هناك أخريات، الأغلبية، وهن لسن كذلك؛ وأخريات كثيرات، بالرغم من أنهن كذلك، إلا أنهن أشياء أخرى أيضاً، إنهن كائن بشري معقد، أناني، ومفرط في حساسيته. ربما كان صحيحاً أن الأنا الأنثوية هي مرادف للجنس، ولكن لا بد من معرفة أن الجنس لدى المرأة يتطابق مع الضمير. وهنا يمكن أن تكون الخطيئة الكبرى، والسعادة الفضلى، والمشكلة العويصة. إنها كائن مختلف جداً بالنسبة لحضراتكم. قارن، إذا شئت، بين حالة عانس وحالة

رجل أعزب متقدم في السن، وهما حالتان يمكن اعتبارهما ظاهرياً غريبتين ومتشابهتين.. حالتا إحباط متوازيتان. ما هي ردود فعل كل منهما؟» أخذتْ نفساً عميقاً ثم تابعت:

«بينما تتحول العانس إلى امرأة ضجرة، وأقل أنوثة يوماً بعد يوم، ومهووسة، وهستيرية، ومهزوزة الشخصية؛ يتجه العازب كبير السن بالمقابل نحو الخارج، فيجعل من نفسه ظريفاً، صاخباً، وعجوزاً متصابياً. كلاهما يعاني الوحدة، ولكن الوحدة بالنسبة إلى الرجل العازب هي مجرد مشكلة حضور بيتي، وسرير فردي؛ أما بالنسبة للعانس، فالوحدة هي ضربة هراوة على الرقبة». كان تصرفاً في غير محله من جانبي، ولكنني ضحكت في تلك اللحظة. فأوقفتْ خطبتها ونظرت إليّ بفضول. قلت لها: «بدا لي ظريفاً سماعك تدافعين عن العوانس. إنني معجب، ومذهول في الوقت نفسه، لرؤيتك منهمكة هكذا في صياغة نظريتك. لا بد أنك ورثتِ هذا عن أمك. هي لديها نظريتها عن السعادة؛ وأنت أيضاً لديك نظريتك، وربما يمكن تسميتها «نظرية العلاقة بين الجنس والضمير لدى المرأة العادية». أما الآن، فأخبريني من أين جئت بقولك إن الرجال يفكرون بهذه الطريقة، وإن الرجال هم الذين ابتدعوا هذه الحماقة الصحية بأن الجنس هو كل شيء في المرأة؟» بدا على وجهها الإحساس بالخجل، وإدراكها أنها محاصرة: «وما أدراني. هناك من قال لي ذلك. أنا لستُ عالمة. ولكن إذا لم يكن مَن ابتدع ذلك رجل، فإنه جدير بأن يبتدعه رجل». لقد عدت أتعرف إليها الآن بهذا التملص الذي يشبه تهرب طفلة وجدت نفسها مكشوفة فلجأت إلى مداورة ساذجة ظاهرياً لمجرد الاعتذار. إن

اندفاعاتها الأنثوية لا تهمني كثيراً فـي نهاية المطاف. فقد قالت ذلك كله كي تفسر لي السبب فـي عدم شعورها بالذنب. حسن، هذا هو المهم، ألا ترى نفسها مذنبة، وأن يسترخي توترها، وأن تشعر بالطمأنينة بين ذراعيّ. وما سوى ذلك ليس إلا زخرفاً وتبريرات، من الممكن أن تكون كذلك أو لا تكون، وهذا سيّان لدي. فإذا كانت راغبة فـي الإحساس بأن لديها مسوغاتها، وإذا أرادت أن تحوّل ذلك كله إلى مسألة ضمير جدية، وأرادت الحديث عنها، وأرادتني أن أتحمل، وأن أسمعها وهي تقول ذلك، فلا مانع لدي، فلتقل ما تشاء وسأستمع إليها. إنّ اتقاد خديها بالحماسة يجعلها جميلة جداً. كما أنه ليس صحيحاً أن المسألة ليست مسألة ضمير بالنسبة لي أيضاً. لا أذكر فـي أي يوم كتبتُ ذلك، ولكنني متأكد من أنني قد كتبت شيئاً عن ترددي. وهل التردد إلا أحد الأشكال المواربة للضمير؟

لكنها عظيمة. فقد صمتت فجأة، تركت اندفاعها النضالي كله جانباً، ونظرت إلى المرآة، ليس بغنج وإنما كمن تسخر من نفسها، ثم جلست على السرير، ونادتني: «تعال، اجلس هنا، إنني حمقاء أضيع الوقت بمثل هذه الخطبة، مع أنني أعرف أنك مختلف عن الآخرين. وأعرف أنك تفهمني، وأنك تدرك الأسباب التي تجعل الأمر فـي نظري مسالة ضمير حقيقية». وكان عليّ أن أكذب وأقول: «طبعاً أدرك ذلك». ولكنها كانت بين ذراعي حينئذ، وكانت هناك أشياء أخرى للتفكير فـيها، ومشاريع قديمة لتنفـيذها، ومداعبات جديدة نقوم بها.

إن لمسائل الضمير جانبها الرقيق أيضاً.

الأربعاء 3 تموز (يوليو)

أكاد لا أصدق، ولكنني لم ألتق آنيبال منذ عودته من البرازيل، في بداية شهر أيار. لقد اتصل بي أمس وأسعدني بذلك. إنني بحاجة إلى التحدث مع أحد، إلى الثقة بأحد. فقد انتبهت عندئذ فقط إلى أنني أحتفظ بموضوع أبيّانيدا كله لنفسي، ولم أتكلم عنه إلى أحد. وهذا يمكن تفسيره. فمع من يمكنني أن أتحدث فيه؟ مع أبنائي؟ مجرد تخيل ذلك يبعث القشعريرة في بدني. هل أتحدث فيه مع بيغنالي؟ إنني أتصور غمزة الخبث التي سيوجهها إليّ، وتربيته على كتفي، وابتسامة التواطؤ التي سيُظهرها، وسأتوخى التحفظ على الفور في التحدث إليه. هل أتحدث مع زملائي في العمل؟ إن الإقدام على ذلك سيكون خطوة مرعبة في الطريق غير الصحيح، وسيؤدي في الوقت ذاته، بكل تأكيد، إلى تخلي أبيّانيدا عن العمل في المكتب. وحتى لو لم تكن تعمل معنا، فلست أظن أن لدي القدرة للتحدث عن نفسي في هذه الأحوال. ففي المكاتب لا وجود للأصدقاء؛ هناك أشخاص يتقابلون كل يوم، ويتميزون غيظاً معاً أو على انفراد، ويروون الدعابات ويحتفون بها، ويتبادلون شكواهم وينقلون عدوى سخط بعضهم إلى البعض، ويتهامسون عن مجلس الإدارة بصورة عامة، ولكنهم يتملقون كل مدير على انفراد. هذا كله يسمى تعايش، ولكن التعايش قد يصل إلى الظهور بمظهر الصداقة بصورة سرابية فقط. وأعترف بأن أبيّانيدا هي حالة التعاطف الحقيقي الأولى التي أحسست بها خلال سنوات

حياتي المكتبية الطويلة. وما سوى ذلك كان محكوماً بنقيصة العلاقة غير المختارة، والرابطة التي تفرضها الظروف. فما هو الشيء المشترك الذي يجمعني بمونيوث أو ميนديث أو روبليدو؟ ومع ذلك، فإننا نضحك معاً أحياناً، وقد نتناول كأساً معاً أيضاً، ونتعامل بلطف في ما بيننا. ولكن كل واحد منا، في العمق، مجهول من جانب الآخرين، لأن الحديث في مثل هذا النوع من العلاقات السطحية يدور عن أشياء كثيرة، ولكنه لا يتناول الأشياء الحيوية مطلقاً، ولا يتعرض أبداً للأشياء المهمة والحاسمة حقاً. وأظن أن العمل هو الذي يحول دون قيام نوع آخر من الثقة؛ العمل، هذا النوع من الطرق المتواصل، أو من المورفين أو الغاز الخانق. لقد اقترب مني أحدهم ذات مرة (مونيوث بالتحديد) ليبدأ حديثاً صريحاً حقاً. وقد بدأ التكلم، بدأ بإجمال الخطوط البارزة في شخصيته بصراحة، بدأ بتلخيص حدود مأساته، تلك المأساة المتواضعة، الراهنة، المحيرة التي تثقل حياة كل واحد منا، مهما بلغ شعوره بأنه رجل عادي. ولكن هناك دائماً من ينادي من وراء الحاجز الخشبي. ويكون على الموظف أن يشرح لزبون آخر متأخر في الدفع عدم ملاءمة ذلك، ويوضح له عقوبة التأخر، ويناقشه، ويصرخ قليلاً، ولا بد أنه يشعر بالمذلة. وعندما ينتهي ويرجع إلى منضدتي، ينظر إليّ، ولا يقول شيئاً. يقوم بالجهد العضلي اللازم للابتسام، ولكن جانبيّ فمه يميلان إلى أسفل. عندئذ يتناول استمارة قديمة، ويكورها في قبضته بذمة، ثم يلقي بها إلى سلة المهملات. إنه مجرد استبدال بسيط؛ فما لا يعود منه نفع، ما يُلقى إلى سلة المهملات، هو تلك المُسارّة. أجل، العمل يكمم فم الثقة. ولكن هناك السخرية أيضاً. جميعنا اختصاصيون في السخرية.

فلابد من طريقة ما لتصريف الاستعداد المسبق للاهتمام بالآخرين؛ ومن دون ذلك يتكيَّس أحدنا ويصاب برهاب الحبس، والعصاب، ولست أدري بأية أشياء أخرى. ولأننا لا نملك الشجاعة الكافية، ولا الصراحة الكافية للاهتمام بمودة بالآخر (ولست أعني الآخر الغامض، التوراتي الذي لا ملامح له؛ وإنما الآخر الذي له اسم ولقب، الآخر القريب منا، من يكتب على المنضدة المقابلة لمنضدتي، ويمد لي صحيفة حسابات الفوائد لأدققها وأوقّع بالمصادقة عليها بالحروف الأولى)، وبما أننا نرفض الصداقة بإرادتنا، فلا بأس إذن بأن نهتم، ساخرين، بهذا الجار الذي يظل أمامنا ثماني ساعات يومياً. ثم إن السخرية تضفي نوعاً من التضامن. فالمرشح المختار للسخرية اليوم هو هذا، وغداً يكون ذاك، وبعده سأكون أنا. المختار للسخرية يلعن الساخرين بصمت، ولكنه لا يلبث أن يخضع لقدره، فهو يعرف أن ذلك ليس إلا جزءاً من اللعبة، وأنه في المستقبل القريب، ربما بعد ساعة أو ساعتين، قد يختار طريقة الثأر التي تتناسب مع ميوله. أما الساخرون من جهتهم، فيشعرون بالتضامن والحماسة والظرف. وكلما أضاف أحدهم توابل جديدة إلى السخرية، احتفى به الآخرون، وتبادلوا الإيماءات، وأحسوا بشبق التواطؤ، ولم يعد ينقصهم إلا أن يعانق بعضهم بعضاً ويطلقوا صيحات النصر. وكم هو مريح الضحك، حتى عندما يضطر أحدنا إلى كبح ضحكه لأن الوكيل قد ظهر من الجهة الأخرى، بوجهه الأحمر مثل بطيخة. فالضحك هو ثأر من الروتين، ومن أوراق المعاملات، ومن هذا القدر المحتوم الذي يعنيه البقاء ثماني ساعات متورطاً في شيء لا أهمية له، في شيء يضخم الحسابات المصرفية لأولئك الناس الذين لا نفع فيهم، ممن يرتكبون

الخطايا لمجرد العيش، لمجرد البقاء أحياء، أولئك التافهين الذين يؤمنون بالرب لأنهم يجهلون أن الرب قد تخلى عن الثقة بهم منذ زمن بعيد. السخرية والعمل. وهل هنالك من فرق بينهما في نهاية المطاف؟ يا لسخرية هذا العمل، ويا له من نكتة سيئة.

الخميس 4 تموز (يوليو)

تحدثتُ مطولاً مع آنيبال. إنها المرة الأولى التي أذكر فيها اسم أبيّانيدا أمام أحد، أعني المرة الأولى التي أذكره فيها بالمعنى الحقيقي الذي يمثله هذا الاسم لي. وفي إحدى اللحظات، بينما كنت أروي قصة علاقتي بها، بدا لي كأنني أرى القضية كلها من الخارج، مثل مراقب مهتم بعمق. وقد استمع إليّ آنيبال باهتمام ديني. «ولماذا لا تتزوجان؟ لا أفهم جيداً طبيعة هذا التردد الذي يساورك». لم أصدق عدم فهمه، فكل شيء واضح تماماً. عودة إلى الشرح، إلى كليشيه الشرح التي أقدمها منذ البداية: سني، وسنها؛ ما سأكونه بعد عشر سنوات، وما ستكونه هي بعد عشر سنوات؛ سعيي إلى عدم إلحاق الضرر بها، وسعيي من جهة أخرى إلى عدم الظهور بمظهر مضحك؛ ومتعة الحاضر؛ وأبنائي الثلاثة...الخ. «وهل تظن أنك لا تضر بها هكذا؟». طبعاً، هذا لا مفر منه، ولكن الضرر أقل على كل حال مما لو كانت مقيدة. «وما الذي تقوله هي؟ أهي موافقة؟». هذا ما يمكن تسميته بالسؤال غير المريح. لا أعرف إذا كانت موافقة. لقد قالت في حينه نعم، ولكنني لا أعرف في الحقيقة إذا كانت موافقة. ألا يكون من الممكن أنها تفضل الوضع المستقر،

المستقر والموثّق رسمياً؟ أأدعي أنني أفعل ذلك من أجلها وأنا أفعله في الواقع من أجلي أنا بالذات؟ وسألني: «هل ما تخشاه هو الظهور بمظهر المضحك أم شيء آخر؟» لا شك في أنه مصمم على وضع إصبعه على الجرح. «ما الذي تعنيه بهذا؟». «طلبت مني أن أكون صريحاً، أليس كذلك؟ وما أعنيه هو أن المشكلة كلها، كما تبدو لي، واضحة تماماً: كل ما في الأمر هو أنك تخشى أن تُركِّب لكَ قروناً بعد عشر سنوات».

يا لبشاعة مواجهة أحدنا بالحقيقة، وخاصة إذا كانت من الحقائق التي يتفادى المرء قولها لنفسه في مناجياته الصباحية مع نفسه، عندما يستيقظ ويدمدم بحماقات مريرة وشديدة القسوة ومثقلة بالحقد على النفس، وهي حماقات لا بد من التخلص منها واستبعادها قبل الاستيقاظ التام، واستبدالها بالقناع المعهود الذي سيرانا فيه الآخرون، وسنرى الآخرين من خلاله طول النهار. أأخاف إذن من أن تضع لي قرنين بعد عشر سنوات؟ لقد رددتُ على آنيبال بكلمة بذيئة. ولكن ما هو رد الفعل الذكري التقليدي عندما يعامل الناس أحدهم كذي قرنين، حتى ولو كان ذلك بعيد المدى. ولكن الشك ظل يدور في رأسي، وحتى في هذه اللحظة، وأنا أكتب هذا الكلام، لا أستطيع التخلص من الإحساس بأنني أقل كرماً، وأقل توازناً، وأكثر بذاءة وجفاء مما كنتُ عليه.

السبت 6 تموز (يوليو)

هطل المطر مدراراً بعد ظهر اليوم. مكثنا واقفين عشرين دقيقة في أحد الأركان ننتظر توقف المطر، وكنا نتأمل الناس الراكضين

بخمود. ولكنا بدأنا نشعر بالبرد، ورحت أعطس بانتظام متوعد. كان الحصول على سيارة أجرة ضرباً من المستحيل. وكنا على بعد شارعين من الشقة، فقررنا الذهاب سيراً على الأقدام. والحقيقة أننا ركضنا أيضاً، وكأن مسّاً قد أصابنا. ووصلنا إلى الشقة في ثلاث دقائق مبللة. بقيتُ منهوكاً لبعض الوقت، ملقى كشيء غير ذي قيمة على السرير. ولكنني استجمعت قبل ذلك ما يكفي من القوة لأبحث عن دثار وألفها به. كانت قد خلعت سترتها التي يقطر الماء منها، وكذلك تنورتها التي صارت في حالة يرثى لها. وشيئاً فشيئاً بدأتُ أستريح، ثم سرى الدفء في أوصالي بعد نصف ساعة. فذهبت إلى المطبخ، وأشعلت موقد البريموس لأسخن عليه ماء. نادتني من غرفة النوم. كانت قد نهضت، هكذا، وهي ملفوفة بالدثار، ووقفت إلى جانب النافذة تراقب هطول المطر. دنوت منها، ونظرت أنا أيضاً إلى المطر. لم نقل شيئاً للحظات. وأدركت فجأة أن تلك اللحظة، تلك البرهة من الحياة اليومية، هي أقصى درجات الرخاء، وأنها السعادة. فأنا لم أشعر بالسعادة الغامرة في حياتي مثلما شعرت بها في تلك اللحظة، ولكن تملكني في الوقت نفسه إحساس جارح بأنني لن أعود إلى الشعور بها أبداً، بمثل هذه الحدّة وهذا الزخم على الأقل. إنها الذروة، والذروة هي هكذا، إنها هكذا بالطبع. أضف إلى ذلك أنني متأكد من أن الذروة هي ثانية واحدة، برهة قصيرة، وميض عابر، وليس لأحدنا الحق في إطالة أمدها. كان في الأسفل ثمة كلب يمشي دون إسراع، وعلى عينيه غمامة، مستسلما لما لا مناص منه. وفجأة، رفع إحدى قوائمه مستجيباً لإلهام غريب، ثم واصل بعد ذلك مشيه الهادئ. الحقيقة أنه

بدا في توقفه وكأنه يريد التأكد من استمرار هطول المطر. نظر كل منا إلى الآخر في اللحظة نفسها، وانفجرنا في الضحك. خيل إليّ أن السحر قد انفك، وأن الذروة الشهيرة قد انقضت... ولكنها كانت معي، أستطيع الإحساس بوجودها، ملامستها، تقبيلها. ويمكنني أن أقول لها بكل بساطة: «أبيّانيدا». و«أبييانيدا» هي فوق ذلك عالم من الكلمات. فأنا أتعلم حقن هذا الاسم بمئات المعاني، وتتعلم هي أيضاً التعرف على تلك المعاني. إنها لعبة نمارسها معاً. فعندما أقول في الصباح: «أبييّانيدا»، يكون المعنى: «صباح الخير». (وهنالك «أبييّانيدا» تعني العتاب، وأخرى تعني التنبيه، وغيرها للاعتذار). ولكنها تتعمد عدم فهم المعنى المقصود أحياناً لتُغضبني. فعندما أقول «أبييّانيدا» التي تعني: «فلنمارس الحب»، ترد هي بتجبر: «أترى أنه عليّ أن أذهب الآن؟ ولكن الوقت ما زال مبكراً!» آه، يا للأزمنة القديمة التي لم تكن فيها «أبييانيدا» إلا مجرد كنية، كنية المعاونة الجديدة (قبل خمسة شهور فقط كنت قد دونت في هذه المذكرات: «لا يبدو أن لدى الفتاة رغبة كبيرة في العمل، لكنها تفهم ما يشرحه لها أحدنا على الأقل»)، والبطاقة التي تحدد تلك الشخصية ذات الجبهة العريضة والفم الكبير التي كانت تنظر إليّ باحترام بالغ. ها هي ذي الآن قبالتي، ملتفة بدثارها. لست أذكر كيف كانت عندما بدت لي عديمة الفائدة، مكبوتة، ولطيفة فقط. إنني أتذكر كيف هي الآن وحسب: امرأة صغيرة شهية تجتذبني، وتبهج قلبي بصورة غير معقولة، وتغزوني. طَرَفتُ بعيني بوعي، حتى لا أتيح لشيء أن يعكر علينا. فأحاطها نظري عندئذ إحاطة أفضل من الدثار؛ والحقيقة أن تلك النظرة لم تكن

مستقلة عن صوتي الذي كان قد بدأ ينطق: «أبييَّانيدا». وقد فهمتني تماماً هذه المرة.

الأحد 7 تموز (يوليو)

يوم مشمس رائع، يكاد يكون خريفياً. ذهبنا إلى كاراسكو. كان الشاطئ مقفراً، ربما لأن الناس، في عز تموز[1]، لا يتحمسون لإظهار حسن الظن بالطقس. جلسنا على الرمل. إن الأمواج تصبح هائلة عندما يكون الشاطئ مقفراً، لأنها هي وحدها التي تتحكم عندئذ بالمشهد. وبهذا المعنى أتعرف إلى نفسي، وديعاً ومطواعاً بصورة محزنة. أرى هذا البحر الهائج والوقح، المتكبر بزبد أمواجه وجرأته، يكاد لا يدنسه سوى بعض طيور النورس الساذجة والتي تكاد تكون غير واقعية، فألوذ على الفور بتقدير غير مسؤول. وبعد ذلك مباشرة تقريباً، يتحلل ذلك التقدير وانتقل إلى الإحساس بأنني أعزل مثل محارة، أو مثل حصاة متدحرجة. هذا البحر هو شكل من أشكال الأبدية. فعندما كنتُ طفلاً، كانت أمواجه تتلاطم وتتلاطم، ولكنها كانت تتلاطم أيضاً عندما كان جدي طفلاً، وكذلك عندما كان جد جدي طفلاً. إنه حضور متحرك إنما دون حياة. حضور أمواج قاتمة بلا إحساس. شاهد على التاريخ، إنه شاهد غير مُجد لأنه لا يعرف شيئاً عن التاريخ. وماذا لو أن البحر هو الرب؟ سيكون شاهداً بلا إحساس، وحضوراً متحركاً بلا حياة. كانت أبييَّانيدا تتطلع إليه أيضاً، دون أن ترمش تقريباً، بينما شعرها يتطاير مع الهواء. «هل تؤمن بوجود الرب؟»، قالت لي ذلك كأنها تواصل الحوار الذي كنت

(1) لابد من التنويه إلى أن أحداث الرواية تجري في أروغواي، أي في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية حيث يكون شهر تموز في ذروة فصل الشتاء.

قد بدأته فـي ذهني. «لا أعرف، أنا أرغب فـي أن يكون الرب موجوداً. ولكنني لست متأكداً من وجوده. ولستُ متأكداً أيضاً مما إذا كان الرب، فـي حال وجوده، سيرضى بإيماننا الذي ينطلق من بعض المعطيات المتفرقة وغير المكتملة». «لكن الأمر واضح جداً. أنت تعقد الأمور لأنك تريد رباً ذا وجه، ويدين، وقلب. الرب هو تسمية عامة. ويمكن لنا أن نسميه أيضاً الكلّية. فالرب هو هذا الحجر، وهو حذائي، وهو ذلك النورس، وبنطالك، وتلك الغيمة، إنه كل شيء». «وهل يجتذبك هذا؟ هل يقنعك؟». «إنه يلهمني على الأقل، ويوحي لي بالاحترام». «أما أنا فلا. لأنني لا أستطيع أن أتصور الرب على أنه شركة مغفلة كبيرة».

الاثنين 8 تموز (يوليو)

لقد صار استيبان قادراً على النهوض. لكن مرضه خلّف لنا رصيداً طيباً، سواء له أو لي أنا. فقد أتيح لنا أن نتبادل الحديث الصريح مرتين أو ثلاث مرات، وكانت أحاديث صحية فعلاً. بل إننا تحدثنا فـي العموميات فـي إحدى المرات، ولكن بتلقائية، ودون أن يملي علينا الردود أي حنق متبادل.

الثلاثاء 9 تموز (يوليو)

أأنا خائف إذن من أن تُركِّب لي قروناً بعد عشر سنوات؟

الأربعاء 10 تموز (يوليو)

بيغنالي... لقد التقيت به فـي ساراندي. ولم أجد مفراً من الاستماع إليه. لم يكن سعيداً. وأنا كنت مستعجلاً، ولهذا تناولنا قهوة على منضدة الكونتوار. وهناك روى لي، بتلك المناجاة الصاخبة التي يمارسها، الفصل الجديد من غرامياته: «يا لسوء الحظ يا صديقي. لقد أمسكت بنا زوجتي، هل تلاحظ ذلك؟ لم تمسك بنا متلبسين كما يقال. كنا نتبادل القبلات فقط. ويمكنك أن تتصور الفضيحة التي أثارتها البدينة وهي تصرخ إن ذلك يحدث فـي بيتها، وتحت سقفها، ونحن نأكل خبزها. وأنا، زوجها بالذات، أحسست كما لو أنني صرصور. أما إلفـيرا فقد أخذت الأمر بمنتهى الهدوء، وخرجت بنظرية العصر القائلة: إننا، هي وأنا، عشنا على الدوام كأخوين، وإن ما رأته زوجتي هو تعبير عن ذلك بالضبط، مجرد قبلة أخوية. فأحسستُ حينئذ بأنني أعظم مرتكب للفحشاء بالمحارم، وأثارت البدينة شجاراً فظيعاً، وقالت: «ستكونان مخطئين إذا تخيلتما أنني سأبقى صامتة مثل فرانثيسكو الأبله» وأخبرت حماتي، والجيران، والبقال. وخلال ساعتين كان الحي كله يعرف أن تلك المجنونة أرادت خطف زوجها. أما إلفـيرا من جانبها، فتحدثت بغضب إلى فرانثيسكو، وقالت له إنهم يهينونها، وإنها لن تظل دقيقة واحدة فـي هذا البيت. وقد ظلت مع ذلك حوالي ثلاث ساعات، جعلتني فـي أثنائها أبدو قبيحاً جداً، بكل ما يحمله القبح من معنى. وتصور أن فرانثيسكو كان يرد على كل ما تقوله بنعم، لم يكن بالشخص الخطر على الإطلاق. لكن البدينة كانت تلح وتصرخ، وقد انقضَّت مرتين أو ثلاث مرات على إلفـيرا. وفـي إحدى لحظات الرعب تلك، قالت لها

إلفيرا... أراهن أنكَ لا تعرف ما الذي قالته له؟ قالت أي عقل يمكنه أن يصدق أنها ستلتفت إلى رجل تافه مثلي. هل تلاحظ؟ والأدهى هو أنها استطاعت إقناع الأخرى بحجتها هذه، وجعلت البدينة تهدأ. هل تلاحظ؟ أقسم لك إنني لن أغفر ذلك لإلفيرا. فلتذهب وحسب، هي وقوادها. فهي في الواقع ليست جميلة إلى الحدّ الذي كنت أظنه. ثم إنني الآن، وبعد أن لم أعد زوجاً وفياً، توصلت إلى أنه يمكن أن تكون لي بعض البرامج الغرامية الصغيرة الشبابية والطازجة. ولكن على ألا تكون لها علاقة بالبيت الأسري، فهو مكان مقدس على الدوام في نظري. وهكذا لا يخامر الشك البدينة أيضاً، يا للمسكينة».

السبت 13 تموز (يوليو)

إنها نائمة إلى جانبي. وأنا أكتب على ورقة منفصلة سأعيد استنساخها ليلاً في دفتر مذكراتي. الساعة الآن الرابعة بعد الظهر، نهاية القيلولة. لقد بدأتُ التفكير في إحدى المقارنات، وانتهيتُ إلى مقارنة أخرى. ها هو ذا جسدها، هنا بجانبي. الجو بارد في الخارج، لكن الحرارة هنا لطيفة، بل أقرب إلى الحر. يكاد جسدها أن يكون مكشوفاً، فالبطانية والملاءة قد انزلقتا نحو خاصرتها. رغبت في المقارنة بين هذا الجسد وذكرياتي عن إيزابيل. كانت تلك أزمنة أخرى دون شك. لم تكن إيزابيل نحيفة، وكان لنهديها حجمهما، ولهذا كانا يتهدلان قليلاً. وكانت سرَّتها غائرة، كبيرة، قاتمة، وذات حواف غليظة. وكان ردفاها على أحسن ما يرام، فهما أكثر ما كان يجتذبني

فـيها؛ وما زالت لدي ذكرى حسية من ردفـيها. وكان كتفاها ممتلئين، لهما بياض متورد. أما ساقاها فكانتا مهددتين بالإصابة مستقبلاً بالدوالي، ولكنهما جميلتان، مسكوبتان. ليس فـي هذا الجسد الذي إلى جواري أي ملمح مشترك مع ذاك. فأبيِّانيدا نحيلة، صدرها يثير فـيَّ بعض الشفقة، وكتفاها يغطيهما النمش، وسرّتها طفولية وصغيرة، أما ردفاها فهما على أحسن ما يرام (أم إن الأرداف تستثيرني دائماً؟)، وساقاها نحيلتان، ولكنهما جيدتان. ومع ذلك، فقد اجتذبني ذلك الجسد مثلما يجتذبني هذا الجسد. لقد كان لإيزابيل فـي عريها قوة ملهمة، فحين كنت أتأملها، كان كياني كله يتحول إلى جنس، ولم يكن هناك ما يجعلني أفكر فـي شيء آخر. أما عري أبييانيدا ففـيه تواضع صريح ولطيف وأعزل، فـيه انكشاف مؤثر. إنه يجتذبني بعمق، ولكن الجنس هنا هو جزء من الإيحاء فقط.. من النداء. لقد كان عري إيزابيل عرياً شاملاً، وربما أكثر نقاء. أما جسد أبييانيدا فهو عري مرفق بموقف. فمن أجل حب إيزابيل كان يكفـي الإحساس بالانجذاب إلى جسدها. أما حب أبييانيدا فـيستدعي محبة العري ومعه الموقف، لأن هذا الأخير هو نصف جاذبيتها على الأقل. لقد كان احتضان جسد إيزابيل يعني احتضان جسد متحسس لكل الانعكاسات البدنية وقادر أيضاً على الإتيان بكل الحوافز المباحة. أما احتضان جسد أبييانيدا بين ذراعيّ فـيعني أيضاً احتضان ابتسامتها، ونظرتها، وأسلوبها فـي الكلام، وفهرس رقتها، وتمنعها عن الاستسلام التام، واعتذارها عن هذا التمنع. حسن، هذه هي المقارنة الأولى. ولكن جاءت بعدها المقارنة الأخرى، وهي التي جعلتني أشحب وأفقد حماستي. إنها المقارنة بين جسدي

أيام إيزابيل وجسدي مع أبيبانيدا. يا للأسى! صحيح أنني لم أكن رياضياً في يوم من الأيام، ولينجني الله من ذلك. ولكن كانت لدي بعض العضلات، وبعض القوة، وكان ثمة جلد ناعم، مشدود. ولم يكن من وجود لأشياء كثيرة صارت موجودة الآن للأسف. ابتداء من الصلع غير المتوازن (فالجانب الأيسر من رأسي هو الأكثر إقفاراً)، والأنف الذي ازداد ضخامة، والرقبة المترهلة، وحتى الصدر الذي أصبحت فيه جُزر من الشعر المائل إلى الاحمرار، والبطن المنتفخ، والكاحلين الممتلئين بأوردة مصابة بالدوالي، وفطور القدمين المزعجة التي لا شفاء منها. وهذا كله لا يقلقني أمام أبيبانيدا، فقد عرفتني وأنا على هذه الحال، وهي لا تعرف كيف كنتُ في السابق. ولكنني أقلق له أمام نفسي، أقلق من التعرف على نفسي كشبح لشبابي، أو كصورة كاريكاتيرية لنفسي. وربما كان هناك ما يعوضني: إنه عقلي، وقلبي كذلك. وبكلمة جامعة، ربما كنت أنا نفسي، ككائن روحي، أفضل قليلاً مما كنتُ عليه في أيام إيزابيل ولياليها. أفضل قليلاً فقط، فمن غير المناسب أن أبالغ في الوهم. علينا أن تكون متزنين وموضوعيين، وأن نكون صريحين، أليس كذلك. والجواب: «هل يدخل هذا في الحساب؟» إذا كان للرب من وجود، فلا بد أنه يكرر رسم شارة الصليب هناك في الأعالي الآن. أما أبيبانيدا (آه، إنها موجودة فعلاً) فهي تحت نظري الآن، وقد أخذت تفتح عينيها.

الاثنين 15 تموز (يوليو)

ربما كان آنيبال محقاً، في نهاية المطاف، بأنني أنأى بنفسي عن الزواج لخوفي من الظهور بمظهر مضحك أكثر مما هو حماية مستقبل أبيبانيدا. وهذا غير جيد. لأن هناك شيئاً مؤكداً وهو أنني أحبها. وهذا أكتبه لنفسي فقط، لذا ليس مهماً إذا كانت له رنة متكلفة. إنه الحقيقة. نقطة وكفى. وأنا لا أريد لها بالتالي أن تعاني. كنت أظن (وهو ما كنت أظنه فعلاً) أنني أتجنب الوصول إلى وضع مستقر لكي تظل أبيّانيدا حرة دائماً، وكيلا تشعر بعد بضع سنوات بأنها مقيدة إلى عجوز هرم. وإذا تبين لي الآن أن ذلك لم يكن إلا ذريعة أتذرع بها أمام نفسي، بينما السبب الحقيقي هو نوع من الضمان ضد خدع مستقبلية، فإنه يجب تغيير كل بنية هذه العلاقة وكل هيكلها الخارجي. ربما كان عذابها، في هذا الوضع السري الذي له طابع مؤقت مهما طال أمده، أكبر من إحساسها بالارتباط بشخص يبلغ عمره ضعف عمرها. وأخيراً، فإن خوفي من الظهور بمظهر مضحك جعلني أسيء المحاكمة، وهذا سلوك مقرف من جانبي. أعرف أنها طيبة، وأن معدنها طيب، وأعرف أنها إذا أحبت أحدهم يوماً، فلن تبقيني في ذلك الجهل المهين المذل الذي يشكل إهانة للأزواج المخدوعين. فقد تخبرني بذلك، أو أنها ستجعلني ألمح التحول بطريقة ما، وسيكون لدي من صفاء الذهن ما يكفي لأن أفهم الأمر. ولكن، ربما يكون من الأفضل أن أفاتحها بذلك، وأن أجعلها تقرر بنفسها، وأن أساعدها على الإحساس بالأمان.

الأربعاء 17 تموز (يوليو)

كانت بلانكا حزينة اليوم. تناولنا العشاء، أنا وهي وخيمي، بصمت. وكان استيبان قد خرج من البيت أول مرة بعد مرضه. لم أقل شيئاً أثناء العشاء، لأني أعرف جيداً كيف سيكون ردّ فعل خيمي. وفيما بعد، عندما خرج من البيت، دون تحية وداع طبعاً (لأنه لا يمكن اعتبار الزمجرة التي أطلقها قبل أن يصفق الباب وراءه، بأنها «تصبحون على خير»)، واصلتُ قراءة الجريدة في غرفة الطعام، وقد تعمدت بلانكا التأخر في تنظيف المائدة. وكان عليّ أن أرفع الجريدة عالياً كي تتمكن هي من سحب السماط عن المنضدة، وعندئذ نظرتُ إليها. بدت عيناها وكأنهما تبكيان. فسألتها: «ماذا حدث لك مع خيمي؟» وقالت: «مع خيمي ومع دييغو؛ لقد تشاجرتُ مع الاثنين». كان جواباً شديد الإبهام. فلم أكن قادراً على تصور أن يتحالف خيمي ودييغو ضدها. «دييغو يقول عن خيمي إنه شاذّ. لهذا تشاجرت مع دييغو» لقد أصابتني تلك الكلمة بصفعتين: الأولى، لأنها موجهة إلى ابني. والصفعة الثانية لأن من قالها هو دييغو الذي أعقد عليه الآمال، وأثق به. قلت: «وهل يمكنني أن أعرف السبب الذي جعل محظوظك دييغو يسمح لنفسه بتوجيه هذه الإهانات؟». فابتسمت بلانكا بشيء من المرارة: «هذا هو الأسوأ. فالأمر ليس مجرد شتيمة. إنه الحقيقة. ولهذا السبب تشاجرت مع خيمي». من الواضح أن بلانكا كانت تجبر نفسها على الكلام وهي تقول ذلك كله، خاصة وأنني كنتُ الشخص الذي تتوجه إليه بتلك المكاشفة. وحتى أنا نفسي أحسست برنة زيف في صوتي عندما قلت: «وأنت، أتصدقين افتراءات دييغو أكثر مما تصدقين

كلام أخيك؟» فغضت بلانكا بصرها. وكانت تحمل في يدها حينئذ سلة الخبز. فبدت تجسيداً للأسى، أسى مؤثر وبيتي. وقالت: «إن خيمي نفسه يقول ذلك». لم أكن أظن حتى تلك اللحظة بأنه يمكن لعينيّ أن تنفتحا بمثل ذلك الاتساع الذي انفتحتا به، حتى إنني أحسست بألم في صدغيّ. وتلعثمت قائلاً: «أولئك الأصدقاء هم إذن...». فقالت بلانكا: «أجل». وكانت تلك الكلمة أشبه بضربة هراوة على الرأس. ولكنني لاحظت مع ذلك أنه كانت هناك في أعماقي بعض الشكوك المسبقة حول ذلك. ولهذا، لهذا فقط، لم أشعر بوقع جديد للكلمة في نفسي. ثم أضافت بلانكا قائلة: «سأطلب منك طلباً: لا تقل له أي شيء. إنه فاسد. أتعلم أنه لا يشعر بتأنيب الضمير؟ يقول إنه لا يميل إلى النساء، وإنه أمر لم يأت به من عنده، وإن لكل شخص طبيعة خصّهُ بها الله، وإن الله لم يمنحه القدرة على الشعور بالميل إلى النساء. إنه يبرر سلوكه بحماسة، وأؤكد لك أنه لا يشعر بأي عقدة ذنب». عندئذ قلتُ دون قناعة: «إذا ما هشمتُ رأسه بالضرب، فسترين كيف أنه سيشعر بعقدة الذنب». ضحكت بلانكا أول مرة هذه الليلة، وقالت: «لن تخدعني. أعرف أنك لن تفعل ذلك». حينئذ داخلني القنوط، قنوط رهيب لا أمل فيه. فالأمر يخص خيمي، ابني الذي ورث جبهته وفمه عن إيزابيل.

إلى أي مدى يصل ذنبي، وأين يبدأ ذنبه هو؟ صحيح أنني لم أفهم أبنائي كما ينبغي، ولم أستطع التعويض تعويضاً تماماً عن الأم. آه، ليست لدي ميول لأن أكون أماً. بل إنني غير متأكد من ميلي لأن أكون أباً. ولكن، ما علاقة هذا كله بوصوله إلى هذه النهاية؟ ربما كان بإمكاني

قطع تلك الصداقات في بدايتها. وربما لو فعلت ذلك لكان واصل اللقاء بهم دون علمي. قلت: «يجب أن أكلمه». ويبدو أن بلانكا قد استسلمت للمصيبة القادمة، فأضفتُ قائلاً لها: «وعليك أن تتصالحي مع دييغو».

الخميس 18 تموز (يوليو)

هناك موضوعان لا بد لي من إخبار أبييَّانيدا بهما، ولكننا لم نبق في الشقة إلا ساعة واحدة، فحدثتها عن خيمي فقط. لم تقل لي إنني بريء تماماً، وأنا أشكرها على ذلك. بيني وبين نفسي بالطبع. ولكنني أعتقد أنه إذا كان المرء متعفناً في الأصل، فليس هناك تربية قادرة على شفائه، وليست هناك عناية قادرة على إصلاحه. كان يمكنني بالطبع أن أفعل أكثر مما فعلت من أجله، وهذا صحيح وواضح لدرجة أنني لا أستطيع أن أشعر بالبراءة. ولكن، ما هو الشيء الذي أريده، وما هو الشيء الذي أفضله؟ أأريد له ألا يكون مخنثاً، أم أنني ببساطة أريد الإحساس بالتحرر من أي شعور بالذنب؟ كم نحن أنانيون، رباه، كم أنا أناني. حتى محاولة تصفية ضميري هي نوع من الأنانية، نوع من التمسك بالراحة، بالطمأنينة الروحية. أما خيمي فلم أره.

الجمعة 19 تموز (يوليو)

لم أره اليوم أيضاً. ولكنني أعرف أن بلانكا قد قالت له إنني أريد التحدث إليه. إن استيبان شديد العنف. ومن الأفضل ألا يعلم بالأمر. أم أنه قد علم به؟

السبت 20 تموز (يوليو)

بلانكا هي التي جاءتني بالمغلف، وكانت الرسالة تقول ما يلي: «عجوزي: أعرف أنك تريد التحدث معي، وأنا أعرف الموضوع مسبقاً. ستلقي عليّ موعظة أخلاقية، ولدي سببان لعدم قبول موعظتك. الأول، أنه ليس لدي ما أُؤنب نفسي عليه. والثاني، هو أنك أنت أيضاً لك حياتك السرية. لقد رأيتك مع البنية التي أوقعتك في شباكها، وأظن أنك توافقني على أن سلوكك هذا ليس بالطريقة المثلى للحفاظ على الاحترام اللائق بذكرى أمي. ولكن هذه هي حقيقة تزمتك أحادي الجانب. ولأن ما تفعله لا يعجبني، وما أفعله لا يعجبك، فإن أفضل حلّ هو أن أختفي من حياتكم. وهكذا يصبح الميدان خالياً أمامك. إنني راشد، فلا تقلق عليّ. وأظن أن انسحابي من حياتكم سيقربك أكثر من أخويّ، بلانكا تعرف كل شيء عني (لمزيد من المعلومات، يمكنك التوجه إليها)، أما استيبان فقد أخبرته مساء أمس، في مكتبه. ومن أجل طمأنتك، أريد أن أعترف لك بأنه تصرف كرجل كامل الرجولة، وجعل إحدى عيني تتورم وتصطبغ بالسواد. لكن عيني الأخرى المفتوحة تكفيني لرؤية المستقبل (وهو ليس بالمستقبل السيئ، وسترى ذلك) ولأتوجه بالنظرة الأخيرة إلى أسرتي المؤدبة جداً، والأصولية جداً. تحياتي، خيمي» أعطيت الورقة لبلانكا. فقرأتها بتمعن وقالت: «لقد أخذ أشياءه صباح اليوم». وكانت شاحبة عندما أضافت: «وهذا الذي يقوله عن المرأة، هل هو صحيح؟» قلت: «نعم ولا. صحيح أن لي علاقة بامرأة، صبية تقريباً. وأنا أعيش

معها. وليس صحيحاً بالمقابل أن ذلك يعني الإساءة إلى ذكرى أمك. أظن أن لي الحق في الحب. حسن، وقد أحببت هذه الفتاة. ولم أتزوج منها إلا لأنني لستُ واثقاً مما إذا كان الزواج هو الوضع المناسب فقط». ربما كانت هذه الجملة الأخيرة زائدة عن اللزوم. كانت تزم شفتيها بشدة. وأظن أنها كانت مترددة ما بين نوع من العودة إلى أصلها الأسري وبين معنى شديد البساطة لما هو إنساني. سألتني بجزع: «ولكن، هل هي طيبة؟». قلت: «نعم، إنها طيبة». فتنفست بلانكا الصعداء. إنها لاتزال تثق بي. وتنفست أنا كذلك الصعداء عندما شعرت بأنني قادر على استثارة مثل هذه الثقة فيها. وعندئذ قلت مستجيباً لإلهام مفاجئ: «هل يمكنني أن أطلب منك أن تتعرفي إليها؟». فقالت: «هذا ما كنت سأطلبه منك أنا نفسي». لم أعلق بشيء، لكن الامتنان كان في حنجرتي.

الأحد 21 تموز (يوليو)

«ربما كنت أفضل ذلك في البداية، عندما بدأت علاقتنا. أما الآن، فأظن أني لا أميل إليه». إنني أدون هذه الكلمات قبل أي شيء آخر، لأني أخشى أن أنساها بحرفيتها. لقد كان هذا هو ردها. فقد كلمتها هذه المرة بكل صراحة؛ ناقشنا موضوع الزواج حتى أحطناه من كل جوانبه. «قبل مجيئنا إلى هنا، إلى الشقة، أدركتُ أنكَ تجد صعوبة في نطق هذه الكلمة. لقد قلتها لي يوماً، عند مدخل بيتي، وأنا شاكرة لك لأنك قلتها. فقد أفادتني في اتخاذ قرار تصديقك، وتصديق عاطفتك. لكنني لم أستطع قبولها، لأنني رأيت أنها ستكون ركيزة زائفة لهذا

الحاضر الذي كان لا يزال مستقبلاً في ذلك الحين. فلو أني قبلتها لكان علي أن أقبل لكَ أيضاً أن تنحني، وأن تضطر إلى اتخاذ قرار لم تكن مستعداً له. فانحنيت أنا بالمقابل. لأنه يمكنني بذلك، كما هو منطقي، أن أكون أكثر ثقة بردود أفعالي من ثقتي بردود أفعالك. فأنا أعرف أنني لن أكنّ لك الضغينة بانحنائي؛ أما إذا أجبرتك على الانحناء، فإنني لا أعرف بالمقابل إذا ما كنت ستشعر بشيء من الضغينة نحوي. أما الآن، فقد مضى كل ذلك. لقد وقعتُ وانتهى. إن هناك شيئاً وراثياً في المرأة يحملها على حماية عذريتها، وعلى تقييد نفسها والمطالبة بأقصى الضمانات كي لا تفقدها. وفي ما بعد، عندما تسقط إحدانا، تدرك أن كل ذلك مجرد خرافة، أسطورة قديمة لاصطياد الأزواج. ولهذا أقول لك إنني لست متأكدة الآن مما إذا كان الزواج هو الحل الأفضل لنا. المهم أن نكون مرتبطين بشيء معين. وهذا الشيء موجود، أليس كذلك؟ حسن إذن، ألا ترى أن ارتباطنا من خلال هذا الشيء الموجود فعلاً هو أقوى وأمتن وأجمل من مجرد وثيقة، أو خطبة طقسية يلقيها قاضٍ متعجل وأكرَش؟ ثم إن هناك أبناءك. وأنا لا أريد أن أبدو لهم كمن تتنازع على حياتك مع صورة زوجتك. لا أريدهم، كممثلين لأمهم، أن يشعروا بالغيرة. وأخيراً، هناك خوفك من الزمن، خوفك من أن تهرم وأبدأ بالنظر إلى آخرين. لا تكن شديد الاعتداد بنفسك، ولكن أكثر ما يعجبني فيك هو شيء لن يكون بإمكان أي زمن أن ينتزعه منك» لقد كانت كلماتها المتأنية تعبر عن رغباتي أكثر من تعبيرها عن حقائقها. ثم، كم هو ممتع الاستماع إليها.

الاثنين 22 تموز (يوليو)

لقد أعددتُ كل شيء بدقة للقاء، غير أن أبيّانيدا لم تكن تعلم أي شيء. كنت وإياها في كافيتريا. ولم نكن قد خرجنا معاً إلا مرات قليلة، فهي عصبية دائماً وتظن أن أحداً من زملائنا في المكتب سيرانا. أقول لها إن ذلك سيحدث عاجلاً أو آجلاً، وإننا لن نقضي حياتنا محبوسين في الشقة. لقد انتبهت إلى نظراتي من فوق فنجان الشوكولاته الذي في يدها. «من رأيت؟ أهو شخص من هناك؟»، وهناك تعني المكتب. «لا، ليس من هناك. ولكنه شخص يريد التعرف إليك». اشتد ارتباكها وعصبيتها مما جعلني أشعر للحظة بالندم لإقدامي على هذه التجربة. لاحقتْ اتجاه نظراتي وتعرَّفَتْ عليها قبل أن أقول لها أي شيء. لا بد أن في بلانكا، في نهاية المطاف، شيئاً من ملامحي. استدعيتها بحركة من يدي. كانت باهرة الجمال، وأنيقة ولطيفة، فأحسست بالفخر بأبوتي. «هذه هي بلانكا، ابنتي». مدت أبييانيدا يدها. وكانت ترتعش. وقد تصرفت بلانكا على نحو رائع: «أرجوكِ، اهدئي. أنا التي رغبت في التعرف إليك». لكن أبيّانيدا لم تستعد توازنها. كانت تتمتم وهي مضطربة اضطراباً مهولاً: «يا يسوع. لا أستطيع أن أصدق أنه قد كلمكِ عني. لا أستطيع أن أصدق أنك أردت التعرف إلي. أعذريني، لا أعرف ما تظنينه بي...» وكانت بلانكا تفعل كل ما تستطيعه لتهدئتها، وكنت أحاول معها أيضاً. وبالرغم من كل شيء، استطعت أن ألمح خيطاً من الانسجام يمتد بين المرأتين. إنهما متقاربتان في السن. وبعد قليل، بدأت أبيّانيدا تستعيد هدوءها؛ وقد ذرفت بعض الدموع أيضاً. وبعد عشر دقائق، كانتا تتبادلان الحديث كشخصين متحضرين وعاديين.

فتركتهما تمضيان على سجيتهما. لقد وجدت متعة جديدة في وجود الاثنتين إلى جانبي، إنهما المرأتان اللتان أحبهما أكثر من أي كائن آخر. وعندما افترقنا (أصرت أبييّانيدا على أن أذهب مع ابنتي)، مشينا بضع كوادرات تحت رذاذ المطر، قبل أن نستقل الأمنيبوس. وحين وصلنا البيت، سارعت بلانكا إلى معانقتي، وكانت إحدى المعانقات التي لا تهدرها بلانكا جزافاً، وهي لهذا السبب بالذات معانقة تاريخية. وقالت لي وخدها ملتصق بخدي: «لقد أعجبتني فعلاً. لم أتصور قطّ أنك تحسن الاختيار هكذا». تناولتُ قليلاً من الطعام، وذهبتُ إلى الفراش. كنت أشعر بتعب يساوي تعب سنة كاملة من الأشغال الشاقة. ولكن، ما أهمية كل ذلك.

الثلاثاء 23 تموز (يوليو)

لم أر أبييّانيدا مذ تركتنا، أنا وبلانكا، يوم أمس. وصباح اليوم، اقتربتْ باكراً من منضدتي في المكتب وهي تحمل سجلين لتستشيرني في أمر. إننا نراعي الحذر خلال أوقات العمل (ولم ينتبه أحد في المكتب إلى علاقتنا حتى الآن). أما اليوم، فقد تفحصتها باهتمام. كنت أريد أن أعرف كيف خرجت من ذلك الفخ التي نصبته لها. بدت جدّية، جديّة جداً، وبلا حمرة على وجهها تقريباً. أعطيتها التعليمات اللازمة. كنا محاطين بآخرين كثيرين، ولهذا لم يكن باستطاعتنا قول شيء. ولكنها قبل انصرافها، انتهزت الفرصة لتترك لي إيصالين وقصاصة ورق خربشت عليها كلمة واحدة: «شكراً».

الجمعة 26 تموز (يوليو)

إنها الثامنة صباحاً. وأنا أتناول الفطور الآن في مقهى توبي. فإحدى متعي الكبرى أن أجلس إلى جوار إحدى النوافذ المطلة على الساحة. إن المطر يهطل. وهذا يجعل متعتي أكبر. لقد عودت نفسي على محبة هذا المسخ الفلكلوري الذي يسمى «قصر سالبو». لا بد أن فيه شيئاً يجعلهم يطبعونه على كافة البطاقات البريدية التي تباع للسياح. إنه يمثل الطبع الوطني تقريباً: مبتذل، تافه، مثقل بمبالغة. وهو قبيح، وقبيح جداً، لدرجة أنه يبعث المرح في مزاج أحدنا. إنني أحب مقهى توبي في هذه الساعة المبكرة، قبل أن يبدأ باقتحامه المخنثون (لقد نسيت خيمي، يا للكابوس) وحيث لا يوجد إلا بعض المسنين المتفرقين هنا وهناك، يقرؤون جريدة «اليوم» أو «المناظرة» بتلذذ لا يُصدَّق. معظمهم متقاعدون لم يستطيعوا التخلي عن عادتهم في الاستيقاظ المبكر. هل سأواصل المجيء إلى توبي عندما أتقاعد؟ ألا يمكنني أن أعتاد على التنعم بالبقاء في الفراش حتى الساعة الحادية عشرة، مثلما يفعل ابن أي مدير؟ إن التقسيم الحقيقي للطبقات الاجتماعية يجب أن يأخذ في الاعتبار الساعة التي ينهض فيها كل شخص من الفراش. هاهو ذا بيانكامانو يدنو مني، إنه النادل ضعيف الذاكرة، وهو شديد السذاجة ودائم الابتسام. للمرة الخامسة أطلب منه قهوة خفيفة وكرواسان، ويأتيني بقهوة ثقيلة ومعجنات أخرى. إنه طيب القلب إلى حدّ يدفعني إلى الرضوخ. وبينما كنت ألقي مكعبات السكر في الفنجان، أخذ

يحدثني عن حالة الجو وعن العمل. «هذا المطر يزعج الناس، أما أنا فأقول: ألسنا في الشتاء؟» وأنا أؤيده، لأننا في الشتاء دون شك. بعد ذلك ناداه رجل يجلس إلى منضدة في أقصى المحل، وكان متضايقاً جداً لأن بيانكامانو أتاه بشيء لم يطلبه. إنه شخص لا يرضخ. أو ربما هو أرجنتيني جاء للقيام بتجارة دولاراته الأسبوعية، وما زال يجهل عادات المحل. في المرحلة الثانية من وليمتي تأتي الجرائد. هنالك أيام أشتري فيها كل الصحف. فأنا أحب أن التعرف على ثباتها: أسلوب القفزات اللغوية البهلوانية في افتتاحيات جريدة «المناظرة»، ونفاق «البلاد» المتحضر؛ وخبيص جريدة «اليوم» الإخباري الذي تتخلله بين الحين والحين غمزة ضد الإكليروس؛ وطبيعة «الصباح» القوية المتفردة. لكم هي متنوعة ومتماثلة في الوقت نفسه هذه الصحف. إنها تلعب في ما بينها لعبة المكائد، وتخدع كل منها الأخرى، وتغمز من مصداقيتها. ولكنها تستفيد جميعها من المطرقة نفسها، وتتغذى على الكذبة نفسها. أما نحن، فنقرأ. ومن خلال هذه القراءة تتشكل قناعاتنا، ونصوّت في الانتخابات، ونناقش، ونفقد الذاكرة، ونتناسى بكرم وبلاهة أنها تقول اليوم عكس ما قالته أمس، وأنها تدافع اليوم بحرارة عن ذاك الذي جعلته مكروهاً بالأمس. والأسوأ من ذلك هو أن الشخص نفسه يرضى اليوم عنها، ويشعر بالزهو والفخر لدفاعها عنه. لهذا كله أُفضل صراحة قصر سالبو المريعة، لأنه كان مريعاً على الدوام، ولم يخدعنا قط؛ ولأنه استقر هنا، في أكثر أماكن المدينة ازدحاماً، وهو يجبرنا جميعنا منذ نحو ثلاثين سنة، وطنيين وأجانب، على رفع بصرنا تكريماً لوفائه. أما النظر إلى الصحف فيقتضي خفض البصر.

السبت 27 تموز (يوليو)

إنها متحمسة للقائها مع بلانكا. «لم أتصور قط أنك قادر على إنجاب ابنة فاتنة كهذه»، إنها تكرر هذه الكلمات نفسها على مسامعي كل نصف ساعة تقريباً. وكلماتها هذه مثل تلك التي قالتها بلانكا: ««لم أتصور قطّ أنك تحسن الاختيار هكذا»». إنهما غير لطيفتين في حقي. ولا تعبران عن ثقتهما المسبقة بقدراتي على الإنجاب والاختيار. ولكنني سعيد. أبيّانيدا سعيدة أيضاً. وكلمة «شكراً» التي خطتها يوم الثلاثاء الماضي تطورت كثيراً. فقد اعترفت لي بأنها شعرت بالحرج للحظة عندما واجهت ابنتي. وظنت أن بلانكا قد جاءت لتتشاجر معها، ولتوجه إليها كل كلمات التأنيب التي تتصورها غير قابلة للتفسير؛ وكانت تعتقد أنها تستحق ذلك. وفكرتْ في أن الصدام سيكون عنيفاً وخطراً وساحقاً جداً، بحيث يقضي على كل أمل في استمرار علاقتنا. وأنها أدركت لحظتئذ فقط أن هذه العلاقة أصبحت شيئاً مهماً فعلاً في حياتها، وأنه ربما سيكون فوق طاقتها وضع حدّ الآن لذلك الوضع الذي يكاد لا يبدو أنه مدبر. «قد لا تصدق، ولكن كل هذه الأشياء مرت في ذهني بينما كانت ابنتك تتقدم بين الطاولات». ولهذا، كان موقف بلانكا الودي بالنسبة إليها أشبه بهدية غير منتظرة. «قل لي، أيمكنني أن أكون صديقتها؟»، هذا هو سؤالها الآمل الآن. وهي تسأل ذلك بملامح شديدة العذوبة، ربما تكون الملامح نفسها التي علت وجهها قبل عشرين سنة، وهي تسأل أباها أول مرة عن ملوك المجوس.

الثلاثاء 30 تموز (يوليو)

لا أخبار عن خيمي. لقد ذهبت بلانكا للسؤال عنه في المكتب. لم يذهب إلى العمل منذ عشرة أيام. وقد توصلنا إلى اتفاق ضمني مع استيبان بألا نتحدث في المسألة. فقد كان الأمر ضربة قاسية بالنسبة له أيضاً. وأنا أتساءل الآن كيف سيكون ردّ فعله حين يعلم بوجود أبيِّانيدا. طلبتُ من بلانكا ألا تخبره بشيء. في الوقت الراهن على الأقل. ربما أكون قد بالغت في وضع أبنائي (أو السماح لهم بوضع أنفسهم) في موقع القضاة. لقد قمت بواجبي نحوهم. قدمت إليهم التوجيه والعناية والحنان. حسن، ربما كنت في هذا البند الأخير شحيحاً بعض الشيء. ولكن ذلك لأني لا أستطيع أن أكون واحداً من أولئك الذين يمضون دائماً وهم يحملون قلوبهم على أكفهم. فإظهار الحنان يكلفني جهداً، حتى في الحياة الغرامية. فأنا أعطي أقل مما أملك دائماً. هذا هو أسلوبي في الحب، التقتير قليلاً، والاحتفاظ بالحد الأقصى لبعض المناسبات الكبيرة فقط. وربما كان السبب في ذلك هو أن لدي هوساً في التدرج. لأني إذا كنت سأُظهر كل ما لدي دفعة واحدة، فماذا سأترك لتلك المناسبات الكبرى (وهناك أربع أو خمس مناسبات كهذه في حياة كل شخص) وبأي شيء سيواجه أحدنا مناسبة تحتاج إلى القلب كاملاً بكل ما فيه؟ ثم إن حفيظتي تثور قليلاً حيال التكلف، والتكلف في نظري هو ذلك الأمر بالذات: المضي دائماً والقلب محمول على راحة اليد. فماذا يبقى، لمن يبكي كل يوم، عندما تحل به فجيعة كبرى،

واحدة من الفجائع التي تحتاج إلى أقصى ما لدينا من القدرة الدفاعية؟ صحيح أن المرء يستطيع الانتحار، ولكنه يبقى في نهاية المطاف حلاً بائساً. أعني أنه من المستحيل العيش في أزمة دائمة، وأن نصطنع انفعالاً يُغرق أحدنا (مثل حمّام يومي) في احتضارات صغيرة متواصلة. إن السيدات الطيبات يقلن عادة بحس اقتصادهن السيكولوجي، إنهن لا يذهبن إلى السينما لمشاهدة أفلام حزينة، لأن «في الحياة ما يكفي من المرارة»، وهن محقات إلى حدّ ما: ففي الحياة ما يكفي من المرارة لكي لا نكون كذلك بكائين، متدللين، وهستيريين، لمجرد أن شيئاً قد اعترض طريقنا، ومنعنا من مواصلة نزهتنا نحو السعادة التي تكون، أحياناً، مجاورة للغباء. أذكر أنهم في إحدى المرات، عندما كان الأولاد يذهبون إلى المدرسة، كلفوا صف خيمي بكتابة واجب، وكان واحداً من واجبات الإنشاء والتعبير المطروقة حول موضوع الأم التقليدي. كان عمر خيمي حينئذ تسع سنوات، وقد رجع إلى البيت وهو يشعر بتعاسة عميقة. حاولت إفهامه أنه سيواجه هذا الأمر كثيراً في الحياة، وأنه قد فقد أمه وعليه أن يتكيف مع هذا الوضع، وأن ذلك لا يستدعي البكاء كل يوم، وأن أكبر دليل على حبه لأمه هو في إثباته أن غيابها بالتحديد لا يضعه في موقع أدنى من الآخرين. ربما كانت لغتي غير مناسبة لسنه. ولكن الصحيح أنه توقف عن البكاء، ونظر إليّ بحقد يبعث الرعشة في الجسد، ونطق بحزم وتصميم هذه الكلمات: «أنت ستكون أمي، وإذا لم تفعل سأقتلك» ما الذي كان يعنيه؟ لم يكن صغيراً إلى الحد الذي يجهل معه أن ما يطلبه غير معقول، لكنه ربما لم يكن كبيراً كذلك إلى الحد الذي يمكنه من العثور على طريقة أفضل لمداراة

احتضاره الأول، وقد كان الأول فـي تلك الاحتضارات اليومية التي ركز فـيها أحقاده وتمرده وإحباطه فـيما بعد. ولأن معلماته وزملاءه والمجتمع طالبوه بأمه، فقد أحس للمرة الأولى بكل قوة غيابها. ولست أدري بسبب أية معجزة خيالية ألقى عليّ أنا مسؤولية غيابها. ربما كان يفكر فـي أنني لو اعتنيت بها بصورة أفضل، لما اختفت. فأنا المذنب فـي نظره، وعليّ بالتالي أن أحلّ محلها «وإذا لم تفعل سأقتلك». لم يقتلني بالطبع، ولكنه راح يقتل نفسه، ويلغي شخصيته. ولأن رجل الأسرةِ خذله، فقد راح يتنكر للرجل الذي فـيه. أف! يا لهذا الشرح المعقد الطويل لتفسير حدث شديد الإيجاز والعادية: ابني شاذّ. إنه شاذّ. مثل سانتيني المقرف الذي تتعرى أخته أمامه. كنت أُفضّل لو أنه صار لصاً، أو مدمن مخدرات، أو معتوهاً. أرغب فـي الشعور بالأسى من أجله، ولكنني لا أستطيع ذلك. أعرف أن هناك تفسيرات عقلانية لحالته، حتى إنها معقولة. وأعرف أن معظم تلك التفسيرات تُحمّلني جزءاً من الذنب. ولكن، لماذا ترعرع استيبان وبلانكا بصورة طبيعية، ولماذا لم ينحرفا وانحرف الآخر؟ الآخر بالتحديد، من كنت أحبه أكثر من الجميع. لا أريد شيئاً من الأسى. الآن وإلى الأبد.

الخميس الأول من آب (أغسطس)

استدعاني الوكيل. إنه شخص لا أستطيع هضمه. فهو باهر الابتذال والجبن. حاولت فـي إحدى المرات أن أتمثل روحه، كيانه المجرد، وقد توصلت إلى صورة منفرة. فحيث توجد الكرامة عادة، لا يوجد لديه

سوى جذعة صغيرة منها؛ فقد استؤصلت منه. ومع ذلك، فإن الكرامة الاصطناعية التي يستعملها الآن تتيح أن يتسم. وعندما دخلت مكتبه بالضبط، كان يبتسم. «خبر طيب يا سانتومي، خبر طيب ـ وبينما وهو يفرك يديه بدا كأنه يريد أن يذبحني ـ ما يعرضونه عليك ليس أقل من منصب معاون الوكيل». يبدو واضحاً أنه لا يشارك مجلس الإدارة في عرضه. «اسمح لي أن أهنئك». إن يده لزجة، وكأنه انتهى لتوه من فتح علبة مربى. «هنالك شرط بالطبع». هاهو ذا الحجر مخبأ وراء السرطان هذه المرة. والحقيقة أن الوكيل بدا مثل سرطان. ولاسيما في تلك اللحظة التي مشي فيها ليخرج من وراء منضدة مكتبه. «الشرط هو ألا تتقاعد قبل انقضاء سنتين». وبطالتي المنتظرة؟ إن منصب معاون الوكيل وظيفة بديعة، وخاصة من أجل إنهاء خدماتي في المؤسسة. العمل فيها قليل، يقتصر على التعامل مع بعض الزبائن البارزين، ومراقبة عمل الموظفين، والقيام بأعمال الوكيل عند غيابه، وتحمّل أعضاء مجلس الإدارة ودعاباتهم السمجة، وتحمل السيدات زوجات المديرين وأدلة جهلهن الموسوعية. ولكن، ماذا عن بطالتي؟ سألته: «كم من الوقت تمنحني من أجل التفكير في الأمر؟». وكان هذا الطلب هو المقدمة لرفضي. فلمعت عينا السرطان، وقال: «أسبوع. يجب أن أنقل ردّك إلى مجلس الإدارة يوم الخميس القادم». عندما رجعتُ إلى القسم، كان الجميع يعرفون الخبر. فهذا ما يحدث دائماً للأخبار السرية الصارمة. وجرت معانقات وقُدمت لي التهاني والتعليقات. حتى إن الموظفة أبييّانيدا اقتربت مني وصافحتني. وبين جميع تلك الأيدي، كانت يدها هي الوحيدة التي تبث الحياة.

السبت 3 آب (أغسطس)

ناقشتُ العرض معها مطولاً. طلبتْ مني أن أفكر جيداً في الأمر، لأن وظيفة معاون الوكيل منصب مريح ومحترم وجيد الأجر. حسن، جميع الأشياء التي أعرفها. ولكنني أعرف كذلك أن لي الحق في الاستراحة، وأنني لن أبيع هذا الحق مقابل مئة بيزو تضاف إلى راتبي. وربما لن أبيعه أيضاً لو كان العرض أكبر من ذلك بكثير. لقد كان الأمر الجوهري بالنسبة إليّ، على الدوام، أن أكسب ما يكفيني لأعيش. وما أحصل عليه الآن يكفيني. فراتبي جيد. ولست أحتاج إلى المزيد. حتى في هذا الوقت بالذات، حيث عليّ تغطية نفقات الشقة الإضافية. وأظن أنني سأحصل، عندما أتقاعد، على دخل إضافي ضئيل (حوالي مئة بيزو)، لأن الترقيات قد رفعت متوسط راتبي بصورة جيدة في السنوات الخمس الأخيرة، ثم إنه لن تكون هناك حسومات من الراتب بعد التقاعد. وعليّ بالطبع أن أواجه انخفاض قيمة النقد، وهي النتيجة المؤكدة للتضخم. إن التهديد حقيقي، ولكن لدي دائماً إمكانية العمل بين حين وآخر في مراجعة حسابات شبه سرية إلى هذا الحدّ أو ذاك. غير أن أبيّانيدا تبدي حججاً أخرى أكثر عاطفية، وأقل علاقة بالنقود من هذه الحسابات المستقبلية الصماء: «إذا لم تكن موجوداً هناك، فسيصبح المكتب مكاناً لا يطاق». هذا أفضل. وهي لن تقنعني بهذه الحجة أيضاً، لأني أفكر في مشروع آخر: أن تترك العمل هي أيضاً عندما أتقاعد. راتبي التقاعدي يكفينا نحن الاثنين. ثم إن نفقاتنا متواضعة جداً.

فمتعنا، لأسباب واضحة، هي بيتية بالكامل. قد نذهب ذات يوم إلى السينما، أو إلى مطعم، أو إلى كافيتريا. وقد نخرج في يوم أحد، يكون الجو فيه بارداً مع وجود شمس، لنتمشى على ضفة النهر، ولنتنفس بصورة أفضل. قد نشتري كتاباً أو أسطوانة، ولكن متعتنا الأولى والمفضلة هي في الحديث، الحديث عن نفسينا، الإحاطة بكل تفاصيل تلك المنطقة من حياتنا السابقة لعلاقتنا. وليست هناك متعة أو استعراض قادر على التعويض عن المتعة التي نشعر بها ونحن نمارس هذه الصراحة، هذا الصدق. وقد بدأنا نحصل على قدر أكبر من التسلية. لأنه لا بد للمرء من أن يعتاد على الصراحة أولاً. فبعد تلك السنوات الطويلة التي أمضاها آنيبال في الخارج، ومع كل مشاكل التواصل في علاقتي بأبنائي، ومع الحياء الدفاعي الذي أحاط على الدوام بحياة المكر المكتبي التي عشتها، وبمقارباتي الصحية لنساء جديدات لا يتكررن أبداً، رحت أفقد عادة الصراحة شيئاً فشيئاً. وربما كنت أمارسها بيني وبين نفسي في أوقات متباعدة. وأقول هذا الآن لأني، أثناء أحاديثي الصريحة مع أبيانيدا، وجدت نفسي أحياناً وأنا أنطق كلمات تبدو لي أكثر صراحة من أفكاري نفسها. أيكون ذلك ممكناً؟

الأحد 4 آب (أغسطس)

فتحت صباح هذا اليوم أحد أدراج الخزانة الصغيرة، فتبعثرت على الأرض كمية لم أكن أتصور وجودها من الصور والقصاصات والرسائل والإيصالات والملاحظات. ورأيت بينها ورقة ذات لون غير محدد

(ربما كانت خضراء في الأصل، إلا أن فيها الآن بقعاً قاتمة، من حبر تمدد بفعل رطوبة قديمة جفت إلى الأبد). ولم أتذكر قطّ أنها موجودة حتى هذه اللحظة، ولكنني ما إن رأيتها حتى تعرفت فيها على رسائل إيزابيل. فالرسائل التي تبادلتها مع إيزابيل قليلة. والحقيقة أنه لم يكن ثمة سبب لتبادل الرسائل، لأننا لم نكن نفترق لأوقات طويلة. وقد كانت الرسالة مؤرخة في تاكواريمبو، يوم 17 تشرين الأول (أكتوبر) 1935. أحسستُ بشيء من الغربة وأنا أنظر إلى تلك الحروف النحيلة، ذات النهايات الطويلة والمتقنة، والتي يمكن التعرف من خلالها على شخص بذاته، وعلى عصر بذاته أيضاً. كان واضحاً أنها لم تكتب بقلم حبر، وإنما بريشة كتابة من تلك التي لم يكن المرء يحسن إجبارها على الكتابة، وكانت تعرف كيف تُحدث صريراً أصم، وتبصق فيما حولها بقعاً صغيرة تكاد تكون غير مرئية من الحبر البنفسجي. عليّ أن أستنسخ الرسالة في هذا الدفتر. عليّ أن أستنسخها لأنها جزء من ذاتي، من تاريخي الذي لا يمكن تبديله. لقد وُجِّهَتْ إليّ في مناسبة خاصة جداً، وقد تسببت إعادة قراءتها في بلبلة تفكيري بعض الشيء، وجعلتني أرتاب ببعض الأمور، بل أقول إنها أثارت شجوني كذلك. وهي كما يلي: «حبيبي: لقد وصلتُ إلى هنا منذ ثلاثة أسابيع. ترجم ذلك: ثلاثة أسابيع وأنا أنام وحيدة. ألا يبدو لكَ ذلك رهيباً؟ أنت تعلم أنني أستيقظ ليلاً في بعض الأحيان، وأشعر بحاجة ماسة لملامستك، للشعور بك إلى جانبي. لا أعرف ما هو المريح فيك، ولكن معرفتي أنك إلى جواري تُشعرني بأنني في كنف حمايتك وأنا نائمة. إنني أرى كوابيس مخيفة هذه الأيام، ولكني لا أرى مسوخاً في كوابيسي.

فالكوابيس تتلخص فقط في أنني أحلم بأني وحيدة في الفراش، من دونك. وعندما أستيقظ وأزيح الكابوس بعيداً، أجد نفسي وحيدة فعلاً في الفراش، من دونك. والفرق الوحيد هو أنني أعجز، في الحلم، عن البكاء؛ ولكنني في اليقظة أبكي. لماذا يحدث لي هذا؟ أعرف أنك موجود في مونتيفيديو، وأعرف أنك تعتني بنفسك، وأعرف أنك تفكر فيَّ. ألا تفكر فيَّ؟ استيبان والصغيرة بحالة جيدة، مع أن العمة زولما تبالغ في تدليلهما. ضع في اعتبارك أننا عندما نعود، لن تتركنا الطفلة ننام بضع ليالٍ. رباه، متى تأتي هذه الليالي؟ لدي خبر جديد، هل تعرف ما هو؟ إنني حامل مرة أخرى. أمر فظيع أن أخبرك هذا الخبر ولا أتلقى منك قبلة. أم إن الأمر ليس فظيعاً إلى هذا الحد بالنسبة إليك؟ سيكون المولود ذكراً، وسنسميه خيمي. أحب الأسماء التي تبدأ بحرف «خ». إنني خائفة قليلاً هذه المرة، ولست أعرف السبب. وإذا ما مِتُّ؟ أجبني بسرعة وقل لي إنني لن أموت. هل فكرت في ما ستفعله إذا ما متُ؟ أنت شجاع، وتستطيع الدفاع عن نفسك وحيداً؛ ثم إنك ستجد امرأة أخرى على الفور، وها أنذا أشعر منذ الآن بغيرة مرعبة منها. أرأيت كم أنا عصابية؟ إنني تعسة جداً لأنك لست معي هنا، أو لأنني لست معك هناك، لا فرق. لا تضحك؛ فأنت تضحك دائماً من كل شيء، حتى عندما لا يكون في الأمر أي ظرافة. لا تضحك، ولا تكن خبيثاً. اكتب إليّ قائلاً إنني لن أموت. لأني سأبقى في شوق إليك، حتى وأنا روح محزونة هائمة بعد الممات. آه، قبل أن أنسى: اتصل هاتفياً بماروخا لتذكيرها بأن يوم 22 هو عيد ميلاد دورا. واطلب منها أن تنقل إليها التهنئة باسمي وباسمها. ألم يتسخ البيت؟ وهل جاءت

الفتاة التي أخبرتني عنها سيليّا لتنظفه؟ حذار من إطالة النظر إليها، إيه؟ العمة زولما سعيدة بوجود الصغيرين هنا. أما عن العم إدواردو فلن أقول شيئاً... كلاهما يرويان لي قصصاً عظيمة عنك، عندما كان عمرك عشر سنوات وكنت تأتي لقضاء العطلة هنا. يبدو أنك كنت مشهوراً بإجاباتك عن كل شيء. العم إدواردو يقول إنك كنت فتىً رائعاً، وأنا أظن أنك مازلت فتى رائعاً، حتى عندما ترجع متعباً من المكتب، وفي عينيك بعض الحقد، وتعاملني بخفة، وأحياناً بغضب. ولكننا نقضي وقتاً ممتعاً بعد ذلك، في الليل، أليس كذلك؟ منذ ثلاثة أيام والمطر يهطل. إنني أجلس إلى جانب شرفة الصالة، وأتطلع إلى الشارع. ولكن لا أحد يمر في الشارع. عندما ينام الطفلان، أذهب إلى مكتب العم إدواردو وأتسلى بالقراءة في المعجم الإسبانو أميركي، فتزداد ثقافتي وضجري بصورة ملحوظة. أيكون المولود الجديد طفلاً أم طفلة؟ إذا كان طفلة، فلك أن تختار الاسم، بشرط ألا يكون ليُنور. ولكن لا، سيكون ذكراً، وسنسميه خيمي، وسيكون له وجه طويل مثل وجهك، وسيكون قبيحاً، وسيحرز نجاحات باهرة في علاقاته مع النساء. تأمل، إنني أحب الأولاد، أحبهم كثيراً، ولكن أكثر ما أحبه فيهم هو أن يكونوا أولادك. المطر يهطل الآن بغزارة جنونية على حجارة الشارع. سأجرب أن ألعب بالورق لعبة «السوليتير». إنها اللعبة التي علمتني إياها دورا، هل تتذكرها؟ فإذا انفتح ورق اللعب حتى النهاية، فلن أموت أثناء الولادة. من تحبك، تحبك، تحبك... إيزابيل.

ملاحظة لاحقة: لقد انفتح ورق اللعب حتى النهاية! هورا!)».

والآن، بعد انقضاء اثنتين وعشرين سنة، كم تبدو حماستها تلك مجردة من الحماية. ومع ذلك، فقد كانت حماسة حقيقية، نزيهة، سليمة. الغريب هو أنني عندما أعدت قراءة هذه الرسالة، عثرت مجدداً على وجه إيزابيل. هذا الوجه الذي ما زال، على الرغم من نسياني، موجوداً في ذاكرتي. لقد وجدته من خلال كلمات «أنت» و«يمكنك» و«لديك» التي توجهها إليّ دون تكلف. لأن إيزابيل لم تكن تستخدم في كلامها صيغة «حضرتك» على الإطلاق. ولم تكن تفعل ذلك نتيجة قناعات خاصة، وإنما بحكم العادة، وربما النزوة. قرأت كلمة «أنتَ»، واستطعت في الحال أن أعيد تشكيل الفم الذي كان ينطقها. وقد كان فم إيزابيل هو أهم شيء في وجهها. إن رسالة إيزابيل مثلها: مشوشة بعض الشيء، وفيها تحوّل دائم من التفاؤل إلى التشاؤم وبالعكس، وهي تدور حول الحب في الفراش، ومليئة بالمخاوف، ومتقلبة. يا للمسكينة إيزابيل. لقد كان الوليد ذكراً، وسُمي خيمي، ولكنها ماتت بحمى النفاس بعد ساعات من الولادة. لم يكن لخيمي وجه طويل مثل وجهي. وهو ليس قبيحاً بأي حال من الأحوال، أما نجاحاته مع النساء فهي مجرد نبوءة، وهي نبوءة باطلة أيضاً. يا للمسكينة إيزابيل. كانت تظن أنها، بنجاحها في فتح ورق اللعب حتى نهايته، قد أقنعت القدر، بينما هي لم تفعل شيئاً سوى استفزازه. لقد صار كل شيء بعيداً، بعيداً جداً. حتى زوج إيزابيل الذي أُرسلت إليه هذه الرسالة في العام 1935، وهو أنا بالذات، حتى هذا الزوج نفسه صار الآن بعيداً، ولست أدري إذا ما كان بعيداً في

الخير أم في الشر. «لا تضحك»، تقول ذلك وتعيده. وهي محقة: فقد كنتُ أضحك في ذلك الحين فوراً، وكانت تستاء من ضحكي. ولم تكن قادرة على كبح شعورها بالضيق والعدوانية عندما أضحك. وحين كنت أضحك ونحن بين الناس، كانت تنظر إليّ بعيني رقيب، مستبقة بذلك التأنيب التالي الذي ستوجهه إليّ على انفراد: «أرجوك ألا تضحك، لأن مظهرك يبدو فظيعاً» وعندما ماتت، سقطت الضحكة من فمي. أمضيت نحو سنة محكوماً بثلاثة أشياء: الألم، والعمل، والأولاد. وبعد ذلك عاد إليّ التوازن، عاد الثبات، عاد الهدوء. ولكن الضحك لم يعد. حسن، قد أضحك أحياناً بالطبع، ولكن يجب أن يكون ثمة سبب خاص، أو قد أضحك لأني أريد أن أضحك وأنا أعي ذلك، وهذا نادراً ما يحدث. أما تلك الضحكة التي كانت من ميزاتي، وكانت ملمحاً ثابتاً من ملامحي، فلم تعد. إنني أفكر أحياناً في أنه من المؤسف أن إيزابيل ليست موجودة لترى جديتي؛ فلا بد أنها كانت ستسعد كثيراً بجديتي الحالية. ولكن، لو أن إيزابيل ما زالت موجودة معي، ربما لم أكن لأشفى من الضحك. يا للمسكينة إيزابيل. إنني ألاحظ الآن أني كنت قليل الكلام معها. لم أكن أجد أحياناً موضوعاً للحديث؛ والحقيقة أنه لم تكن بيننا موضوعات كثيرة مشتركة، باستثناء الأبناء، والدائنين، والجنس. وهذا الموضوع الأخير لم يكن ضرورياً الحديث عنه. فقد كانت ليالينا بليغة التعبير عنه. أهذا هو الحب؟ لستُ متأكداً. ولو أن زواجنا لم ينته بعد خمس سنوات فقط، فربما كنا اكتشفنا أن ذلك الأمر ليس إلا نوعاً من توابل الحب وحسب. وربما لم نكن سنتأخر كثيراً في اكتشاف ذلك. ولكنه

كان العنصر الذي أبقانا متحدين في تلك السنوات الخمس، وقد أبقانا متحدين بقوة. أما مع أبييَّانيدا الآن، فالجنس (من جانبي على الأقل) هو عنصر أقل أهمية، وأقل حيوية. فأحاديثنا وتآلفنا أكثر منه أهمية وحيوية بكثير. ولكنني لستُ واهماً. فأنا الآن في التاسعة والأربعين، وعندما توفيت إيزابيل كنتُ في الثامنة والعشرين. وأنا واثق تماماً من أنه إذا ما ظهرت إيزابيل الآن، وأعني إيزابيل التي كتبت الرسالة من تاكواريمبو عام 1935، إيزابيل ذات الشعر الأسود والعينين المتعطشتين والإليتين الحسيتين والساقين المصقولتين، إذا ما ظهرت الآن، فإنني أكثر من واثق من أنني سأقول: «يا للأسف»، وسأمضي لأبحث عن أبييَّانيدا.

الأربعاء 7 آب (أغسطس)

هناك عنصر آخر يجب أخذه بعين الاعتبار أمام إمكانية احتلالي منصب معاون الوكيل. ربما كان لي الحق في التردد لو لم تكن أبييَّانيدا قد دخلت حياتي. أعرف أن البطالة قد تكون مهلكة لبعض الناس؛ وأعرف أن متقاعدين كثيرين لم يستطيعوا العيش بعد هذا الانقطاع المفاجئ عن الروتين. ولكنهم أناس أخذوا بالتيبس والتخشب، وتخلوا عن التفكير بأنفسهم. لا أظن أن حالتي ستكون كذلك. فأنا أفكر بنفسي. ولكن، على الرغم من أني أفكر بنفسي، فإنني ما زلت أرتاب من البطالة؛ وخاصة إذا كانت البطالة مجرد حالة أخرى من حالات الوحدة والعزلة، كما كان يمكن لها أن تكون في مستقبلي قبل بضعة

شهور، قبل أن تظهر أبييّانيدا. أما وقد استقرت في حياتي الآن، فلن تكون هناك وحدة. أعني: عسى ألا تكون. فعليّ أن أكون أكثر تواضعاً، أكثر تواضعاً؛ ليس أمام الآخرين، فهذا لا يهمني، بل على المرء أن يكون أكثر تواضعاً عندما يواجه نفسه ويعترف لها.. عندما يقترب من حقيقته الأخيرة، وهذه قد تكون أشد حسماً من صوت الضمير، لأن الضمير يصاب بفقدان الصوت أو بحالات من البحة المفاجئة، تجعله غير مسموع في معظم الأحيان. أعرف الآن أن وحدتي كانت شبحاً رهيباً، وأعرف أن مجرد وجود أبييّانيدا قد أبعد ذلك الشبح، ولكنني أعرف كذلك أنه لم يمت نهائياً، وأنه يستجمع قواه في أحد الأقبية الدنسة، في إحدى ضواحي روتيني. ولهذا السبب، ولهذا السبب وحده، أتنازل عن ثقتي المطلقة بنفسي وأكتفي بالقول: عسى.

الخميس 8 آب (أغسطس)

يا للراحة. لقد أعطيت ردي بعدم الموافقة. وابتسم الوكيل راضياً لأني لا أحظى بإعجابه كمعاون له، ولأن رفضي سيفيده كذلك في إعادة التأكيد على الحجج التي كان قد طرحها دون شك ليعارض ترقيتي. سيقول لمجلس الإدارة: «مثلما أخبرتكم من قبل: إنه رجل منتهٍ، رجل لا يريد الكفاح. إننا نحتاج في هذا المنصب إلى شخص نشيط، حيوي، جسور، وليس إلى شخص منهوك القوى»، وأتخيل الحركة الفظة، والمتبجحة، والأنانية لإبهامه المقرف، وهو يقول ذلك. ثم تنتهي القضية. يا للطمأنينة.

الاثنين 12 آب (أغسطس)

كنا جالسين مساء أمس إلى الطاولة. ولم نكن نفعل شيئاً، حتى ولا تبادل الكلام. وكانت يدي تستند إلى منفضة سجائر لا رماد فيها. لقد كنا حزينين. هذا هو ما كناه: حزينان. ولكنه كان حزناً عذباً، أشبه بالسلام. وكانت تنظر إليّ، وفجأة حركت شفتيها لتقول كلمة. قالت: «أحبك» وعندئذ انتبهت إلى أنها المرة الأولى التي تقول لي ذلك، بل هي المرة الأولى التي تقولها لأحد. لقد كانت إيزابيل تكرر هذه الكلمة عشرين مرة في الليلة الواحدة. فقد كان تكرارها بالنسبة إليها مثل قبلة أخرى، ومجرد نابض آخر في لعبة الحب. أما أبيبانيدا، فلم تقلها إلا مرة واحدة.. المرة الضرورية. وربما لن تضطر إلى قولها مرة أخرى، لأن هذه الكلمة ليست لعبة: إنها خلاصة وجوهر. لقد أحسستُ عندئذ بضيق رهيب في صدري، ضيق لم يتأثر به ظاهرياً أي جهاز في جسدي، ولكنه كان خانقاً، لا يطاق. ففي أعلى الصدر، قريباً من الحنجرة، حيث يجب أن تكون الروح، أحسست بوجود كتلة خيوط متشابكة. ودمدمت هي قائلة: «لم أقل لك هذه الكلمة حتى الآن، ليس لأني لم أكن أحبك، وإنما لأني كنت أجهل السبب الذي يجعلني أحبك. وقد أصبحت أعرفه الآن» عندئذ صار بإمكاني التنفس، وبدا لي أن جرعة الهواء تأتي من معدتي. إنني أستطيع التنفس دائماً حين يكون هناك من يشرح لي أمراً. إنه التلذذ أمام السر، المتعة حيال ما هو غير متوقَّع، وهي أحاسيس تعجز قواي المتواضعة عن تحملها أحياناً. ومن حسن

الحظ أن هنالك من يشرح الأمور دائماً. «لقد أصبحت أعرف السبب الآن. لستُ أحبك من أجل وجهك، ولا من أجل سنك، ولا من أجل كلامك، ولا من أجل نواياك. إنني أحبك لأنك من معدن جيد». لم يوجه أحد إليّ قطّ من قبل مثل هذا الحكم المؤثر، والبسيط، والمنعش. أريد أن أصدق أن ذلك صحيح، أريد أن أصدق أنني من معدن جيد. ربما كانت لحظة استثنائية في حياتي، ولكنني أحسست على أي حال بأنني حيّ. فهذا الضيق في الصدر يعني أنني حيّ.

الخميس 15 آب (أغسطس)

يوم الاثنين القادم سأبدأ إجازتي الأخيرة. وستكون مقدمة لبطالتي الكبرى النهائية. لم تظهر أي دلائل على وجود خيمي.

الجمعة 16 آب (أغسطس)

حادث مزعج حقاً. لقد التقيت بآنيبال في حوالي الساعة السابعة والنصف، وبعد أن تحدثنا قليلاً في المقهى، ركبنا الترولييبوس معاً، فالذهاب في حافلة الترولييبوس مناسب له أيضاً، وإن كان سينزل في محطة سابقة للمحطة التي سأنزل فيها. تحدثنا عن النساء، وعن الزواج، وعن الوفاء، إلخ... وكان حديثنا عاماً. كنت أتكلم بصوت منخفض لأني أرتاب دائماً بآذان الناس العابرين. أما آنيبال، فحتى عندما يريد أن يتحدث في الأسرار، يفعل ذلك بصوت جهوري يملأ المكان. لست أذكر عن أية حالة محددة كنا نتحدث. وكانت تقف في ممر الحافلة، إلى جواره،

امرأة مسنة ذات وجه مربع، تضع قبعة مستديرة. وقد لاحظتُ أنها تتابع ما يقوله آنيبال، ولأن ما كان يقوله كان كلاماً مهذباً، برجوازياً صغيراً، وأخلاقياً جداً، فإنني لم أهتم كثيراً بشأنها. ومع ذلك، ما إن نزل آنيبال واحتلت المرأة العجوز مقعده إلى جانبي، حتى بادرتني قائلة: «عليك ألا تهتم بهذا الشخص الشيطاني». وقبل أن أعبر عن دهشتي بالقول: «ماذا تقولين؟»، كانت العجوز قد واصلت كلامها: «إنه شخص شيطاني فعلاً. هؤلاء هم الذين يخربون البيوت. آه منكم أنتم يا ذوي البناطيل. يا للسهولة التي تدينون بها النساء! انظر، أستطيع أن أؤكد لك بأن ضياع المرأة يكون وراءه دائماً رجل خسيس، سافل، مهاتر، دفعها أولاً إلى أن تفقد الإيمان بنفسها». كانت العجوز تتكلم بصوت عالٍ. وبدأت كل الرؤوس تلتفت لترى إلى من يوجه مثل ذلك التوبيخ، فأحسست بأني أشبه بحشرة. وواصلت العجوز القول: «إنني من أنصار باتليه[1]، ولكنني مناهضة للطلاق. فالطلاق هو الذي قتل الأسرة. أتعرف أين سينتهي هذا الشخص الشيطاني الذي كان معك؟ آه، أنت لا تعرف. أما أنا فأعرف. هذا الشخص سينتهي إلى السجن أو إلى الانتحار، وهو يحسن صنعاً إن فعل ذلك. لأني أعرف رجالاً يجب إحراقهم وهم أحياء». وتصورتُ آنيبال يشوى في محرقة. وعندئذ فقط استطعت أن أسترد أنفاسي للرد عليها: «أخبريني يا سيدتي، لماذا لا تصمتين؟ ما الذي تعرفينه أنت عن المشكلة؟ ما كان يقوله ذلك الشخص هو عكس ما فهمتِه حضرتك تماماً...» ولكن العجوز تابعت دون تأثر: «لاحظ كيف كانت الأسر

(1) لويس باتليه (1897–1964): سياسي من أروغواي، ورئيس الجمهورية في أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن العشرين.

في ما مضى. في ذلك الحين كانت هناك أخلاق. كنت تمر عند الغروب أمام البيوت، فترى الزوج والزوجة والأبناء يجلسون على الرصيف، جميعهم معاً، بوقار وتهذيب. هذه هي السعادة يا سيدي. وليس في محاولة دفع المرأة دائماً إلى الضياع، وجعل المرأة تستسلم للحياة الخبيثة. لأنه لا وجود لامرأة خبيثة في أعماقها. هل تعرف هذا؟». وبينما هي تصرخ بهذه الكلمات وتهز إصبعها أمامي، مالت قبعتها إلى اليسار قليلاً. أعترف بأن تلك الصورة المثالية للسعادة في جلوس الأسرة كلها على الرصيف أمام البيت، لم تؤثر بي كثيراً. «لا تهتم بما قاله لك أيها السيد. أضحك منه فقط، هذا ما عليك أن تفعله». «ولماذا لا تضحكين حضرتك بدل أن تغضبي هكذا؟». وكان الناس قد بدؤوا الإدلاء بتعليقاتهم. فكان للعجوز أنصارها؛ وكان لي أنا أنصاري. وعندما أقول «أنا»، أعني ذلك العدو المفترض الوهمي الذي كانت العجوز توجه إليه توبيخها. «وتذكر دائماً أنني من أنصار باتليه، ولكنني مناهضة للطلاق». وقبل أن تجدد تلك الدورة المشؤومة، طلبتُ الإذن منها ونزلت من الحافلة، قبل عشر كوادرات من الموقف الذي عليّ أن أنزل فيه.

السبت 17 آب (أغسطس)

تبادلت الحديث صباح اليوم مع اثنين من أعضاء مجلس الإدارة. وكان الحديث حول أمور لا أهمية كبيرة لها، ولكنهما توصلا مع ذلك إلى إفهامي بأنهما يشعران نحوي بازدراء مهذب ومتفهم. أتصور أنهم حين يسترخون في مقاعد قاعة مجلس الإدارة الفارهة، يشعرون أنهم

مطلقو القدرة، أو أنهم قريبون على الأقل من الأولمب، مثلما يمكن لأي روح خسيسة وقاتمة أن تشعر. ولا بد أنهم يظنون أنهم قد وصلوا إلى الذروة. فالذروة، في نظر لاعب كرة القدم تعني الوصول يوماً إلى صفوف المنتخب الوطني؛ وهي في نظر المتصوف، التواصل ذات يوم مع الرب؛ وهي في نظر العاطفي، العثور يوماً على الصدى الحقيقي لمشاعره في شخص آخر. أما الذروة بالنسبة لهؤلاء الأشخاص المساكين، فهي الوصول إلى الجلوس على أرائك مجلس الإدارة، والإحساس (وهو إحساس غير مريح لآخرين) بأن بعض المصائر رهن أيديهم، وإيهام أنفسهم بأنهم يحلون ويربطون، وبأنهم مهمون. ولكنني حين كنت أنظر إليهما اليوم، لم أستطع أن أجد في وجهيهما ملامح أحد محدد وإنما ملامح شيء ما. فهم يبدون لي أشياء، وليس أشخاصاً. ولكن، كيف أبدو لهم أنا؟ أحمق، عاجز، تافه تجرأ على رفض عرض مقدم إليه من الأولمب. في أحد الأيام، قبل سنوات طويلة، سمعت أكبرهم سناً يقول: «إن خطأ بعض رجال الأعمال الكبير هو في معاملتهم موظفيهم باعتبارهم كائنات بشرية». لم أنس ولن أنسى أبداً هذه الجملة القصيرة، وذلك ببساطة لأنني لا أستطيع أن أغفرها. ولست أقول هذا باسمي الشخصي فقط، وإنما باسم الجنس البشري بأسره. وقد أحسستُ اليوم برغبة شديدة في قلب تلك الجملة والقول: «إن خطأ بعض الموظفين الكبير هو معاملتهم أرباب عملهم باعتبارهم أشخاصاً». ولكنني قاومت هذه الرغبة. فهم أشخاص. صحيح أنهم لا يبدون كذلك، ولكنهم أشخاص. إنهم أشخاص يستحقون شفقة كريهة، أكثر أشكال الشفقة شناعة، لأنهم يضفون على أنفسهم، في

الحقيقة، قشرة من الكبرياء، ومظهراً منفراً، ونفاقاً متماسكاً، ولكنهم فارغون تماماً في أعماقهم. إنهم مقرفون وفارغون. وهم يعانون من أرهب أنواع العزلة: عزلة من لا يشعر بوجود نفسه بالذات.

الأحد 18 آب (أغسطس)

«حدثني عن إيزابيل»، وهذه واحدة من محاسن أبيّانيدا. إنها تجعل المرء يكتشف بعض الأشياء، ويتعرف على نفسه بصورة أفضل. فحين يمكث المرء وحيداً لزمن طويل، وحين تمر سنون وسنون دون أن يحرضه الحوار المنعش المعمق على إيصال هذا التحضر الروحي المتواضع الذي يسمى «الوضوح» إلى أشد مناطق الغريزة إبهاماً، إلى تلك الأراضي البكر فعلاً وغير المرتادة، مناطق الشهوات والمشاعر والنفور، وحين تتحول العزلة إلى روتين، فإن أحدنا يأخذ، حتماً، بفقدان القدرة على الإحساس بالرعشة، الإحساس بأنه حي. ولكن تأتي أبيّانيدا وتسأل، فتستدعي أسئلتها إلى ذهني أسئلة أخرى كثيرة، وعندئذ أبدأ، مثلما أنا الآن، بالشعور بأنني حي، وبأني أرتعش. «حدثني عن إيزابيل»، إنه طلب برئ، بسيط، ومع ذلك... الحديث عن شؤون إيزابيل هو حديث عن شؤوني، أو عما كان شؤوني. إنها أشياء تتعلق بذلك الشخص الذي كُنت عليُه في أزمنة إيزابيل. رباه! يا للفجاجة! عندما ظهرت إيزابيل في حياتي لم أكن أعرف ما الذي أريده، لم أكن أعرف ما الذي أنتظره منها أو من نفسي. ولم تكن ثمة طريقة للمقارنة، لم تكن لدي نماذج جاهزة أعرف من خلالها ما هي السعادة وما هي التعاسة. وراحت

اللحظات الطيبة، في ما بعد، تقدم التعريف المناسب للسعادة، وصارت اللحظات السيئة هي الوسيلة لتحديد صيغة تعريف التعاسة. هذا يسمى العفوية، ولكن كم كثيرة هي الهاويات التي تقود إليها العفوية. وقد كنت محظوظاً بالرغم من كل شيء. فإيزابيل كانت طيبة، وأنا لم أكن أبله. ولم تكن علاقتنا معقدة قطّ. ولكن، ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أننا وصلنا إلى الزمن الذي تُستنفد فيه جاذبية الجنس المهدَّدة تلك؟ «حدثني عن إيزابيل»، وكانت العبارة دعوة إلى الصراحة. أنا أعرف المخاطر التي تواجهني. فالغيرة من الماضي المستعاد قاسية إلى حدّ مرعب (لاستحالة إظهار الغضب، وغياب التحدي، وانعدام المنافسة) ومع ذلك، كنت صريحاً. تحدثت عن إيزابيل في أمور كانت لها حقاً، ولي أيضاً. لم أخترع إيزابيل أخرى تتيح لي أن أبدو أكثر جاذبية أمام أبيِّانيدا. لقد كان لدي الدافع لعمل ذلك طبعاً. فالمرء يحب أن يبدو دائماً في موقع جيد، وعندما يصل إلى الجيد فإنه يسعى إلى ما هو أفضل أمام من يحب، أمام من يريد أحدنا إظهار فضائله له، ليكون محبوباً لديه. لم أخترعها؛ أولاً، لأني أعتقد أن أبيِّانيدا جديرة بمعرفة الحقيقة؛ وثانياً، لأني أنا أيضاً جدير بذلك، لأنني منهوك من التكلف (والإنهاك في هذه الحالة هو أقرب إلى التقزز)، وعندما أقول التكلف، أعني ذلك التكلف الذي يضعه أحدنا مثل قناع على وجهه القديم الحساس. ولهذا لم أفاجأ بأنه كلما كانت أبيِّانيدا تتعمق في معرفة كيف كانت إيزابيل، كنت أتعمق في معرفة كيف كنتُ أنا نفسي.

الاثنين 19 آب (أغسطس)

بدأتُ اليوم إجازتي الأخيرة. لقد هطل المطر طوال النهار. وقد أمضيت فترة بعد الظهر كلها في الشقة. وأثناء ذلك استبدلت مقبسين كهربائيين كانا معطوبين، ودهنت خزانة صغيرة، وغسلت قميصين من النايلون. في السابعة والنصف جاءت أبيبًانيدا، ولكنها مكثت حتى الثامنة فقط. كان عليها أن تذهب إلى حفلة عيد ميلاد خالة لها. قالت لي إن مونبوث الذي حلّ مكاني في العمل، لا يطاق لكثرة أوامره وطلباته، وقد تشاجر مع روبليدو.

الثلاثاء 20 آب (أغسطس)

لقد مضى شهر على مغادرة خيمي البيت. وسواء أكنت أفكر في الأمر أم لا، فإن المشكلة ترافقني دائماً. ليتني استطعت التحدث إليه ولو مرة واحدة على الأقل!

الأربعاء 21 آب (أغسطس)

أمضيت اليوم في البيت، وقرأت لساعات طويلة، لكنني لم أقرأ سوى مجلات. لا أريد تكرار ذلك. فقراءة المجلات تسبب لي إحساساً فظيعاً بتبديد الوقت، وأشعر كما لو أن البلاهة تخدر عقلي.

الخميس 22 آب (أغسطس)

أشعر بشيء من الغرابة بعيداً عن المكتب. ربما يكون سبب هذا الشعور هو إدراكي بأن هذه الإجازة ليست البطالة النهائية الحقيقية،

وإنما هي بطالة محدودة ستنتهي، وأنني مهدد بالعودة ثانية إلى المكتب.

الجمعة 23 آب (أغسطس)

رغبتُ في تقديم مفاجأة لها، فوقفت أنتظرها على مسافة قريبة من المكتب. وفي الساعة السابعة وخمس دقائق، رأيتها قادمة. ولكنها كانت مع روبليدو. لست أدري ما الذي كان يقوله لها روبليدو؛ ولكنها كانت تضحك بانطلاق، وبسعادة حقيقية. منذ متى أصبح روبليدو مسلياً هكذا؟ دخلتُ إلى مقهى قريب، وتركتهما يمران، ثم مشيت وراءهما بعد ذلك، على بُعد نحو ثلاثين خطوة منهما. وعندما وصلا إلى شارع انديس، افترقا. انعطفت هي إلى شارع سان خوسيه. إنها ذاهبة إلى الشقة بالطبع. ودخلت أنا إلى مقهى صغير شديد القذارة، حيث قدموا لي فنجان قهوة ما زالت على حوافه بقايا أحمر شفاه. لم أشربه، ولكنني لم أطالب النادل باستبداله أيضاً. كنت منفعلاً، عصبياً، قلقاً. وكنت ضجراً من نفسي بصورة خاصة. أبيّانيدا تضحك مع روبليدو. وما هو السيئ في ذلك؟ أبيّانيدا في علاقة إنسانية بسيطة، وليس مجرد علاقة مكتب، مع شخص سواي. أبيّانيدا تمشي في الشارع مع رجل شاب، رجل من جيلها، وليس مع رمّة مثلي. أبيّانيدا بعيدة عني، أبيّانيدا تعيش لنفسها. لا شيء سيئ في هذا كله طبعاً. ولكن ربما كان سبب إحساسي الفظيع هو أنها المرة الأولى التي ألحظُ فيها، بصورة واعية، أنه يمكن لأبييانيدا أن تعيش وتتصرف وتضحك دون أن تكون حمايتي (ولن نقول محبتي) ضرورية لها. أعرف أن حديثها مع روبليدو

كان بريئاً. أو قد لا يكون كذلك. لأن روبليدو لا يعرف أنها مرتبطة. كم أشعر بالحماقة والتكلف والابتذال وأنا أكتب «إنها مرتبطة»، مرتبطة بأي شيء؟ قد يكون جوهر قلقي هو إدراكي أنها تشعر براحة أكبر وهي مع أناس شباب، وخاصة مع رجل شاب. وهناك مسألة أخرى تؤرقني. فهذا الذي رأيته ليس بالشيء المهم، ولكن ما بدأت أعيه هو أكبر بكثير، فما بدأت أعيه هو المجازفة بخسارة كل شيء. روبليدو ليس مهماً. إنه في نهاية المطاف شخص تافه لن يشد اهتمامها بأي حال، اللهم إلا إذا كنت لا أعرف حقيقتها على الإطلاق. حسن، هل سأعرفها؟ ليس روبليدو بالشخص المهم. ولكن، ماذا عن الآخرين، جميع الآخرين في العالم؟ إن كان بإمكان رجل شاب جعلها تضحك، فكم هم الآخرون الذين يمكن لهم الوقوع في حبها؟ إذا ما فقدتني يوماً (عدوتها الوحيدة التي ستجعلها تفقدني هي المنية. المنية. المنية الخبيثة التي حددت ميقاتاً لكل واحد منا)، ستكون حياتها بالكامل عندئذ ملكاً لها، وسيكون الزمن ملك يديها، وكذلك قلبها الذي سيظل فتياً، وسخياً، ورائعاً. أما إذا فقدتها أنا يوماً (عدوي الوحيد الذي سيجعلني أفقدها هو الرجل.. الرجل الموجود في جميع أركان العالم، الرجل الشاب القوي والواعد) فإنني سأفقد معها فرصتي الأخيرة في الحياة، وسأفقد آخر أنفاس الزمن، لأن قلبي الذي يشعر الآن بالسخاء، والسعادة، والتجدد، سيصبح من دونها قلباً هرماً إلى الأبد.

دفعتُ ثمن القهوة التي لم أتناولها ومشيت باتجاه الشقة. كنت أحمل في أعماقي خوفاً مخجلاً من صمتها، خاصة أني أعرف مسبقاً أنها لو لم تقل شيئاً، فإني لن أتقصى، ولن أسأل، ولن أؤنب. سأكتفي بابتلاع

مرارتي وحسب، وستبدأ بكل تأكيد مرحلة من العواصف والمشاحنات الصغيرة التي لن تخفف عني. ولدي ريبة خاصة تجاه فتراتي الرمادية. أظن أن يدي ارتعشت حين أدرتُ المفتاح في القفل. وسمعتها تصيح من المطبخ «لماذا تأخرت كثيراً؟ كنت أنتظر قدومك لأروي لك آخر حماقات روبليدو. يا له من شخص! منذ سنوات لم أضحك مثلما ضحكت اليوم». وجاءت إلى غرفة المعيشة بمريلة المطبخ، وتنورتها الخضراء، وكنزتها السوداء، وعينيها النقيتين الدافئتين والصريحتين. لن تعرف الوضع الذي كانت تنتشلني منه بتلك الكلمات. جذبتها نحوي، وبينما كنت أعانقها وأتشمم رائحة ذراعيها الحيوانية المحببة من خلال رائحة الصوف الكونية، أحسست بأن العالم قد عاد إلى الدوران من جديد، وأنني قادر على تجاهل المستقبل البعيد، المستقبل الذي لم يتحدد بعد، وتجاهل ذلك التهديد المحدد الذي سُمي: أبييَّانيدا والآخرين. وقلت بتمهل وانتشاء: «أبييانيدا وأنا». ولم تدرك هي سبب تلفظي بهذه الكلمات الثلاث في تلك اللحظة بالذات، ولكن حدساً غامضاً جعلها تدرك أن هناك شيئاً مهماً يحدث. فابتعدت عني قليلاً، دون أن تفلتني تماماً، وطلبت مني: «قلّ ذلك مرة أخرى». فكررت طائعاً: «أبييَّانيدا وأنا». إنني الآن وحدي، بعد أن عدت إلى البيت، والساعة الآن تقترب من الثانية فجراً، وما زلت أكرر بين الحين والآخر: «أبييَّانيدا وأنا»، لمجرد أن ذلك يمنحني القوة والنشاط ويجعلني أكثر ثباتاً.

السبت 24 آب (أغسطس)

نادرة هي المرات التي أفكر فيها بالرب. ومع ذلك، لدي خلفية دينية، قلق ديني. أرغب في إقناع نفسي بأنني أملك، بالفعل، تعريفاً محدداً للرب.. مفهوماً للرب. لكنني لا أملك شيئاً من هذا القبيل. نادرة هي المرات التي أفكر فيها بالرب، لأن المسألة وبكل بساطة تفوقني قوة وتسلطاً، وتثير بي نوعاً من الرهبة، وتتسبب في تبديد عام لما لدي من البصيرة والحجج. «الرب هو الشمول»، هذا ما تردده أبيبانيدا بكثرة. ويقول آنيبال: «الرب هو جوهر كل أشياء، وهو الذي يحافظ على توازن كل الأشياء وانسجامها. الرب هو التكامل العظيم». إنني قادر على فهم هذا التعريف أو ذاك، ولكن أياً منهما ليس تعريفي الخاص. قد يكونا مصيبين، ولكن هذا الذي يقولانه لا يمثل الرب الذي أحتاج إليه، فأنا أحتاج إلى رب أستطيع التحاور معه، رب أجد فيه الحماية، رب يستجيب لي عندما أسأله، عندما أنهال عليه بوابل شكوكي. فإذا كان الرب هو الشمول، وهو التكامل العظيم، وإذا كان الرب هو الطاقة التي تُبقي الكون حياً، وإذا كان شيئاً لا نهائياً إلى هذا الحد، فما هي أهميتي عنده أنا الذرة التي لا تعدو أن تكون قملة تافهة في ملكوته؟ لا يهمني أن أكون مجرد ذرة في آخر قملة في ملكوته. ما يهمني هو رب يكون في متناول يدي، أستطيع الإمساك به، ليس بيديّ طبعاً، ولا حتى بتفكيري. ما يهمني هو أن أستطيع الإمساك به بقلبي.

الأحد 25 آب (أغسطس)

جاءتني بصور لطفولتها، لأسرتها، لعالمها. وهذا دليل على الحب، أليس كذلك؟ لقد كانت طفلة نحيلة، في عينيها شيء من الذعر، وشعرها قاتم وسبط. إنها ابنة وحيدة. وأنا ابن وحيد كذلك. وليس هذا بالوضع السهل، لأن المرء ينتهي إلى الشعور بفقدان الحماية. هنالك صورة بديعة تظهر فيها مع كلب بوليسي ضخم، والحيوان ينظر إليها نظرة الحامي. يُخيل إليّ أن الجميع كانوا يرغبون دائماً في حمايتها. ومع ذلك، فهي ليست عزلاء إلى هذا الحد، إنها واثقة مما تريده. ويعجبني أنها واثقة. إنها واثقة من أن العمل يسبب لها الاختناق، ومن أنها لن تنتحر أبداً، ومن أن الماركسية هي خطأ كبير، ومن أنني أحظى بإعجابها، ومن أن الموت ليس نهاية كل شيء، ومن أن أبويها عظيمين، ومن أن الرب موجود، ومن أن الناس الذين تثق بهم لن يخذلوها أبداً. أنا لا أستطيع أن أكون حاسماً إلى هذا الحد. ولكن أفضل ما في ذلك كله هو أنها لا تخطئ. فثقتها تؤمّن لها حتى إخافة القدر. هناك صورة لها مع أبويها وهي في الثانية عشرة من عمرها. انطلاقاً من هذه الصورة يمكنني أنا أيضاً أن أكوّن انطباعاتي الخاصة عن شخصية هذين الزوجين الفريدين، المنسجمين، والمختلفين. الزوجة امرأة ناعمة التقاطيع، ذات أنف دقيق، وشعر أسود، وبشرة شديدة البياض، على خدها الأيسر شامتان. لها عينان صافيتان، ربما أكثر صفاء مما يجب، وربما إنهما لا تنفعان للالتزام تماماً بالمشهد الذي تريانه، وربما تعيشانه. ولكنهما تبدوان لي قادرتين على فهم كل شيء. والزوج رجل طويل القامة، كتفاه أقرب إلى الضيق، وله بداية صلعة آخذة بالقضاء على شعره منذ ذلك الحين. شفتاه رقيقتان جداً وذقنه حادة جداً كذلك،

ولكنها ليست عدوانية بأي حال من الأحوال. إنني شديد الاهتمام بعيون الناس. وفي عينيه شيء من عدم التوازن، وهو ليس عدم توازن ناتج عن غفلة أو ذهول، وإنما عن عدم اكتراث. إنهما عينا شخص فوجئ بالدنيا لمجرد وجوده فيها. وكلاهما طيب (وهذا ظاهر في وجهيهما). ولكنني أعجبت بطيبتها أكثر من إعجابي بطيبته. الأب رجل رائع، ولكنه غير قادر على التواصل الدائم مع العالم، ولا يمكن معرفة ما قد يحدث له يوم يتمكن من إقامة هذا التواصل. وتقول أبيبانيدا: «إن كلاً منهما يحب الآخر. أنا واثقة من ذلك، ولكنني لا أعرف إن كان هذا النوع من الحب هو الذي يعجبني». وتهز رأسها لتؤكد شكوكها، ثم تتحمس لتضيف: «في ما يتعلق بالمشاعر، هنالك مجموعة من المناطق المتجاورة والمتشابهة التي يمكن الخلط بينها بسهولة. فهناك الحب، والثقة، والشفقة، والرفاقية، والحنان؛ وأنا لا أعرف على وجه التحديد إلى أي منطقة من هذه المناطق تستند علاقة أبي وأمي. إنه أمر يصعب تحديده، ولا أظن أنهما قد تمكنا، هما نفسيهما، من تحديد ذلك. لقد لمّحت إلى الموضوع أثناء تبادل الحديث مع أمي في بعض المناسبات. وهي تعتقد أن هناك قدراً كبيراً من الصفاء في علاقتها بأبي، وأن هناك قدراً كبيراً من التوازن الذي يكفي لإيجاد الحب فعلاً. إن ذلك الصفاء، وذلك التوازن اللذين يمكن القول إنهما نقص في العاطفة كذلك، ما كان بالإمكان تحملهما لو أنه كان لدى أبي وأمي شيء يتبادلان اللوم بشأنه. ولكن لا وجود فيما بينهما للوم أو لما يستحق اللوم. وهما يعرفان أنهما طيبان، ونزيهان، وكريمان. ويعرفان كذلك أن هذا كله، بالرغم من عظمته، لا يعني بلوغ الحب، ولا يعني أنهما يكتويان بهذه النار. إنهما لا يكتويان، ولهذا فإن ما يجمعهما

يدوم أطول من الحب». «وماذا بشأنك وشأني؟ أنحن نكتوي؟» سألتها ذلك، ولكنها كانت ساهية في تلك اللحظة بالذات، وكانت نظرتها كذلك تبدو كنظرة شخص فوجئ بالدنيا لمجرد وجوده فيها.

الاثنين 26 آب (أغسطس)

أخبرتُ استيبان بأمر علاقتي مع أبييانيدا. كانت بلانكا قد خرجت لتناول الغداء مع دييغو، وهكذا أمضيت أنا واستيبان الظهيرة وحدنا. لقد أحسست براحة عظيمة حين قال لي إنه علم بالأمر. فقد أخبره خيمي بذلك. «انظر يا أبي، أنا لا أستطيع أن أفهمك تماماً، ولا أظن كذلك أن أفضل الحلول هو ارتباطك بفتاة تصغرك بسنوات كثيرة. ولكن هنالك شيء مؤكد؛ وهو أنني لا أتجرأ على محاكمتك. أعرف أن المرء حين ينظر إلى الأمور من بعيد، ولا يكون غارقاً فيها، يصبح من اليسير عليه أن يقول ما هو الخطأ وما هو الصواب. أما عندما يكون المرء غارقاً حتى أذنيه في المشكلة (وقد حدث لي ذلك مرات كثيرة)، فإن الأمر يختلف، والتوتر يختلف، وتبرز قناعات عميقة، وتضحيات لا مفر منها، وتنازلات قد تبدو غير مفهومة بالنسبة لمن يراقب الموقف وحسب. أتمنى لك السعادة، ولا أقصد السعادة بمعناها السطحي العابر، وإنما السعادة الحقة. وأتمنى لك الإحساس بأنك حامٍ ومحمي في آن واحد، لأن الشعور بالحماية هو من أجمل المشاعر التي يرغب فيها الكائن البشري. إنني أذكر القليل جداً عن أمي. وما أتذكره منها، في الواقع، هو صورة حقيقية طغت عليها الصور والذكريات التي

قدمها إليّ الآخرون، حتى إنني لم أعد أعرف أي تلك الذكريات هي ذكرياتي الخاصة. اللهم إلا صورة واحدة: صورتها وهي تسرح شعرها في غرفة النوم، بينما شعرها الأسود يتدلى على ظهرها. إن ذكرياتي عن أمي، كما ترى، ليست كبيرة. ولكنني مع مرور السنوات أخذت أعتاد على اعتبارها شيئاً مثالياً، شيئاً شبه سرمدي لا يمكن إدراكه. لقد كانت باهرة الجمال، أليس هذا صحيحاً؟ أفهم أن ذكرياتي هذه لا تمثل ما كانته أمي في الواقع. ومع ذلك، هذه هي صورتها بالنسبة إليّ. ولهذا السبب بالذات، صُدمتُ قليلاً عندما قال لي خيمي إنك تصاحب فتاة شابة. لقد صدمني ذلك، ولكنني أتقبله، لأني أعرف أنك كنت تشعر بوحدة شديدة. وقد ازداد إدراكي للأمر الآن، لأني بدأت بمتابعة تحولاتك، ورأيت أنك تنبعث من جديد. إنني لا أحاكمك، لا يمكنني أن أحاكمك؛ بل إنني أمضي إلى ما هو أبعد من ذلك وأقول لك إنه ليسعدني جداً أن تكون قد أصبت في اختيارك، وأن تدنو من حسن الطالع قدر المستطاع».

الثلاثاء 27 آب (أغسطس)

برد وشمس. شمس شتائية، وهي أكثر الشموس مودة، أكثرها رفقاً. ذهبت إلى ساحة ماتريث، وجلست على أحد المقاعد، بعد أن وضعت جريدة فوق ذرق الحمام الذي يغطي المقعد. كان هناك، قبالتي، عامل بلدية ينظف العشب. وكان يفعل ذلك برصانة، كمن هو فوق كل الدوافع. كيف سيكون شعوري لو أنني عامل بلدية، أنظف العشب؟

لا، ليس هذا العمل هو ما يستهويني. لو أنني أستطيع اختيار مهنة أخرى غير مهنتي، روتين آخر غير الذي استهلكني طوال ثلاثين سنة، فإنني سأختار أن أكون نادلاً في مقهى. وسأكون نادلاً فعالاً، قوي الذاكرة ومثالياً. وسأبحث عن روابط ذهنية كيلا أنسى أي طلب من طلبات الجميع. لا بد أنه سيكون من الرائع العمل دائماً مع وجوه جديدة، والتحدث بحرية مع شخص يأتي اليوم، فيطلب قهوة، ثم لا يرجع مرة أخرى على الإطلاق. إن الناس رائعون، مسلّون، إمكانيات كامنة. لابد أنه من الرائع العمل مع الناس بدلاً من العمل مع الأرقام، ومع دفاتر الحسابات، ومع الاستمارات. فحتى لو سافرت، حتى لو ذهبت من هنا وأتيحت لي الفرصة للمفاجأة بمناظر، ونصب تذكارية، ودروب، وأعمال فنية، فإن شيئاً لن يبهرني مثلما يبهرني الناس، مثل رؤية مرور الناس وتفحص سبحتهم، والتعرف هنا وهناك على أمارات السعادة والمرارة، رؤيتهم كيف يمضون مسرعين إلى مقاصدهم، في اضطراب نهم، بتعجل رائع، والتمعن في كيفية تقدمهم، وهم غير مدركين قصورهم، وتفاهة قيمتهم وحياتهم دون احتياطات، دون أن يشعروا أبداً بأنهم محاصرون، ودون أن يتقبلوا أنهم محاصرون. أعتقد أنني لم أنتبه قطّ، حتى الآن، إلى وجود ساحة ماتريث. لا بد أنني اجتزتها ألف مرة، وربما أنني لعنت، في مناسبات عديدة أخرى، الالتفاف الذي لا بد منه للدوران حول النافورة. لقد رأيتها من قبل، رأيتها بالطبع، ولكنني لم أتوقف للتمعن فيها، للإحساس بها، لاستخراج طابعها والتعرف إليه. وقفت لوقت لا بأس به أتأمل الروح العدوانية الراسخة في مبنى المجلس الإداري، ووجه الكاتدرائية المغسول بنفاق، وتمايل

الأشجار المتهالك. أظن أن قناعة حاسمة قد ترسخت لدي في تلك اللحظة: أنا من هذا المكان، من هذه المدينة. وأظن أنني في هذا الأمر (وربما ليس في أي أمر آخر سواه) يجب أن أكون جبريّاً. فكل إنسان ينتمي إلى مكان واحد فقط من الأرض، وعليه أن يدفع فيه حصته. أنا من هنا. وهنا أدفع حصتي. ذاك الشخص الذي يمر (ذو المعطف الطويل، والأذن البارزة، والعرج النزق) هو مثيلي. إنه ما زال يجهل أنني موجود، ولكنه سيراني ذات يوم مواجهة أو جانبياً أو من الخلف، وسيشعر بأن ثمة شيئاً سرياً يجمع بيننا، رابطة خفية تجمعنا وتمنحنا قوة للتفاهم فيما بيننا. أو ربما لن يصل ذلك اليوم أبداً، ربما لن يمعن النظر أبداً في هذه الساحة، في هذا الهواء الذي يجعلنا أقرباء.. الذي يساوي بيننا.. الذي يقيم تواصلاً فيما بيننا. ولكن، لا أهمية لذلك، فهو مثيلي على أي حال.

الأربعاء 28 آب (أغسطس)

لم يبق سوى أربعة أيام من إجازتي. لست مشتاقاً إلى المكتب، إنني مشتاق إلى أبيَّانيدا. اليوم ذهبتُ إلى السينما وحدي. رأيت فيلم كاوبوي. لقد استمتعت حتى منتصف الفيلم؛ ولكنني ضجرت بعد ذلك من نفسي، من صبري بالذات.

الخميس 29 آب (أغسطس)

طلبت من أبيَّانيدا أن تتغيب عن المكتب. أنا رئيسها، وقد

سمحت لها بذلك وكفى. لقد أمضت اليوم كله معي في الشقة. إنني أتصور ورطة مونيوث وقد تغيب اثنان من القسم، وأصبحت المسؤولية كلها ملقاة على كاهله. لست أتصور ذلك فقط، بل أتفهمه أيضاً. ولكن هذا غير مهم. إنني في سن يبدو أن الوقت فيها لا يُسترد، وهو لا يُسترد فعلاً. يجب عليّ أن أتشبث بيأس بهذه السعادة المعقولة التي جاءت تبحث عني ووجدتني. ولهذا لا يمكنني أن أكون شهماً، كريماً. لا يمكنني أن أصرف وقتي في التفكير في مشاكل مونيوث قبل أن أفكر في مشاكلي. إن الحياة تمضي، إنها تذهب الآن بالذات، وأنا لا أستطيع تحمل هذا الإحساس بتسربها، بنفادها، بانتهائها. هذا اليوم مع أبيَّانيدا ليس الأبدية، إنه يوم فقط، مجرد يوم بائس، شنيع، يوم محدود، وجميعنا، ابتداء من الرب فما دون، قد أدناه. إنه يوم وليس الأبدية، ولكنه البرهة التي تشكل، في نهاية المطاف، البديل الحقيقي الوحيد للأبدية. ولهذا عليّ أن أضغط قبضتيّ، عليّ أن أنفق هذا الكمال دون أي تحفظ، ودون أي احتياطات. ربما تأتي بعد ذلك البطالة الحاسمة، البطالة المأمونة، ربما تكون هناك بعد ذلك أيام كثيرة مثل هذا اليوم، وقد أفكر عندئذ بهذه اللهفة، بهذا التعجل، مثلما أفكر في إنهاك مضحك. ربما، فقط ربما. ولكن هذه الـ «حتى ذلك الحين» تحمل الراحة، وضمان ما هو موجود، ما يحدث فعلاً.

الجو بارد. لقد أمضت أبيَّانيدا النهار كله بكنزة وبنطال. وهكذا، كانت تبدو، بشعرها المعقود، كأنها فتى. قلت لها إن لها وجه بائع صحف. ولكنها لم تعرني كبير اهتمام. كانت مشغولة بقراءة

الأبراج. منذ سنة قرأ لها أحدهم برجها وتنبأ بمستقبلها. ويبدو أن ذلك المستقبل كان يتضمن عملها الحالي، وكان يتضمنني أنا بصورة خاصة. «رجل ناضج، شديد الطيبة، منطفئ بعض الشيء، ولكنه ذكي» كيف الحال؟ هذا أنا. «وأنتَ ما رأيكَ؟ هل يمكن أن يُقرأ المستقبل هكذا فقط؟». «لا أدري إن كان ذلك ممكناً، ولكن قراءة المستقبل تبدو لي كمصيدة. أنا لا أريد أن أعرف ما الذي سيحدث لي. سيكون ذلك رهيباً. هل تتصورين كم ستكون الحياة مرعبة إذا ما عرف أحدنا متى سيموت؟». «أنا أحب أن أعرف متى سأموت. فلو كان بمقدور أحدنا أن يعرف ميعاد موته، فإنه سيتمكن من تنظيم إيقاع حياته، سينفق نقوداً أكثر أو أقل، حسب رصيد الوقت المتبقي له». يبدو لي ذلك فظيعاً. ولكن نبوءة الأبراج تقول إنه سيكون لأبييّانيدا ابنان أو ثلاثة أبناء، وإنها ستكون سعيدة، ولكنها سترمل (ياه!)، وإنها ستموت بمرض في الدورة الدموية، بعد تجاوزها الثمانين. أبدت أبييانيدا قلقاً شديداً على الابنين أو الثلاثة أبناء. «هل ترغب أنت في إنجاب أبناء؟». «لستُ واثقاً تماماً من ذلك». إنها تدرك أن إجابتي هي الحذر مجسداً، ولكنها حين تنظر إليّ، أعرف أنها ترغب في أن يكون لها أبناء. ابن واحد على الأقل. فأقول: «لا تحزني، إذا أنت حزنت فإنني قادر على أن أوصي على توءم». إنها تعرف ما أفكر فيه، فتتألم لهذا، وتتمسك بالنبوءة. «ألا يهمكِ الترمل، مع أنه ترمل سريّ؟». «إنه لا يهمني، لأن إيماني لا يصل إلى ذلك المدى. فأنا أعرف أنكَ عصي على الموت، وأن النبوءات تمر بجانبكَ دون أن تلمسك». إنها ليست سوى صبية متكورة على

الأريكة، ساقاها مثنيتان، وقمة أنفها حمراء من البرد.

الجمعة 30 آب (أغسطس)

خلال الإجازة كنت أكتب يومياً. إن عودتي إلى العمل ترفع من معنوياتي. لقد كانت هذه الإجازة مقدمة مُشَهية لإحالتي على المعاش.

تلقت بلانكا اليوم من خيمي رسالةً حاقدة وعنيفة. والفقرة التي يخصصها لي تقول: «أخبري العجوز أن جميع غرامياتي كانت أفلاطونية، ولهذا يمكنه أن يدير ظهره ويتنفس باطمئنان كلما جاءه كابوس يظهر فيه شخصي الدنس. هذا في الوقت الحاضر». إن مقدار هذا الحقد مجتمعاً يجعله يبدو غير حقيقي. وأخيراً سأفكر في نهاية الأمر أن هذا الابن يحبني قليلاً.

السبت 31 آب (أغسطس)

أبيّانيدا وبلانكا تلتقيان دون علمي. لقد أفلتت من بلانكا عبارة قصيرة موحية، ثم انكشف كل شيء. «لم نكن نريد أن نخبرك، لأننا كنا نتعرف على أشياء كثيرة عنك». بدا لي الأمر في البداية مجرد مزحة تعيسة، ولكني أحسست بالتأثر فيما بعد. لم أجد بداً من تخيل الفتاتين وهما تتبادلان على التوالي صوراً غير مكتملة حول هذا الشخص البسيط الذي هو أنا. نوع من إعادة تركيب صورة مفتتة. ثمة فضول في هذا الأمر بالطبع. ولكنه ينطوي على محبة أيضاً. لقد أظهرت

أبيانيدا من جانبها إحساساً كبيراً بالذنب، وطلبت مني الصفح، وقالت للمرة المئة إن بلانكا كانت رائعة. تروقني صداقتهما من أجلي ومن خلالي وبسببي، ولكنني لا أستطيع التخلص أحياناً من الإحساس بأنني شيء مهم. فالواقع أني شخص مجرب تهتم به فتاتان.

الأحد، الأول من أيلول (سبتمبر)

انتهى اللهو. غداً سأذهب إلى المكتب من جديد. إنني أفكر في استمارات البيع، في كآبة ما بعد اللهو، في استنساخ السجلات، في دفاتر الشيكات، في صوت الوكيل... فتضطرب معدتي.

الاثنين 2 أيلول (سبتمبر)

استقبلوني كمنقذ. جميع المشاكل كانت دون حلّ. يبدو أن مفتشاً قد جاء وافتعل مشكلة كبيرة بشأن حماقة لا تستحق الاهتمام. كان مونيوث المسكين يغرق في كأس ماء. ووجدتُ سانتيني أكثر تخنثاً من المعتاد. استقبلني ببعض التملق الذي يحمل قدراً لا بأس به من الفضيحة. أهذا أفلاطوني أيضاً؟ يقال إنه نظراً لردي السلبي، سيؤتى بمساعد وكيل من شركة أخرى. مارتينيث ما زال مهموماً. اليوم، ولأول مرة بعد العاصفة، جاءت بالبيردي. إنها تهز مؤخرتها بحماسة جديرة بأفضل قضية.

الثلاثاء 3 أيلول (سبتمبر)

لقد حدثتني أبيّانيدا أول مرة عن خطيبها القديم. كان اسمه إنريكي

أفالوس، وهو يعمل في البلدية. دامت الخطوبة سنة واحدة فقط. سنة بالتمام، منذ نيسان السنة الماضية، حتى شهر نيسان من السنة الحالية. «إنه شخص طيب. ما زلت أكن له التقدير، لكن...» انتبهت إلى أنني كنت أخشى على الدوام هذا التوضيح، ولكني انتبهت أيضاً إلى أن خشيتي الكبرى كانت من عدم مجيئه. فإذا كانت قد تجرأت على فتح الموضوع، فهذا يعني أن الأمر لم يعد يهمها كثيراً. كانت جميع حواسي على أي حال معلقة بتلك الـ «لكن» التي لها في مسمعيّ وقعاً موسيقياً سماوياً. فقد كانت للخطيب السابق مزاياه (عمره، مظهره، وواقع أنه من وصل أولاً) وربما أنه لم يعرف كيف يستفيد من تلك المزايا جيداً. وابتداء من هذه الـ «لكن» تبدأ مزاياي، وأنا مستعد للاستفادة من هذه المزايا، أي أنني مستعد لحفر الأرض تحت قدمي إنريكي أفالوس المسكين. لقد علمتني التجربة أن إحدى أكثر الطرق فعالية لهزيمة الخصم في قلب امرأة مترددة، هي في امتداح ذلك الخصم نفسه دون تحفظ، والتحول إلى شخص شديد التفهم، وشديد النبل والتسامح، بصورة تؤثر في المتكلم نفسه. قالت: «الحقيقة أنني ما زلت أكن له التقدير، ولكني واثقة من أنني ما كنت سأشعر بالسعادة، ولو بصورة متوسطة معه». «ولماذا أنتِ واثقة إلى هذا الحدّ؟ ألا تقولين إنه شخص طيب؟». «إنه كذلك فعلاً. ولكن هذا غير كاف. ولا أستطيع أن آخذ عليه أيضاً أنه شديد التهور، بينما أنا شديدة التروي، لأني لستُ متروية إلى الحد الذي تزعجني فيه جرعة لا بأس بها من التهور، كما أنه ليس متهوراً إلى الحد الذي لا يؤثر فيه إحساس حقيقي بالتروي. لقد كانت المصاعب من نمط آخر. وأظن أن العائق الذي لا خلاص منه كان يتمثل في كوننا

لا نشعر بأننا قادران على التواصل. فقد كان يثير حفيظتي؛ وكنت أثير حفيظته. ربما كان يحبني، وكيف لأحدنا أن يعرف ذلك، ولكن الصحيح أنه كانت لديه مهارة خاصة في جرحي». يا للروعة. يجب أن أبذل جهداً كبيراً حتى لا تنفخ السعادة خديّ، ولكي أبدي على وجهي ملامح القلق كمن هو متأسف حقاً لانتهاء كل تلك العلاقة إلى إخفاق. بل كانت لدي القوة للدفاع عن خصمي: «وهل فكرتِ أنتِ في ما إذا كنت تتحملين كذلك جزءاً من الذنب؟ ربما كان يجرحك لأنك، بكل بساطة، كنت تنتظرين منه دوماً أن يجرحك. فالعيش إلى الأبد في حالة دفاعية ليس هو بكل تأكيد الأسلوب الأمثل لتحسين التعايش بين شخصين». فابتسمت عندئذ واقتصرت على القول: «معك لن أحتاج إلى العيش في حالة دفاعية. إنني أشعر بالسعادة». وقد كان هذا يفوق قدرتي على كبح مشاعري وإخفائها. لقد تسرب الرضا من كل مساماتي، واتسعت ابتسامتي من إحدى أذني حتى الأخرى، ولم أعد أهتم بالانشغال في أن أدمر نهائياً ما تبقى من سمعة المسكين إنريكي، المهزوم الرائع.

الأربعاء 4 أيلول (سبتمبر)

مونيوث، روبليدو، ميندييث، جميعهم حدثوني بإلحاح عن أبييّانيدا، عن مدى جودة عملها خلال فترة إجازتي، وعن إثباتها عملياً أنها زميلة رائعة. ما الذي حدث؟ كيف تصرفت أبييّانيدا في هذه الأيام لتدفع هؤلاء الأشخاص عديمي الإحساس إلى إبداء انفعالهم وتأثرهم؟

بل إن الوكيل نفسه استدعاني، وأثناء حديثه في أمور أخرى، أفلت هذه العبارة الساهية: «كيف حال الفتاة التي في قسمك؟ لدي تقارير جيدة عن عملها». نطقتُ بثناء رصين، وبأكثر النبرات عادية في الدنيا. ولكن ذلك السرطان أضاف قائلاً: «أتدري لماذا أسألك عنها؟ لأني قد أجيء بها إلى مكتبي، لتكون سكرتيرة لدي». ابتسم آلياً، وابتسمتُ آلياً. وقد كان تحت ابتسامتي، على الأقل، سيل من الشتائم البذيئة.

الخميس 5 أيلول (سبتمبر)

أظن أننا كلانا نشعر الشعور نفسه في هذا الشأن. الإحساس بضرورة أن يقول كل منا للآخر كل شيء. أنا أتحدث إليها وكأنني أحدث نفسي، بل وأفضل مما لو كنت أحدث نفسي في الواقع. إن ذلك أشبه بكون أبييّانيدا تشاطرني روحي، وكأنها تقبع في أحد أركان روحي، تنتظر نجواي، وتطلب صراحتي. وهي أيضاً تخبرني بدورها بكل شيء. أعرف أنني كتبت هذا الكلام في وقت سابق، وقلت: «هذا ما أظنه على الأقل»، ولكني لا أستطيع قول ذلك الآن، لأنه لن يكون صحيحاً بكل بساطة. فأنا أعرف الآن أنها تخبرني بكل شيء.

الجمعة 6 أيلول (سبتمبر)

رأيت بيغنالي في الكافيتريا، كان مختبئاً جيداً وراء منضدة في أقصى المحل، ومعه صبية ملفتة للنظر. حياني بإيماءة مبالغ فيها، وكأنه يريد أن

يؤكد لي أنه قد انطلق للانغماس في المغامرات على مستوى كبير. لقد كان هو ورفيقته يثيران في نفسي، من بعيد، شيئاً من الأسى. وفجأة وجدت نفسي أفكر: «وماذا بشأني أنا؟» لا شك أن بيغنالي شخص فظّ ومدّع وغليظ... ولكن، ماذا عني؟ كيف أبدو بالنسبة لمن ينظر إليّ من بعيد؟ قلما أخرج مع أبيّانيدا، فحياتنا تمضي في المكتب أو في الشقة. إنني أخشى أن تكون مقاومتي للخروج معها مستندة، قبل كل شيء، إلى خشية واعية من الوقوع في موقف سيئ. لا، هذا غير ممكن. في لحظة كان بيغنالي يتحدث فيها إلى النادل، رمقته الفتاة بنظرة ازدراء. لا يمكن لأبيّانيدا أن تنظر إليّ بمثل هذه النظرة.

السبت 7 أيلول (سبتمبر)

التقيت مع صديق استيبان. إنه واثق عملياً من إحالتي على المعاش خلال أربعة أشهر. هذا أمر مثير للفضول: «كلما اقتربت من البطالة، ازداد نفوري من المكتب وإحساسي بأنه مكان لا يطاق. أعرف أنه لم يبق لي سوى أربعة أشهر في تدوين القيود ومراجعة الميزانية وجدولة الحسابات والبيانات. ولكنني مستعد لتقديم سنة من حياتي مقابل اختزال هذه الشهور الأربعة إلى الصفر. حسن، لو أنني فكرت في الأمر جيداً فلن أتخلى عن سنة من حياتي، لأن في حياتي الآن أبييانيدا.

الأحد 8 أيلول (سبتمبر)

مارسنا الحب مساء اليوم. لقد فعلنا ذلك عدة مرات، ولكنني لم أسجل عددها مع ذلك. كان يوماً رائعاً. لم أشعر في حياتي قط بأنني

كنت قريباً من المجد مثلما شعرت اليوم. إني أفكر أحياناً في أن أبييانيدا هي قالب استقر في صدري وراح يوسعه، ويجعله في حالة ملائمة للاستقرار فيه براحة أكبر يوماً بعد يوم. الحقيقة أنني كنت أجهل أن لدي كل هذا الاحتياطي من الحنان. وليس يهمني كون هذه الكلمة بلا سمعة. لدي حنان وأنا فخور بذلك. فحتى الشهوة تصبح نقية، وحتى أكثر الممارسات التصاقاً بالجنس تصبح شبه طاهرة. ولكن هذا الطهر ليس نفاقاً، ليس تكلفاً، ليس مجرد إشارة إلى الروح. هذا الطهر هو عشق لكل سنتمتر في بشرتها، استنشاق لرائحتها، ذرع بطنها مساماً بعد آخر. إنه الوصول بالشهوة إلى الذروة.

الاثنين 9 أيلول (سبتمبر)

أعدوا اليوم في قسم المبيعات خديعة دموية لشخص يدعى مينيندث. إنه فتى ساذج، يؤمن بالتطير، دخل للعمل في المؤسسة مع سانتيني وسييرا وأبييانيدا. والقضية هي أن مينيندث اشترى بطاقة يانصيب كاملة من التي سيجري السحب عليها في الغد. قال إنه لن يُري البطاقة هذه المرة لأحد، لأن لديه هاجساً بأنه سيربح الجائزة الكبرى إن هو لم يعرض البطاقة على أحد. ولكن جابي بينيارون جاء في هذا اليوم، وحين فتح مينيندث محفظة نقوده ليدفع له، ترك ورقة اليانصيب على المنضدة بضع ثوان. لم ينتبه مينيندث إلى الأمر، ولكن روساس، وهو متطفل دائم التأهب، لمح البطاقة وحفظ الرقم في ذهنه، ثم رتب الخدعة على الفور. وكانت المزحة التي أعدها الجميع ليوم غد هي التالية: سيرتبون الأمر مع صاحب محل بيع بطاقات اليانصيب

المقابل للمكتب لكي يقوم، في موعد محدد، بتسجيل الرقم 15301 على اللوح مكان الرقم الفائز بالجائزة الكبرى. سيفعل ذلك لبضع دقائق فقط، ثم يمحوه بعدها. وقد أعجبت اللعبة بائع اليانصيب، ووافق على المشاركة فيها، خلافاً لما هو متوقع.

الثلاثاء 10 أيلول

ما حدث كان رهيباً. ففي الساعة الثالثة إلا ربعاً جاء غايثولو من الخارج، وقال بصوت عالٍ: «يا للعنة. لقد كنت أشتري بطاقات يانصيب تنتهي بالعدد واحد حتى يوم السبت الماضي، وها هي تكسب اليوم، بعد أن توقفت عن شرائها». وجاء من أقصى الغرفة السؤال المعد مسبقاً: «الجائزة الكبرى تنتهي بالعدد واحد إذن؟ هل تذكر العدد الذي يليه؟». «أظنه الصفر»، كان الرد صادراً بمزاج معكر. عندئذ قفز بينيّا من وراء مكتبه: «يا صاح، لقد اشتريت بطاقة تنتهي بالرقم 301»، ثم أضاف على الفور، متوجهاً إلى مينيندث الذي يعمل بجوار النافذة: «انظر يا مينيندث إلى اللوح. إذا كسب الرقم 301 فإنني سأصبح ثرياً حقاً». ويبدو أن مينيندث قد التفت إلى الخلف بكل رصانة، بوقار شخص لا يزال يكبح نفسه من الاستسلام للأوهام. ورأى الرقم المكتوب بخط كبير واضح 15301، فظل مشلولاً لبرهة. ويبدو لي أنه استعرض خلال تلك البرهة جميع الاحتمالات، واستبعد كذلك أي احتمال لوجود خدعة. فليس هناك أحد سواه يعرف الرقم الذي اشتراه. وكان المفروض أن تنهي اللعبة عند هذا الحد. فالخطة تقول إن الجميع سيلتفون عندئذ

حوله للسخرية منه. ولكن أحداً لم يتصور أن يقفز مينيندث من مكانه فجأة، ويخرج راكضاً حتى نهاية الممر. وحسب رواية شاهد عيان، فقد دخل، دون أن يطرق الباب، إلى مكتب الوكيل (الذي كان يستقبل حينئذ مندوب شركة أمريكية)، وقد ألقى مينيندث بنفسه عملياً على الوكيل، وقبل أن يخرج هذا الأخير من ذهوله، كان مينيندث يطبع قبلة مدوية على صلعته. حين علمتُ متأخراً بهذا التحول الذي طرأ على مسار الأمور، دخلت وراءه إلى مكتب الوكيل، وأمسكت مينيندث من ذراعه، وأخرجته من هناك بالقوة. وبين صناديق المكابس وبراغي قطع الغيار، وبينما هو يهتز في قهقهات كهربية لا يمكنني نسيانها إلى الأبد، أخبرته بالحقيقة الكاملة، بصوت أقرب على الصراخ. لقد أحسست بمدى فظاعتي وأنا أفعل ذلك، ولكن لم تكن ثمة وسيلة أخرى. لم أرَ من قبل رجلاً ينهار بتلك الصورة المفاجئة والتامة. فقد اعوجت ساقاه، وفتح فمه ولم يعد يستطيع إطباقه. وبعد ذلك، بعد ذلك فقط، غطى عينيه بيده اليمنى. أجلسته على كرسي، ودخلت إلى مكتب الوكيل لأوضح له حقيقة ما حدث؛ ولكن الأبله لم يكن قادراً على التسامح، لأن المندوب الأمريكي كان شاهداً على إهانته: «لا تتعب نفسك بشرح قصة لا يمكنني تصديقها. هذا المعتوه مفصول من عمله».

هذا هو الأمر الرهيب: إنه مفصول من عمله فعلاً، إضافة إلى سقوط حياته في هذه المرارة إلى الأبد. فتلك الدقائق الخمس من الوهم الهستيري ستبقى راسخة في ذهنه، لا يمكن محوها. حين علم الآخرون بخبر فصله من العمل، ذهبوا في جماعات إلى مكتب الوكيل، ولكن هذا السرطان ظل متشبثاً بموقفه لا يلين. لا ريب في أن هذا اليوم هو

الأكثر حزناً وفظاظة وغماً بين أيام السنوات الطويلة التي أمضيتها في المكتب. ومع ذلك، فقد توصلت رابطة القساة التي أعدت المزحة إلى التفاتة معقولة في اللحظة الأخيرة: فقد قرر العاملون في المكتب المساهمة بمبالغ صغيرة لجمع ما يساوي راتب مينيندث، وتقديمه إليه كل شهر، ريثما يجد عملاً آخر. ولكن، كانت هناك عقبة: فمينيندث نفسه يرفض هذه الهدية أو هذا الإصلاح للخطأ أو ما شئت من التسميات. كما أنه لم يعد يريد التحدث مع أحد في المكتب. يا للمسكين. إنني أؤنب نفسي لأني لم أنبهه إلى الخديعة منذ يوم أمس. ولكن، ليس هناك من يستطيع أن يتصور أن ردّ فعله سيكون متهوراً إلى ذلك الحدّ.

الأربعاء 11 أيلول (سبتمبر)

بعد غد هو يوم عيد ميلادي. ولكنها أرتني هداياها اليوم. قدمت إلي أولاً ساعة يد ذهبية. يا للمسكينة. لابد أنها دفعت كل مدخراتها ثمناً لها. بعد ذلك، وبشيء من الخجل، فتحت علبة صغيرة وعرضت عليّ هديتها الأخرى: قوقعة حلزونية متطاولة وواضحة الخطوط. قالت: «لقد التقطُها من شاطئ لابالوما في اليوم الذي أكملت فيه تسع سنوات. جاءت موجة وألقت بهذه القوقعة عند قدميّ، كأنها هدية من البحر. أظن أن تلك اللحظة كانت أسعد لحظات طفولتي. وهذه القوقعة هي أحب الأشياء المادية إلى نفسي على الأقل. أريدك أن تحتفظ بها وأن تبقيها معك دائماً. هل يبدو لك هذا مضحكاً؟»

إن القوقعة في كفي الآن، وسنصبح أنا وإياها صديقين جيدين.

الخميس 12 أيلول (سبتمبر)

دييغو شخص قلق، وبتأثير منه بدأت بلانكا تتحول إلى فتاة قلقة هي الأخرى. لقد تحدثتُ معهما مطولاً هذه الليلة. إن مصدر قلقهما هو البلاد، وجيلهما، وفي أعماق كلا المسألتين المجردتين، فإن قلقهما يدعى «هما نفسيهما بالذات». دييغو يريد القيام بشيء تمردي، إيجابي، استفزازي، تجديدي؛ شيء لا يعرف كنهه بالتحديد. ما يشعر به حتى الآن بكل زخم هو نوع من الرفض العدواني الذي ما زال يفتقر إلى شيء من التماسك. إنه يرى في لامبالاة الناس عندنا أمراً مشيناً، وكذلك في انعدام الدافع الاجتماعي لديهم، وفي ديمقراطيتهم المتساهلة تجاه الغش، وفي ردّ فعلهم السفيه وغير المؤذي حيال الزيف. يبدو له مرعباً على سبيل المثال، أن تكون هناك جريدة صباحية فيها سبعة عشر كاتب افتتاحيات يكتبون كهواة، وأن يكون هناك سبعة عشر مستثمراً يصرخون من فيلاتهم الفخمة، في منتجع بونتا دل إستي، ضد وباء الاسترخاء الرهيب، وسبعة عشر متظارفاً يستخدمون كل ما لديهم من ذكاء وألمعية لكي يناقشوا، بقناعة مستنبطة، أدق تفاصيل موضوع لا يؤمنون به، أو ليدافعوا بحماسة عن قضية يعتبرونها في أعماقهم غير عادلة. ويغيظه أن اليسار يستند، دون كثير من المواربة، إلى خلفية برجوازية مستقرة ذات مُثل متيبسة وتواضع منافق. «هل ترى أي مخرج من هذا الوضع؟» يسألني ويكرر السؤال بجزع صريح واستفزازي، ثم يضيف: «أنا من جهتي لا أرى

مخرجاً. هنالك أناس يفهمون هذا الذي يحدث، ويرون أن ما يحدث سخيف وعبثي؛ ولكنهم يكتفون بالندب والعويل. هنالك حاجة إلى العاطفة، وهذا هو سّر هذا الكوكب الديمقراطي العظيم الذي صرنا إليه. لقد تحولنا خلال بضعة عقود إلى جديين وموضوعيين، ولكن الموضوعية شيء غير استفزازي، إنها لا تنفع في تغيير العالم، بل إنها لا تنفع حتى في تغيير بلد جيب مثل بلدنا. إننا بحاجة إلى العاطفة، ويجب أن تكون عاطفة صارخة، أو أن يكون التفكير فيها صراخاً، أو كتابتها صراخاً. يجب الصراخ في مسامع الناس، لأن صممهم الظاهري هو نوع من الدفاع الذاتي، من الجبن والدفاع الذاتي غير الصحي. يجب علينا أن نوقظ في الآخرين إحساسهم بالخجل من أنفسهم، وأن نحول ما فيهم من دفاع ذاتي إلى قرف ذاتي. فاليوم الذي يشعر فيه مواطن أروغواي بالقرف من سلبيته الذاتية، هو اليوم الذي سيتحول فيه إلى شيء نافع».

الجمعة 13 أيلول (سبتمبر)

اليوم أكملت الخمسين من عمري. وهذا يعني أنني صرت منذ اليوم في الوضع الذي يؤهلني للإحالة على التقاعد. إنه يوم مرصود كما يبدو لإجراء مراجعة للحساب. ولكنني كنت أقوم بمراجعة الحساب طوال السنة. إن أيام المناسبات تفلقني، أيام الأفراح والأتراح المحددة في موعد بعينه. يبدو لي أنه من المحبط، مثلاً، أنه يجب علينا أن نبكي في كورال جماعي على موتانا في الثاني من تشرين الثاني، وأنه يجب

علينا أن ننفعل مبتهجين لمجرد رؤية العلم الوطني في الخامس والعشرين من شهر آب كل عام. لا يهمني، سواء أأعرف ذلك أم لا أعرفه.

السبت 14 آب (أغسطس)

لم يمر يوم أمس مع ذلك عبثاً. لقد قلت في لحظات عديدة اليوم، بيني وبين نفسي: «خمسون سنة»، فتنسلّ روحي إلى قدميّ. كنت أقف أمام المرآة، ولم أستطع أن أتفادى الإحساس بقليل من الشفقة، قليل من الرأفة على هذا الوجه المجعد، ذي العينين المتعبتين، على هذا الشخص الذي لم يصل ولن يصل أبداً إلى أي شيء. ما هو أكثر مأساوية ليس في كون المرء عادياً ومتوسط الأهمية ولكنه لا يعي ذلك؛ وإنما المأساوية القصوى هي في كونه عادياً ومعرفته أنه كذلك، وعدم رضاه عن هذا المصير مع أن مصيره هذا، من وجهة أخرى (وهنا أسوأ ما في الأمر) هو العدالة الصارمة. وبينما أنا أنظر في المرآة، ظهر فوق كتفي رأس أبييَّانيدا. فتوقدت عينا الشخص المجعد الذي لم يصل ولن يصل ليكون أي شيء أبداً، ونسي طوال ساعتين ونصف الساعة أنه قد أكمل خمسين سنة من عمره.

الأحد 15 أيلول (سبتمبر)

إنها تضحك. وأنا أسألها: «أتدركين ما الذي تعنيه خمسون سنة؟»، وهي تضحك. ولكن، ربما تدرك في أعماقها كل شيء وتودع ملاحظات متنوعة في سجلات الموازنة. ولكنها طيبة مع ذلك، ولا

تقول لي شيئاً. إنها لا تريد أن تقول إنه ستأتي لحظة محتمة سأنظر فيها إليها دون جنس، لحظة لا يكون فيها لإمساك يدها بيدي وقع الصدمة الكهربائية، لحظة أكنّ لها فيها الحنان الرقيق الذي يكنه المرء لبنات أخوته أو لبنات الأصدقاء، أو لأقدم ممثلات السينما، الحنان الذي يصبح نوعاً من الزينة الذهنية ولكنه غير قابل لأن يَجرح أو يُجرح، غير قادر على التسبب في جروح ولا في تسريع القلب، حنان وديع، سلس وغير مؤذٍ، يبدو كأنه سلفة من محبة الرب الرتيبة. سأنظر إليها آنذاك ولن أتمكن من الإحساس بالغيرة، لأن موسم الأعاصير يكون قد انقضى. حين تظهر سحابة في سماء الستينات الصافية، فإنها ستكون سحابة الموت كما هو معروف. لا بد أن هذه العبارة هي الأكثر تكلفاً بين كل ما كتبته في هذا الدفتر، ربما هي مضحكة. وربما هي الأكثر حقيقية. لماذا ينطوي ما هو حقيقي على شيء من التكلف دائماً؟ الأفكار تفيد في تشييد ما هو جليل دون تبرير، ما هو رواقي دون سفسفة، وما هو متوازن دون تحفظ، ولكن التبريرات، والسفسفات،والتحفظات كامنة في الواقع، وحين نصل إلى ما نرمي إليه، نستكين ونضعف. وكلما كانت الأهداف التي علينا إنجازها جليلة أكثر، تبدو مضحكة أكثر تلك الأهداف التي لم تُنجز. سأنظر إليها ولن أستطيع الإحساس بالغيرة من أحد؛ ستكون الغيرة من نفسي فقط، غيرة من هذا الشخص الذي يشعر اليوم بالغيرة من الجميع. خرجتُ مع أبييانيدا ومع سنوات عمري الخمسين، وتمشيت معها ومعهن على امتداد الشارع الثامن عشر. كنت أرغب في أن يراني الناس معها. أظن أنني لم أصادف أحداً من المكتب. ولكن رأتني زوجة بيغنالي، ورآني أحد أصدقاء خيمي واثنان

من أقربائها. وفوق ذلك (كم هي رهيبة هذه الفوق ذلك) التقيت عند تقاطع الشارع الثامن عشر مع شارع ياغواروون بأم إيزابيل. إنه أمر لا يُصدق: لقد مضت سنوات وسنوات على وجهي ووجهها، ومع ذلك ما زال قلبي ينقبض كلما رأيتها؛ الحقيقة أن ما يحدث هو شيء أكثر من الانقباض، إنه طفرة غضب وعجز. فهي امرأة صلبة لا تُهزم، صلبة إلى حدّ يثير الإعجاب، ولا يستطيع المرء معه إلا أن يرفع لها قبعته. سلّمت عليّ بالتحفظ العدواني نفسه الذي كانت تعاملني به قبل عشرين سنة، ثم أحاطت أبيبانيدا بنظرة طويلة تشخيصية وتيئيسية في آن واحد. وقد أحست أبيبانيدا بالهزة، فشدت على ذراعي وسألتني عمن تكون. فقلت «إنها حماتي». وهذا صحيح: إنها حماتي الأولى والوحيدة. فحتى لو تزوجت من أبيبانيدا، وحتى لو لم أكن زوجاً لإيزابيل في يوم من الأيام، فإن هذه المرأة الطويلة الجبارة والحاسمة، ذات الستين عاماً، ستكون حماتي الكونية، منذ الأزل وإلى الأبد؛ إنها حماتي التي لا خلاص منها، والمتحدرة مباشرة من رب الرعب الذي أرجو ألا يكون له وجود، ولو لمجرد تذكيري بأن الدنيا هي هكذا، فالدنيا أيضاً تتوقف أحياناً لتتأملنا بنظرة يمكن لها أن تصل أيضاً لأن تكون تشخيصية وتيئيسية.

الاثنين 16 أيلول (سبتمبر)

خرجنا من المكتب معاً تقريباً، ولكنها لم تشأ الذهاب إلى الشقة. إنها مصابة بالرشح. وهكذا ذهبنا إلى صيدلية واشتريت لها شراباً مقشعاً.

بعد ذلك ركبنا سيارة أجرة وأنزلتها على مسافة شارعين من بيتها. إنها لا تريد المجازفة بأن يعرف أبوها بعلاقتنا. مشت بضع خطوات، ثم التفتت ولوحت لي بتحية مرحة بيدها. والواقع أنه ليس هنالك ما هو مهم في ذلك، ولكنني رأيت الألفة والبساطة في إيماءتها تلك. فأحسست بالراحة في تلك اللحظة، وأصبحتُ متأكداً من أن ثمة تواصلاً فيما بيني وبينها، ربما يكون تواصلاً بائساً، ولكنه أكيد إلى حدّ مطمئن.

الثلاثاء 17 أيلول (سبتمبر)

لم تحضر أبيِّانيدا إلى المكتب.

الأربعاء 18 أيلول (أيلول)

لقد عاد سانتيني إلى مناجياته مرة أخرى. إنه مقرف ومسلٍ في الوقت نفسه. قال إن أخته لم تعد تأتيه لترقص أمامه وهي عارية. لقد أصبح لديها خطيب.

أبيِّانيدا لم تحضر إلى المكتب اليوم أيضاً. يبدو أن أمها قد اتصلت بالهاتف أثناء غيابي، فتحدثتْ إلى مونيوث. قالت إن ابنتها مصابة بالرشح.

الخميس 19 أيلول (سبتمبر)

اليوم بدأتُ أفتقدها حقاً. لقد كانوا يتحدثون عنها في القسم،

وأحسستُ فجأة بأن عدم مجيئها صار لا يطاق.

الجمعة 20 أيلول (سبتمبر)

لم تحضر أبيّانيدا اليوم أيضاً. لقد ذهبتُ هذا المساء إلى الشقة، وخلال خمس دقائق اتضح لي كل شيء. لقد تلاشت كل وساوسي خلال خمس دقائق: سوف أتزوج. فقد كان غيابها هذا أكثر إقناعاً من كل الحجج التي أسوقها، ومن كل الأحاديث التي أجريتها معها. كم أصبحت مدمناً عليها... على حضورها.

السبت 21 أيلول (سبتمبر)

اعترفتُ بالأمر لبلانكا، وخلّفتها سعيدة. يجب أن أخبر أبيّانيدا، عليَّ أن أخبرها لأني وجدت الآن كل القوة وكل القناعة التي أحتاج إليها. ولكنها لم تأتِ اليوم أيضاً.

الأحد 22 أيلول (سبتمبر)

ألا يمكنني أن أرسل إليها برقية؟ لقد أوصتني بعدم الذهاب إلى بيتها، ولكنها إذا لم تظهر يوم غد الاثنين، فإنني سأجد أي ذريعة على أي حال كي أزورها.

الاثنين 23 أيلول (سبتمبر)

رباه، رباه، رباه، رباه، رباه، رباه.

الجمعة 17 كانون الثاني (يناير)

منذ أربعة شهور لم أدوّن شيئاً. ففـي الثالـث والعشرين من أيلول لم تكن لدي الشجاعة الكافـية لكتابة ذلك.

فـي الثالـث والعشرين من أيلول، الساعة الثالثة عصراً، رنّ جرس الهاتف. رفعتُ السماعة وأنا محاط بالموظفـين والمعاملات والاستشارات. قال صوت رجل: «السيد سانتومي؟ اسمع، من يتحدث إليك هو خال لورا. هناك خبر سيئ يا سيدي، خبر سيئ حقاً. لقد توفـيت لورا صباح اليوم».

لم أشأ، للوهلة الأولى، أن أفهم. لورا ليست أحداً، وهي ليست أبييّانيدا. «لقد توفـيت»، هذا ما قاله صوت الخال. وما الذي يعرفه هو؟ ماذا يعرف عن كيف أنه يمكن لخبر سيئ أن يحطم المستقبل والوجه والملمس والحلم؟ ما الذي يعرفه، إيه؟ الشيء الوحيد الذي يعرفه هو أن يقول: «توفـيت»، شيء سهل بصورة لا تطاق. ولا بد أنه كان يهز كتفـيه. وهذا شيء مقرف أيضاً. ولهذا السبب أقدمتُ على تصرف فظيع. حوّلت استمارة مبيعات كانت فـي يدي اليسرى إلى كرة، وقرّبت باليد اليمنى سماعة الهاتف من فمي، وقلت ببطء: «لماذا لا تذهب إلى البراز؟» لست أذكر جيداً. يبدو لي أن الصوت سألني عدة مرات: «ماذا قلت يا سيد؟» ولكنني أنا أيضاً قلت عدة مرات: «لماذا لا تذهب إلى البراز؟» عندئذ انتزعوا سماعة الهاتف من يدي وتكلموا مع الخال. أظن أنني صرخت، لهثت، تفوهت بحماقات. كنت لا أكاد

أستطيع التنفس. أحسست بأنهم يوسعون حول رقبتي.. يحلون ربطة عنقي. وكان هناك صوت مجهول يقول: «لقد كانت الصدمة مؤثرة»، وصوت آخر أعرفه، صوت مونيوث، راح يوضح: «كانت موظفة يكنُّ لها أشد الاحترام». وسط ضبابية تلك الأصوات، كان هناك نشيج سانتيني أيضاً، وتوضيح مبتذل من جانب روبليدو حول سر الموت، وتعليمات الوكيل الروتينية بإرسال إكليل من الزهر. وأخيراً، تمكن سيرا ومونيوث من إدخالي إلى سيارة أجرة، وجاءا بي إلى البيت.

فتحت بلانكا الباب مذعورة، لكن مونيوث طمأنها على الفور: «لا تقلقي يا آنسة، والدك على ما يرام. أتدرين ما الذي حدث؟ لقد توفيت زميلة لنا، وقد تأثر جداً. معه حق، لأنها كانت فتاة رائعة». هو أيضاً قال إنها «توفيت». حسن، ربما أحسن الخال ومونيوث والآخرون صنعاً بقولهم إنها «توفيت»، لأن لهذه الكلمة وقعاً مضحكاً جداً، وبارداً جداً، وبعيداً جداً عن أبيّانيدا، بحيث لا يمكن لهذه الكلمة أن تجرحها، لا يمكن لها أن تدمرها.

عندئذ، عندما أصبحتُ في البيت، وحيداً في غرفتي، بعد أن كررت لي بلانكا المسكينة تعزيتها الصامتة، حركتُ شفتي لأقول: «لقد ماتت.. أبيّانيدا ماتت» لأن ماتت هي الكلمة المناسبة. ماتت تعني انهيار الحياة، ماتت كلمة تأتي من الأعماق، تحمل معها أنفاس الألم الحقيقي، ماتت هي التلاشي، هي الخواء العاجز والشامل، هي الهوة البسيطة.. الهوة. عندما حركتُ شفتي حينئذ لأقول: «ماتت»، رأيت وحدتي المقيتة، هذا الشيء الذي تبقى في داخلي، وهو قليل جداً. وبكل الأنانية التي أمتلكها، فكرتُ في نفسي، في الجَزِعِ المرقع

الذي صرت إليه. ولكن تلك كانت، في الوقت نفسه، هي الطريقة الأكثر أصالة للتفكير فيها، والطريقة الأكثر شمولية لتصورها. لأني حتى الساعة الثالثة، من بعد ظهر الثالث والعشرين من أيلول، كنت أمتلك في أعماقي من أبيّانيدا أكثر بكثير مما أمتلك من نفسي. كانت قد بدأت تتغلغل فيَّ، تتحول إلى ذاتي، مثل نهر يمتزج تماماً بالبحر حتى يصير في النهاية مالحاً مثل البحر. لهذا، حين كنت أحرك شفتي وأقول: «ماتت» كنت أشعر بأنني مخترق، مسلوب، خاوٍ، وبلا قيمة. لقد جاء أحدهم وقرر: «جردوا هذا الشخص من أربعة أخماس كيانه». وقد جردوني. وأسوأ ما في الأمر هو أن ما تبقى مني، هذا الخُمس الذي صرته، ما زال يعي مع ذلك ضآلته وتفاهته. لقد تبقى لدي خُمس نواياي الطيبة، ومشاريعي الطيبة، وغاياتي الطيبة، ولكن الخُمس الذي تبقى من صفائي الذهني يكفيني كي أدرك أن هذا كله لا ينفع شيئاً. لقد انتهى الأمر بكل بساطة. لم أشأ الذهاب إلى بيتها، لم أشأ رؤيتها ميتة، لأن ذلك سيكون غير لائق. لأني سأراها ولن تراني. لأني سألمسها ولن تلمسني، لأني سأعيش وهي لن تعيش. إنها شيء آخر، إنها اليوم الأخير، حيث يمكنني أن أعاملها معاملة الند للند. إنها ستبقى مثلما كانت وهي تنزل من سيارة الأجرة، حاملة الدواء الذي اشتريته لها، وستبقى مثلما سارت بضع خطوات ثم التفتت لتلوح لي مودعة. الحركة الأخيرة، الأخيرة، الأخيرة. أبكي، أتشبث بتلك الحركة. في ذلك اليوم، كنتُ أقول إنني تأكدت من وجود تواصل بيني وبينها. ولكن التأكد كان موجوداً طالما هي موجودة. إن شفتي تتحركان الآن وتقولان: «ماتت، أبيانيدا ماتت»، وقد انهار التأكد. فالتأكد شيء مستهتر، شائن، ليس

له ما يفعله هنا. لقد رجعتُ إلى المكتب بالطبع، إلى حيث التعليقات تخترقني وتضجرني وتجعلني أتعفن. «قالت لي ابنة خالتها إنها أصيبت برشح عادي، وفجأة، هوب! توقف قلبها». أسلمت نفسي للعمل من جديد، قمت بحل القضايا، وأجريت استشارات، وأمليت تقارير. إنني موظف نموذجي حقاً. في بعض الأحيان يقترب مني مونيوث أو روبليدو أو حتى سانتيني نفسه، ويحاولون فتح حديث ذكريات بمقدمة من هذا النوع: «حين أفكر في أن هذا العمل كانت تقوم به أبييَّانيدا» أو «انظر أيها الرئيس، هذه ملاحظة سجلتها أبييانيدا». فأرفع عيني عن الورقة عندئذ وأقول: «حسن، هذا يكفي، يجب أن نواصل الحياة». نقاط التعاطف التي اكتسبتها في الثالث والعشرين من أيلول، أخذتُ أخسرها شيئاً فشيئاً. أعرف أنهم يتمتمون قائلين إني أناني وغير مبالٍ، وإن مصائب الآخرين لا تهزني. لا تهمني تمتمتهم. إنهم في الخارج. إنهم خارج العالم الذي كنتُ فيه أنا وأبييَّانيدا. خارج ذلك العالم الذي كنت فيه أنا وأبييَّانيدا. خارج هذا العالم الذي أنا فيه الآن، أنا وحدي، مثل بطل، ولكن دون أي مسوغ للإحساس بالشجاعة.

الأربعاء 22 كانون الثاني (يناير)

أحياناً أتحدث عنها مع بلانكا. لا أبكي، لا أقنط؛ أتحدث وحسب. أعرف أن هنالك صدى. إن بلانكا هي من تبكي وتقنط. تقول إنها لا تستطيع أن تؤمن بالرب. وإن الرب قد منحني الفرص وانتزعها مني، وإنها لا تشعر بأن لديها القوة الكافية للإيمان برب القسوة، بساديٍّ

بغيض. أما أنا فلا أشعر مع ذلك بأنني ممتلئ بمثل ذلك الغضب. في الثالث والعشرين من أيلول (سبتمبر) كتبتُ عدة مرات: «رباه». وتلفظتُ بها أيضاً، وأحسست بها كذلك. أحسست أول مرة في حياتي أنني قادر على الحوار معه. ولكن كان لدى الرب في الحوار جانب ضعيف ومتردد، كما لو أنه غير واثق تماماً من نفسه. ربما كنتُ على وشك التأثير عليه واستثارة عواطفه. وقد راودني كذلك إحساس بأن هنالك حُجة حاسمة، حجة إلى جانبي، أمامي، ولكنني لا أستطيع مع ذلك التعرف إليها، ولا أستطيع ضمها إلى مرافعتي. عندئذ، وبعد انقضاء تلك المهلة التي منحني إياها كي أقنعه، بعد انقضاء ذلك التظاهر بالتردد والمهابة، استعاد الرب قواه أخيراً. عاد الرب ليكون الإنكار كلي القدرة المعهود. ومع ذلك، لا يمكنني الحقد عليه، لا يمكنني لمسه بكراهيتي. أعرفُ أنه منحني الفرصة ولم أعرف الاستفادة منها. ربما سأتمكن ذات يوم من الإمساك بتلك الحجة الوحيدة الدامغة، ولكنني سأكون عندئذ تالفاً بصورة رهيبة وسيكون هذا الحاضر أكثر تلفاً مني. إنني أفكر أحياناً في أنه لو كان الرب يلعب لعبة نظيفة، لمنحني كذلك الحجة التي كان عليّ استخدامها ضده. ولكن لا. غير ممكن. فأنا لا أريد رباً يقدم لي كل شيء جاهزاً، مثلما يفعله أولئك الآباء المزدهرون في حي رمبلا، المتعفنون بالفضة، لأبنائهم اللطفاء وغير النافعين. هذا غير ممكن حقاً. لقد بردت الآن العلاقات بيني وبين الرب. هو يعرف أنني غير قادر على إقناعه. وأنا أعرف أنه توحد بعيد، لم يكن لي ولن يكون سبيل لولوجه. إننا هكذا، كل واحد منا في ضفته، دون أن يكره أحدنا الآخر، ودون أن يحب أحدنا الآخر، وغريبين أحدنا عن الآخر.

الجمعة 24 كانون الثاني

اليوم، خلال النهار كله، أثناء تناولي الفطور، وأثناء العمل، وأثناء تناول الغداء، وأثناء النقاش مع مونيوث، كنت مستغرقاً في فكرة واحدة، تتفرع بدورها إلى شكوك عديدة: «ما الذي فكرتْ هي فيه قبل أن تموت؟ ما الذي كنت أمثله بالنسبة إليها في تلك اللحظة؟ هل تذكرتني؟ هل تلفظتْ باسمي؟

الأحد 26 كانون الثاني (يناير)

لقد أعدت قراءة يومياتي للمرة الأولى، من شهر شباط حتى كانون الثاني. يجب عليّ أن أبحث عن ذكرى كافة لحظاتها. لقد ظهرت أول مرة في المذكرات يوم 27 شباط. ويوم 12 آذار دونتُ في مذكراتي ما يلي: «عندما تقول لي: يا سيد سانتومي، ترمش دائماً. ليست آية في الجمال. ولكنها تبتسم بطريقة مقبولة. ووجود شيء أفضل من لا شيء»، هذا ما كتبته أنا، هكذا فكرتُ فيها في أحد الأيام. وفي العاشر من نيسان قلت: «هنالك في أبييَّانيدا شيء يجذبني إليها. هذا لا شك فيه. ولكن، ما هو؟» حسن، ماذا كان ذلك الشيء؟ مازلتُ أجهله. كانت تجذبني عيناها، صوتها، خصرها، فمها، يداها، ضحكتها، إرهاقها، خجلها، بكاؤها، صراحتها، حزنها، ثقتها، رقتها، حلمها، خطوها، زفراتها. ولكن أياً من هذه الملامح لم يكن كافياً لاجتذابي باندفاع وبالكامل. كل عنصر جذاب فيها كان يستند إلى الآخر.

لقد كانت تجتذبني ككل متكامل، كمجموع عناصر جذب غير قابلة للاستبدال، أو ربما قابلة للاستبدال. في اليوم السابع عشر من أيار قلت لها: «أظن أنني مغرم بك»، وقد ردت عليّ: «كنتُ أعرف ذلك». وواصلت قول ذلك لي، إنني أسمعها تقوله، فيتحول هذا الحاضر كله إلى شيء لا يطاق. وبعد يومين من ذلك، قلت لها: «إن ما أبحث عنه بشجاعة هو اتفاق، نوع من التوافق ما بين حبي وحريتك». وقد أجابت: «حضرتك تعجبني». يا لفظاعة الألم الذي تُحدثه هاتان الكلمتان. في السابع من حزيران قبلتّها، وفي تلك الليلة كتبتُ أقول: «غداً سأفكر. إنني مرهق الآن. ويمكنني أن أقول أيضاً إنني سعيد. ولكنني حذر جداً، إلى حدّ لا يمكنني الشعور معه بالسعادة الكاملة. حذر من نفسي، ومن الحظ، ومن هذا المستقبل الوحيد الملموس الذي يدعى غداً. وحذر تعني: غير واثق». ومع ذلك، ما الذي جنيته من عدم الثقة ذاك؟ هل انتهزته لأعيش بصورة أشد زخماً وأكثر دأباً وحزماً؟ الحقيقة أنني لم أفعل ذلك. ثم اكتسبتُ بعد ذلك شيئاً من الثقة، فكرت في أن كل شيء يكون على ما يرام إن كان أحدنا واعياً أنه يحب، وأنه يحب ويجد لحبه صدى، انعكاساً. في الثالث والعشرين من حزيران، حدثتني عن أبويها، عن نظرية السعادة التي أبدعتها أمها. ربما كان عليّ أن أستبدل حماتي الكونية القاسية بهذه الصورة الطيبة، بهذه المرأة التي تتفهم وتصفح. في الثامن والعشرين من حزيران، وقع أهم حدث في حياتي. وقد انتهى الأمر بي أنا نفسي، أجل أنا نفسي ولا أحد سواي، إلى الدعاء: «فليستمر هذا الوضع»، ولكي أضغط على الرب، لمستُ خشباً لا قوائم له. ولكن تبين لي الآن أن الرب منزه عن الرشوة. بل إنني

سمحت لنفسي، في السادس من تموز، أن أدون: «وأدركت فجأة أن تلك اللحظة، تلك البرهة من الحياة اليومية، هي أقصى درجات الرخاء، وأنها منتهى السعادة». ولكنني سرعان ما صفعت نفسي صفعة تنبيه: «أنا واثق من أن الذروة هي ثانية واحدة، لحظة قصيرة، وميض عابر، وليس لأحدنا الحق في إطالة أمدها». لقد كتبت ذلك كلاماً، ولكنني أعرفه اليوم واقعاً. فقد كنت أؤمن في أعماقي بأنه ستكون هناك إطالة، وبأن الذروة لن تكون مجرد نقطة وحسب، وإنما هضبة طويلة لا تنتهي. ولكن لم يكن لدي الحق في إطالتها، لا حق لي بالطبع. بعد ذلك، كتبت حول كلمة «أبيَّانيدا»، وكل ما تتضمنه من المعاني. أما اليوم، فإنني أفكر في أن كلمة «أبيَّانيدا» تعني: «غير موجودة، ولن يكون لها وجود إلى الأبد». ولا أستطيع ذلك.

الثلاثاء 28 كانون الثاني (يناير)

هناك في الدفتر أشياء أخرى كثيرة، ووجوه أخرى كثيرة: بيغنالي، آنيبال، أبنائي، إيزابيل. لا شيء من هذا كله يهمني، ولا وجود لشيء منه. فحين كانت أبيَّانيدا موجودة، تفهمتُ مرحلة إيزابيل بصورة أفضل، وتفهمت إيزابيل نفسها بصورة أفضل. ولكن أبيَّانيدا ليست موجودة الآن، لقد اختفت وراء ستارة سميكة وقاتمة من الخمود.

الجمعة 31 كانون الثاني (يناير)

أدافع في المكتب بعناد عن حياتي (موتي) الجوهرية، الحميمة،

العميقة. لا أحد يعرف ما الذي يحدث في داخلي بالضبط. وانهياري يوم 23 أيلول كان في نظر الجميع تأثراً مفهوماً ليس أكثر. لقد أصبح الحديث عن أبيبانيدا يتضاءل الآن، وأنا لا أفتح هذا الموضوع. إنني أحميها بالقوى القليلة المتبقية لدي.

الاثنين 3 شباط (فبراير)

كانت تمد إليّ يدها، ولم تكن هناك حاجة لأكثر من ذلك. فهذا يكفي لكي أشعر بأنني محمي. لقد كانت تمد إليّ يدها، وكان ذلك حباً أكثر من تقبيلها، وأكثر من اضطجاعنا معاً، وأكثر من أي شيء آخر. كانت تمد إليّ يدها.

الخميس 6 شباط (فبراير)

خطرت لي الفكرة في الليلة الماضية، وقد نفذتها اليوم. في الساعة الخامسة هربت من المكتب. عندما وصلت إلى البيت رقم 368 وضغطتُ على الجرس، أحسست بلدغة في حلقي وبدأت أسعل.

فُتح الباب، وكنتُ لا أزال أسعل مثل شخص حلّت عليه لعنة. كان أبوها هو الذي فتح الباب. إنه الأب نفسه الذي رأيته في الصور، ولكنه أكبر سناً، وأشد حزناً، وأكثر تعباً. سعلتُ بقوة أكبر كي أتغلب نهائياً على نوبة السعال، وتمكنت من سؤاله عما إذا كان هو الخياط. فأمال رأسه إلى أحد الجانبين ليجيب بنعم. «حسن، أريد أن أصنع بدلة». أدخلني إلى المشغل. «لا تفكر أبداً في أن تصنع بدلة عنده، فهو يصنعها كلها على مقاس دمية المانيكان»، هذا ما كانت قد

قالته لي أبيبانيدا. وهناك كانت دمية المانيكان: ثابتة، ساخرة مبتورة الأطراف. اخترتُ القماش، وعددتُ بعض التفاصيل، واتفقتُ معه على السعر. وعندئذ اقترب من الباب الداخلي ونادى دون صراخ: «روسا». كانت أبيبّانيدا قد قالت لي: «أمي تعرف بأمر علاقتنا. أمي تعرف كل شيء عني». ولكن علاقتنا لا تتضمن معرفة كنيتي أو ملامح وجهي أو طول قامتي. فعلاقتنا بالنسبة إلى الأم كانت تعني أبيبّانيدا وعشيق بلا اسم. قدمها الأب: «زوجتي. السيد... ما هو اسمك الذي قلته؟» فكذبت عليه: «موراليس». «صحيح.. السيد موراليس». كان في عيني الأم حزن نفاذ. «سيُفَصّل بدلة». لم يكن أياً منهما يلبس ملابس الحداد. وكانت تخيم على الجو مرارة خفيفة، طبيعية. ابتسمت لي الأم. وكان عليّ أن أنظر باتجاه دمية المانيكان، لأن قواي لم تكن قادرة على تحمّل تلك الابتسامة التي يمكن لها أن تكون ابتسامة أبيبّانيدا. فتحتْ دفتراً صغيراً، وبدأ الأب بأخذ مقاساتي وإملاء الأعداد المؤلفة من رقمين عليها. «هل أنتَ من سكان الحي؟... خمسة وسبعون». أجبت: «تقريباً». «أسألك لأني أشعر أن وجهك مألوف... أربعة وخمسون». «حسن، أنا أسكن في مركز المدينة، ولكنني أُكثر من المجيء إلى هنا». «آه! معك حق... سبعة وستون». وكانت الأم تدون الأرقام بصورة آلية وهي تتطلع نحو الجدار. «يجب أن يغطي ساقُ البنطال الحذاءَ، أليس كذلك؟ واحد ـ صفر ـ ستة». عليّ أن أعود يوم الخميس القادم من أجل التجربة. كان هناك كتاب على المنضدة: إنه من تأليف بلافاتسكي. وكان على الأب أن يخرج للحظة. فأطبقت الأم الدفتر ونظرت إليّ: «لماذا جئت تفصل

بدلة عند زوجي؟ من الذي نصحك بذلك؟». «آواه! لا وجود لأي شيء خاص. كنت أعرف أن ثمة خياطاً يعيش هنا، وهذا هو كل ما في الأمر». كان وقع كلماتي غير مقنع، وقد أخجلني ذلك. فنظرتْ إليّ مرة أخرى وقالت: «إنه يعمل قليلاً الآن. منذ ماتت ابنتي». لم تقل توفت. «آه، طبعاً. وهل حدث ذلك منذ زمن بعيد؟». «أربعة أشهر تقريباً». فقلت: «آسف يا سيدتي»، أنا الذي أشعر بالمصاب ليس كحزن بالضبط، وإنما ككارثة، كانهيار وفوضى شاملين. كنت أعي النبرة الكاذبة في صوتي، لأن قول «آسف»، والنطق بهذه التعزية التافهة والمتأخرة جداً، كان وبكل بساطة مرعباً، وبدا أشبه بالقول: «لقد توفت». وكان قولي ذاك مرعباً بصورة خاصة لأني قلته للشخص الوحيد القادر على فهم المعنى الآخر للكلام.. القادر على فهم الحقيقة.

الخميس 13 شباط

إنه يوم تجربة البدلة. لكن الخياط لم يكن موجوداً. السيد أبيبانيدا غير موجود. قالت لي زوجته ذلك فور دخولي. «لم يستطع انتظارك، ولكنه ترك كل شيء جاهزاً لكي أقوم أنا نفسي بإجراء تجربة بدلتك». ذهبتْ إلى الغرفة الأخرى، ثم رجعت وهي تحمل الجاكيت. وعندما لبستها بدت مريعة. لقد تأكدتُ في النهاية من أنه يصنع جميع البدلات فعلاً على مقاس دمية المانيكان. وفجأة استدرتُ إلى أحد الجانبين (الحقيقة أنها هي من طلبت مني أن أستدير كي تضع بعض الدبابيس، وترسم

بعض الخطوط بقطعة الطباشير) فوجدت نفسي في مواجهة صورة لأبيًانيدا لم تكن موجودة يوم الخميس الماضي. كان وقع المفاجأة مباغتاً وشديد القسوة. كانت الأم تراقبني، وقد سجلت عيناها ملاحظة واضحة عن ذهولي البائس. عندئذ وضعت على المنضدة ما تبقى في يدها من الدبابيس وقطعة الطباشير، وابتسمت بأسى وبثقة تامة بظنونها، قبل أن تسألني: «أنت... هو؟» وكان هناك بين الكلمة الأولى والثانية فراغ امتد ثانيتين أو ثلاث ثوانٍ، لكن هذا الصمت كان كافياً لتحويل السؤال إلى شيء شفاف. وكان لا بد لي من الإجابة، وقد أجبت، دون أن أنطق كلمة واحدة؛ قلتُ نعم برأسي، بعيني، بكل كياني. أسندت أم أبيانيدا إحدى يديها على ذراعي، ذراعي التي ما زالت بلا كُمّ، والتي تبرز من مشروع البدلة المسرجة وغير النافعة. بعد ذلك نزعتْ الجاكيت عن كتفي برفق ووضعته على دمية المانيكان. وكم كانت الجاكيت مناسبة للدمية. «حضرتك تريد أن تعرف، أليس كذلك؟». كنت واثقاً من أنها لا تنظر إليّ بحقد، ولا بخجل، ولا بأي شيء آخر سوى الشفقة المستنفدة والمتألمة. «لقد عرفتها حضرتك وأحببتها، ولابد أنك تتألم. أنا أعرف شعورك. إنك تشعر كأن قلبك شيء هائل يبدأ عند المعدة وينتهي في الحلق. إنك تشعر بالتعاسة، وأنت سعيد لشعورك بالتعاسة. أنا أعرف مدى فظاعة هذه الحالة». كانت تتكلم كأنها قد التقت بصديق قديم تناجيه، ولكنها كانت تتكلم أيضاً بأسى يفوق حزنها الحالي. «لقد مات لي شخص قبل عشرين سنة. شخص كان يمثل كل شيء بالنسبة إليّ. ولكنه لم يمت بهذه الميتة. لقد ذهب بكل بساطة. غادر البلاد، وحياتي. غادر حياتي بصورة خاصة.

وهذا أسوأ من هذه الميتة، وأنا أؤكد لك ذلك. لأني أنا التي طلبت منه أن يذهب، ولم أسامح نفسي على ذلك حتى الآن. هذه الميتة أشد سوءاً، لأن إحدانا تبقى أسيرة ماضيها، ومحطمة بالتضحية نفسها». مرت بيدها على عنقها وظننتُ أنها ستقول: «لست أدري لماذا أحدثك عن هذه الأمور». ولكنها أضافت بدلاً من ذلك: «كانت لورا هي آخر من تبقى لي من ذلك الشخص. ولهذا أحس مرة أخرى بأن قلبي هو شيء هائل، يبدأ عند المعدة وينتهي عند الحنجرة. ولهذا أعرف ما الذي تعانيه أنت». قرّبتْ كرسياً وجلستْ عليه منهوكة القوى. فسألتها: «وما الذي كانت تعرفه هي عن هذا الأمر؟». فقالت: «لا شيء. لورا لم تكن تعرف شيئاً على الإطلاق. أنا وحدي من يملك قصتي هذه. يا للكبرياء البائس، أليس كذلك؟» وخطر لذهني فجأة أن أقول: «وماذا عن نظريتك حول السعادة؟» فابتسمت وهي شبه عزلاء: هل حدثتك عن هذا الأمر أيضاً؟ لقد كانت كذبة جميلة، حكاية حوريات لكي لا تزلّ قدم ابنتي، لكي تشعر أنها تعيش الحياة، لقد كانت تلك هي أفضل هدية قدمتها إليها. يا للمسكينة!» كانت تبكي وعيناها إلى أعلى، دون أن تمسح وجهها بيديها. كانت تبكي بكبرياء. قالت: «ولكنك تريد أن تعرف». وعندئذ روت لي تفاصيل الأيام الأخيرة، والكلمات الأخيرة، والدقائق الأخيرة من حياة أبيّانيدا. ولكن هذا كله لن أدونه أبداً. هذا سيبقى لي وحدي.

الجمعة 14 شباط (فبراير)

«إنهما متحابان، وأنا متأكدة من ذلك، ولكنني لست أدري إن كان هذا هو الأسلوب الذي يروقني في الحب». هذا ما كانت تقوله أبييانيدا عن أبويها.

السبت 15 شباط (شباط)

اتصل بي صديق استيبان هاتفياً ليخبرني بأن تقاعدي صار وشيكاً. سأتوقف عن الذهاب إلى المكتب ابتداء من أول آذار.

الأحد 16 شباط (فبراير)

ذهبت صباح اليوم لاستلام البدلة. ووجدت السيد أبيّانيدا يكويها. كانت الصورة تملأ الحجرة، ولم أستطع صرف نظري عنها. قال: «إنها ابنتي، ابنتي الوحيدة». لست أدري ما الذي أجبته به، ولا يهمني أن أتذكر ذلك. «لقد ماتت منذ وقت قريب». وسمعت نفسي مرة أخرى وأنا أقول: «آسف». فأضاف قائلاً على الفور: «أمر غريب، إنني أفكر الآن في أني كنت غريباً عنها، ولم أُظهر لها قط مدى حاجتي إليها. مذ كانت صغيرة كنت أؤخر المحادثة العظمى التي عاهدت نفسي أن أجريها معها. في البداية لم يكن لدي وقت، ثم بدأت هي العمل في ما بعد، كما أنني رعديد جداً. أتدري؟ يخيفني أن أبدو عاطفياً. والواقع أنها لم تعد موجودة الآن، وبقيت أنا أحمل هذا العبء في صدري، هذه الكلمات التي لو أخبرتها

بها لتوصلت إلى خلاصي». توقف عن الكلام برهة وتأمل الصورة. «كثيراً ما فكرتُ في أنها لم ترث أي شيء من ملامحي. هل تجد فيها شيئاً يشبهني؟» فقلت كاذباً: «هنالك شيء عام». «ربما. ولكنها في الروح كانت مثلي تماماً. أو بكلمة أصح، مثلما كنت. فأنا أشعر الآن بأنني مهزوم، وحين يسمح المرء للهزيمة بالسيطرة عليه، يبدأ بالتحول.. يجد نفسه وقد تحول إلى تقليد ساخر وفظ لنفسه. انظر، إن موت ابنتي كان لعبة خبيثة. لست أدري جيداً إذا ما كان لعبة خبيثة من القدر أم من الطبيب. ولكنني واثق من أن موتها كان لعبة خبيثة. لو أنك عرفتها، لأدركت ما أعنيه». رمشتُ نحو عشر مرات متتالية؛ ولكنه لم يكن منتبهاً. «لا يمكن القضاء على فتاة مثلها إلا في لعبة خبيثة. لقد كانت... (كيف يمكنني أن أوضح لك؟) كانت كائناً نظيفاً، وكائناً زخماً في الوقت نفسه، وكائناً جباراً بشدة في الوقت نفسه. لقد كانت فتنة. وأنا كنت مقتنعاً على الدوام بأني لا أستحق هذه الابنة. أما الأم فتستحقها، لأن روساريو قوية الشخصية... روساريو قادرة على مواجهة العالم. أما أنا فينقصني التصميم، ينقصني أن أكون واثقاً. هل فكرت حضرتك في الانتحار يوماً؟ أنا فكرت فيه. ولكنني لم أستطع الإقدام عليه قط. وهذا نقص آخر أيضاً. فلدي كل الإطار الذهني والأخلاقي للمنتحر، وما ينقصني هو القوة لإطلاق رصاصة على صدغي. ربما يكمن السر في أنه لدى دماغي بعض الضرورات الخاصة بالقلب، ولدى قلبي الروائع الخاصة بالدماغ». ظل صامتاً مرة أخرى، وكان في هذه المرة يرفع المكواة وهو ينظر إلى الصورة. «لاحظ عينيها. لاحظ كيف ما زالتا

تنظران رغم الموت، بل تبدوان كأنهما تنظران إليك بالذات». ظلت العبارة معلقة وحدها. وظللت أنا مقطوع الأنفاس. وظل هو دون موضوع للحديث. ثم قال وهو يطوي البنطال بعناية: «حسن، لقد انتهى. إن القماش جيد. انظر كيف يُكوى جيداً».

الثلاثاء 18 شباط (فبراير)

لن أذهب بعد اليوم إلى 368. الواقع أني لا أستطيع الذهاب ثانية إلى هناك.

الخميس 20 شباط (فبراير)

منذ زمن لم أقابل آنيبال. ولست أعرف شيئاً عن خيمي. وحديث استيبان معي يقتصر على الموضوعات العامة، وبيغنالي يتصل بي في المكتب وأطلب من زملائي أن يقولوا له إنني غير موجود. أريد أن أظل وحيداً. وباختصار، أريد أن أتحدث مع ابنتي. وأن أتحدث معها عن أبيّانيدا بالطبع.

23 شباط (فبراير)

اليوم، وبعد انقطاع أربعة شهور، ذهبتُ إلى الشقة. فتحت خزانة الملابس. كانت تعبق برائحة عطرها. وما أهمية هذا الآن. المهم هو غيابها. إنني أعجز في بعض الأحيان عن التقاط التلونات الخفيفة التي تفصل بين العجز واليأس.

الاثنين 24 شباط (فبراير)

مما لا شك فيه أن الرب قد خصني بمصير قاتم. لا يمكن القول إنه مصير قاسٍ، بل هو مظلم وحسب. ومما لا ريب فيه أنه منحني هدنة. لقد قاومتُ في البداية ولم أقتنع بأنه يمكن لهذه الهدنة أن تكون هي السعادة. قاومت بكل قواي، ولكنني استسلمت أخيراً واقتنعت بذلك. لكنها لم تكن السعادة، بل هدنة فقط. هاأنذا محشور مرة أخرى في مصيري. وهو مصير أشد ظلمة من السابق.. أشد ظلمة بكثير.

الثلاثاء 25 شباط (فبراير)

ابتداء من الأول من آذار لن أعود إلى هذا الدفتر. لقد فقدت الدنيا أهميتها. لن أكون أنا من سيسجل هذا الواقع. هنالك موضوع واحد يمكنني الكتابة عنه. ولكنني لا أريد أن أكتب.

الأربعاء 26 شباط (فبراير)

كم أنا بحاجة إليها. لقد كان الإله هو أهم غياب في حياتي. ولكنني أحتاج إليها الآن أكثر من حاجتي إليه.

الخميس 27 شباط (فبراير)

أرادوا أن يقيموا لي حفلة وداع في المكتب ولم أوافق. ولكي لا أجر نفسي إلى الوقوع في إساءة، قدمت اعتذاراً شديد الاحتمال، يستند إلى مشاكل عائلية. الحقيقة أنني لم أستطع أن

أتصور نفسي وأنا سمج وثقيل الدم وسط حفل عشاء مرح وصاخب، يتخلله تبادل الضرب بكرات من لباب الخبز، وإراقة الخمر على الموائد.

الجمعة 28 شباط (فبراير)

اليوم الأخير في العمل. ليس هناك أي عمل طبعاً. لقد أمضيت النهار وأنا أصافح الأيدي وأتلقى المعانقات. أظن أن الوكيل كان يفيض بالرضا، وأن مونيوث كان متأثراً حقاً. لقد ظلت هناك منضدتي. لم أفكر قط في أنني سأقلق ولو قليلاً لتخلصي من الحياة الروتينية. أدراج مكتبي بقيت فارغة. وجدت في واحد منها بطاقة هوية أبييانيدا. كانت قد تركتها كي نسجل الرقم في ملفها الشخصي. وضعت البطاقة في جيبي، وهاهي معي الآن. لا بد أن الصورة تعود إلى ما قبل خمس سنوات تقريباً، ولكن أبييّانيدا كانت أجمال قبل أربعة شهور. هناك أمر آخر اتضح لي وتبينتُ أن أم أبييّانيدا على خطأ: فأنا لا أشعر بالسعادة لأني منكوب، بل أشعر بأني منكوب وحسب. لقد انتهى زمن المكتب. ابتداء من يوم غد وحتى يوم موتي سيكون الوقت كله رهن مشيئتي. هاهي البطالة بعد طول انتظار. فما الذي سأفعله بها؟



نبذة عن المؤلف:

ينظر إلى ماريو بينيديتي (1920_2009) من الأوروغواي باعتباره مؤلفاً متعدد المواهب. فله دواوين شعرية وقصص قصيرة، وروايات ومقالات. إلا أن أكثر ما برع فيه كتابة القصائد. حتى أن إحدى رواياته "عيد ميلاد خوان أنخيل" كتبها على شكل قصيدة شعرية طويلة. كما أن عدداً كبيراً من قصائده حولت إلى أغان يردّدها الكبار والصغار في إسبانيا وأمريكا اللاتينية. فشِعره يمتاز بالبساطة والوضوح.. غير أن الأعمال التي بفضلها ذاع صيته هذه الروايات والقصص القصيرة، مثل المجموعة القصصية "ناس من مونتيفيديو" 1959، و"الموت ومفاجآت أخرى"1968، و"بحنين وبدونه"1977، و"شكراً على إشعالك سيجارتي"1965 .

نبذة عن المترجم:

ـ صالح علماني مترجم فلسطيني، يقيم في سوريا.

ـ ولد في مدينة حمص/ سوريا، عام 1949.

ـ عمل في وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا) لسنوات عديدة. كما عمل مترجماً في السفارة الكوبية بدمشق.

ـ وعمل في وزارة الثقافة السورية (مديرية التأليف والترجمة) حتى بلوغه سن التقاعد في عام 2009.

ـ تخصص منذ أواخر السبعينيات في ترجمة الأدب الأمريكي اللاتيني.

ـ قدّم عشرات الترجمات لأبرز كتّاب أميركا اللاتينية.

ـ نُشرت ترجماته في بيروت ودمشق وعمَّان والكويت والقاهرة وتونس.

ـ شارك في العديد من المؤتمرات والندوات وحلقات البحث العربية والدولية حول الترجمة.

ـ أشرف على عدد من ورشات العمل التطبيقية في الترجمة الأدبية في معهد ثربانتس بدمشق.

الهدنة

يوميات رجل أرمل (مارتين سانتومي) يقترب من سن التقاعد بعد أن أمضى حياته موظفاً بين دفاتر الحسابات، ومضطراً إلى تربية أبنائه الثلاثة بعد وفاة زوجته.

إنه يعيش في قلق وهو يرى أن حياته قد انقضت دون أن يحقق شيئاً يستحق الذكر. وفجأة يضيء تلك الحياة وميض حب عندما تظهر فيها فتاة شابة يتعلق بها سانتومي.

تشكل الرواية تصويراً مريراً، مأساوياً ساخراً، لحياة الطبقة الوسطى في أوروغواي، في مرحلة تدير فيها تلك الطبقة ظهرها للهموم السياسية والاقتصادية، وتتنحى عنها وسط إحباط حياتها الوسطية ومعاناتها لتنغمس في خيانات صغيرة وأحلام بلا حدود.

الوحدة وانعدام التواصل، الحب والسعادة، والموت، والمشاكل السياسية هي بعض الأمور التي يواجهها القارئ في الهدنة الرواية المترجمة إلى عشرات اللغات، وجرى اقتباسها للسينما والتلفزيون والمسرح والإذاعة، ولكنها كانت أولاً وقبل كل شيء متعة استثنائية للقراء في أنحاء العالم كافة.

إنها واحدة من أجمل روايات الحب وأشدها قوة ورشاقة وشاعرية في أدب أمريكا اللاتينية.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

9 789948 018100